

الأعمال
الإبداعية

مكتبة الأسرة

مهرجان القرعة للجميع ١٩٩٦

أيام الإنسان السبعة

عبد الحكيم قاسم



الهيئة الوطنية
للأمناء العامة

www.liilas.com

florist



www.liilas.com
florist

أيام الإنسان السبعة

أيام الإنسان السبعة

عبد الحكيم قاسم



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

أيام الإنسان السبعة
عبد الحكيم قاسم

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

تصميم الغلاف
الإنجاز الطباعي والفني
محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم . . .

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهي الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية أيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

الحضرة

طول عمر الولد عبد العزيز وهو يحب صلاة المغرب ، فهي تأتي في وقت يكون فيه النهار رقيقا ، الشمس غاربة والأضواء لينة ، وربما حزينه قليلا ، والأب الحاج كريم يقول في وقار وترتيل :

المغرب جوهرة فالتقطوها ..

فاذا لم تبادر بالصلاة ضاعت مسحة الضوء الشفيفة الندية من الأفق وكبس الظلام ..

ويفرغ الأب من صلاة المغرب ، وينهض ليجلس في مكانه من الأريكة في شرفة الدوار على جبينه تراب من أثر السجود ، وفمه مشغول بالتسايبح ، كم هو طيب وحبيب ومهيب ذلك الأب الحاج كريم .

لا يجلس أحد في مكانه من الأريكة أبدا حتى ولو كان غائبا ، ولو فعل فانما يكون متوترا متدلى الساقين ، منحنيا الى الأمام واضعا كفيه على ركبتيه .. ذلك دوار الحاج كريم عن أبيه ، يقوم على رأس حارة كلها آله وعصبته ، وهو رئيسهم وهم محبوه وطائعوه ومباهون به .

يطوى الولد عبد العزيز الحصر الأبيض ويقيمه في زكن . ثم يلبد في جوار أبيه كقطعة صغيرة ، صغيرة ودودة ، وجسده النحيل مشبع بالشوق الى مباحع المساء .

وحينما يفرغ الأب من تسابيحہ يقوم مسبحته ويضعها في جيبه ويخط بكفه على باطن قدمه الراقدة تحت ساقه المثنية ، ويتنهد هاتفا باسم السلطان ، وجهه أسمر سمين متناسق الملامح وعيناه البنيتان طائران يغبان في الأفاق الوردية من شفق المساء . في هذه اللحظة يتوقع عبد العزيز أن يأمره أبوه باحضار الصباح ، ففي هذه الليلة يأتي كل شيء في أوانه . . . ويعود الولد بالللمبة الكبيرة ، ملمعة الزجاجاة عامرة بالكروسين ، ويضيئها الأب يعود ثقاب ويحملها الولد الى ردهة الدوار الكبيرة ويعتلى كرسيها حتى يصل بها الى الفانوس الكبير المدلى من السقف ويغلق عليها بابه ، وينتشر على الحيطان المبيضة نور الفانوس الاصفر الكابى ، تصحو النقوش والزخرفات وتتكلل بقطرات لامعة من الضوء ، وترتسم على الأرضية المبلطة دائرة كبيرة من الظلال تروح وتجىء متارجحة مع اهتزاز الفانوس .

وما تكاد دائرة الظلال تهدا مستقرة تحت الفانوس ومستطيل الضوء الاصفر خارج من باب الصالة ، وقاسم الشرفة الى ضفتين معتمتين ، ثم منحدر الى الطريق ، حتى يبدأ الناس يدبون عائدين من المسجد اثر صلاة العشاء متكسرين كأشباح واهنة وفي أفواههم بقايا تسابيح ، يمرون بشرفة الدوار يقرأون السلام مخافتين ، ثم يمضون تبتلمهم عتمة الحارة ، ثم في الدور الكئيبة تنتظرهم الغرف المظلمة والنوم الى الصباح ، اما أصحاب الحاج كريم فأمامهم مباحج المساء .

— السلام عليكم .

— عليكم السلام ورحمة الله .

عاصفة صغيرة من الود والضحك الرائق ثم يصعد الرجل الدرجات القليلة الى الشرفة ويسلم على الحاج كريم ويجلس الى

ما أبأس النهار ، حينما تنعقد وقدة الشمس ويصل ضوءها الى كل ركن قاسيا وحازما وينتصب الرجال في الحقول صارمين دؤوبين وتسعى النساء بقلل الماء وهرر الأرفغة صامتات ، حينئذ لا يكون ثمة مكان للكلمات العذاب ولا للحكايا ، تلك وقتها صدر المساء .

ما اعذب الحاج كريم في الأماسي ، ولكنه في النهار رهيب ، يتناول مقود بهيمته في يد قاسية ، ويسوط ظهريهما ، ويفجر سلاح المحراث باطن الأرض والبهيمتان تنلويان تحت النير والرغوة البيضاء تتساقط من خطيئهما على الأرض المشققسة ، وحوله العيال والرجال جهمون منهمكون لا يلوون على شيء .

الدور في النهار كئيبة غارقة في الضوء والغبار ، والشموارع ساكنة ، وقلب عبد العزيز ثقيل لكن الدور الآن شفيفة يتفرق عليها بهاء الشفق . .

يلبد الولد في جنب أبيه يستمع للتسابيح ، كلمات مبهمة لا يدرك سرها ، لكنها مفاتيح تفجر في خياله تصورات هائلة عن رجال ليسوا كالرجال ، ربما هم نحاف يرتدون أكثر الثياب رثانة ، لكنهم يقفون في أركان الدنيا ، أو يسسرون تطوى المسافات الشاسعة تحت أقدامهم كالسط ، ويمدون أيديهم فيمنحون البرء للمرضى ويملؤون الضروع باللبن والمخازن بالحبوب . . يحيون بين الناس لا تستطيع تمييزهم ، ثم يموتون فيولد النور وتبنى القباب في المدائن ، وتمتلئ الطرقات بالناس كأسراب النمل حاملين زادهم الى موالد الشيوخ .

يلبد الولد في جنب أبيه يسمع للصوت العميق الذى يخرج من قلب الحاج كريم وهو يرتجف بالنشوة والترقب لمباحج ذلك المساء .

جواره على الدكة ، ويداعب رقبة الولد النحيلة ويحس عبد العزيز
بيرودة اليد التي مازالت رطبة بالوضوء .

ورغم الظلام يرى عبد العزيز التماجة الشوق فى عيون أبيه
وهو يقول :

– تصلى انشاء الله فى الحرم الشريف يا شيخ احمد .

ويرد هذا داعيا بخشوع :

– وانت معنا انشاء الله يا عم الحاج .

وفى كل حين ينحرف رجل من الطريق المار بجوار الشرفة
ثم يصعد الدرجات القليلة الى حيث ينتهى به المجلس ثم يكون
السلام والكلمات القليلة والتحيات الطيبات حتى يلتئم شمل
الصحاب ..

فى كل مساء يلتئم شمل هؤلاء الصحاب ، عملوا طول النهار
فى الأرض حتى تشفتت أيديهم وصاحوا وصرخوا فى الأولاد
والنساء وساطوا البهائم وعميت عيونهم بالفضب العارم ، وفى
المساء لبسوا الجلابيب المغسولة وصلوا العشاء جماعة فى المسجد
الجامع وقالوا من قلوبهم آمين خلف الامام ثم جاءوا الى الدوار .

هم الآن طيبون حكماء ينظرون الى كد اليوم بوداعة ويتسمون
نادمين على عصفهم الفاضب بالنساء والولدان والبهائم ، لكنها
قسوة الحياة وخشونة النهار ، وذلك السر الكبير المبهم الكامن
فى صدر الأرض المغمم بالخصوبة وهم يدبون فوقها حيارى
مهمومين غاضبين فى وقدة النهار .

لذلك خلق الله المساء واخفى الشمس فى طيات المجهول لميقات
معلوم ، ولو كانت الدنيا نهارا دائما وكذا لاينقطع ، لانتقلب الناس
الى شياطين وما عرفوا الله .. لا بد من هدأة كل مساء ، يدهشون

فيها لعجائب النهار المدير ويتسمون لخشونته ويتساءلون ملحقين
عن سر النماء والذبول .

والحاج كريم سيد الزارعين ، الأرض امراته المطاوعة وهو ربها
القاسى :

– ان مكانش سلاحك فى قلب الأرض .. مافيش من وراها
رجا ... !

ويبهرون ويتسمون ، لكنهم يؤمنون ..

لا بد من هدأة كل مساء يحكون فيها ويبسطون قلوبهم كالاكف
المعطاة يدور الكلام وتتفتح الحكايا ، ففى كل صدر قلب ، وفى
كل قلب همه الفريد وهو فى رحلة الحياة يرى ويسمع ويتألم او
يرضى ، وفى المساء يأتى الى مجتمع الاخوان .

كل وجه من هذه الوجوه مطبوع فى خيال الولد عبد العزيز
بتفاصيله الدقيقة لا يختلط بمن عداه ، ولكل مزاج عرفه وألفه
وتعلق به وأحبه .

احمد بدوى اول القادمين الى جلسة المساء ، الشاب الذكى ،
قارىء الكتب للاخوان ، وجهه المستدير الطفلى المتورد الوججات
الضيق العيون ، المبتسم دائما .. وعلى خليل الدقيق المحاذر
صاحب دكان البقالة ، وآخر من يأتى الى مجلس الاخوان ، فانه
يتأنى فى صلاته ويتم اركانها ، أكرش نحيل الكتفين والذراعين
هضيم الوجه شاحب لا يتكلم الا قليلا ولا يطلق الضحك ، انما
يتسم فى هدوء ، والدماء القليلة تشوب شحوب وجنتيه ..
ومحمد كامل الطويل الأسمر ، العريض المنكبين ، قائد المرتلين
والذاكرين فى الليالى الذى وخط الشيب رأسه ولم يعقب بعد
خلفا ...

والعراقي الأطروش الذي لا يسمع ولا يتكلم وكل صلته بالحياة عينان حادتان سريمتان يعرف بهما الكلمات وهي تتكور على الشفافة ويوجب بكلمات مهشمة تثير الضحك أكثر مما تدل على شيء .. !

ومحمد العايق الدقيق الجرم ، ذو اليدين الناصعتين ،
الأنيق الفائح دائما بالعطر ، زير النساء وزوج اللصة رواج .

وعمر فرهود الجمال ، في النهار يصاحب جملة الهائل ،
يشبك مقوده في ذراعه ويناوله الطعام بلا انقطاع ، وفي الأذكار
يطير لبه ويتناثر الرغاء من فمه ويمسك به الرجال حتى يهدأ ، وفي
المولد يحمل صحاحير الزاد على جملة الى المدينة .

وسليم الشركسي النجار ، ثمالة أسرة أتلغ. آدمغتها جنون
غريب ، يجلس ساكنا لا يتكلم ، إنما يعلق على ما يقال ساخطا ،
أو يضحك راضيا .

كثيرون هم كل منهم عالم بذاته عالم حبيب ينتظره الولد
عبد العزيز كل مساء يشرب حديثهم بنهم لا يهدأ شيء ما يجمعهم
في مودة وثيقة عميقة وهموم اليوم حينما تطرح في جلسة المساء
تقودهم في درب واحد نحو الزمن القديم والصور الضبابية عن
الأيام الطيبات الثرية بالخير ، وعن الرجال الذين قالوا أحكم
الكلمات وأكلوا أحسن الطعام وملكوا قوة الهبة تمنح البرء
للمرضى تملأ الضروع باللبن والمخازن بالحبوب، وتقودهم نحو البلاد
البعيدة ، هنالك أصحاب وحكايات اللقاءات المتباعدة العامرة
بالحب العظيم ، وهنالك الأماكن القريبة والمزارات المهولة التي
تستحق أن تشد إليها الرحال مقابر الأولياء والصالحين في المدائن
الكبيرة .. حينئذ يتخلق وراء عالم الحياة اليومية المحدود ، عالم
آخر رائع لا نهائي يفجر الأشواق ويزحم القلوب بالوجد .

كل مساء سفر في عالم غريب ، وبطل رحلة المساء هو الحاج
كريم ، الأب الكبير ، سافر كثيرا وسمع كثيرا وحينما يشرع في
الكلام ، فإن عيناه تسبحان في الفضاء المضاء بالضوء الأصفر
الباهت ، وتظل النقوش من الحيطان يعيونها البراقة .. يتنهد
صافقا باطن قدمه اليسرى الراقدة على إفخذه اليمنى وهو متربع
في مكانه من الأريكة ..

— والله يا رجاله .. وحق من أماته ..

تخشع القلوب وتطرق الرؤوس ويحكى الحاج كريم عن رجل
من أصحابه أو عن شيخ من شيوخه أو عن حاكم نطق في حضرته
بالحق لم يخش شيئا ، وفي نهاية الحديث تمصص الشفاه ،
وتهينم بالكلمات الفريية .. لقد حاز الحاج محمد والد الحاج كريم
اطيانا شاسعة وبهائم وخيلا ، ثم عصفت الأزمة والوفاء للاخوان
بكل شيء .. وقتها كان الحاج كريم شابا غضا يدور على صهوة
فرسه كالأمير .. ما الناس الا حراس ما لا يملكون ، وغاية
الحياة ما بعد الحياة ، عالم ضبابي مسحور رائق يشعل الوجد ،
والحاج كريم يضيء مصباحه كل مساء للاخوان ويضيء المجلس
بالكلام الطيب ... ما أسعد من فتح قلبه للمودة والصفاء ،
وفدائنه القليلة كثيرة ببركة الله .

ويحكى أحمد بدوي عن ولديه الصغيرين ، لو كانا قد عاشا بلغا
الآن عمر عبد العزيز ، في ذلك اليوم لم يكن وجه أحمد بدوي
مبتسما ، كان غارقا في الدموع ، ولم تكن قامته القصيرة مكيئة
كما هي دائما ، كان واهنا متهدما ، يسنده من الجانبين
اثنان من الصحاب .

حينما يتذكر عبد العزيز هذه الأيام يفرق في الحزن والسكون
أيام الوفاء .. كانت أياما رهيبة .. جاء العم الشاب الى الحاج
كريم ..

– الموت يبعدي على السطوح من دار لدار يا حج كريم ..
عاوزين نحمل عيالنا وحالنا ونظير ..

اشقاء الحاج كريم وعياله مرعوبين ينظرون اليه .. وهو لا يتخلى أبدا عن جلبابه الكشميري الكبير ولا عن عمامته ، يحبب الدور –
يمسح القىء والبراز بكفيه ، ويحمل فرائس الوباء على كتفه الى العربات ، والناس مجفلون متباعدون خوف العدوى ، والعربات تحمل المصابين وتطلق زمارتها مبارحة القرية بناس لا يعودون ، موتي بلا مقابر ، يلقي بهم في حفر تروم بالجير الحى .

وكان صباح العيد الكبير حزينا ، الشمس ذهبية والشوارع مكنوسة ومرشوشة والقرية يلفها الخوف والسكون ، وجاء احمد بدوى وفي يديه ولداه الصغيران أربعة اقدام صغيرة بيضاء ، فى شبشب جديدة حمراء ، وفى المساء ماتا .. يا لله .

يحكى احمد بدوى عن ولديه .. ويحكى محمد كامل عن امراته «صديقة» الطويلة السمراء الواسعة العينين ، تمشى كسيرة مثقلة بالذنب ، لم يأت الى الدوار شيخ او مجذوب الا وسأله محمد كامل ، والا أوصاه الشيخ بدعاء يقوله اذا أتى امراته ، ويحكى محمد كامل – دليل الصوت – انه لم يفغل الدعاء أبدا ، فى المساء فى ظلام الغرفة حينما يأتى صديقه وجهه الأسمر القاتم ووجنتيه الدايلتين ينكس رأسه .. ربما .. كل شيء بميمات .

فى كل قلب همه الفريد ، لكن القلوب قد يسيطر عليها لون من الميل الرقيق ، حينئذ يعذب صوت احمد بدوى وهو يحكى عن تلك التى أحبها ، وعرفت جبهما اشجار الجميز على الترفة الطويلة .. لكن أباهما زوجها فى قرية بعيدة .. سكت مقهورا ولكنها قالت له أن تزوج فاطمة واستوص بها خيرا ، هو الآن يحب امراته البيضاء ذات الشال الكحلى ، يحبها فهى طيبة مطاوعة ، ويذكر

صاحبه بالخير .. لكن مبال القلوب تعصى أحيانا – كالحمز النكدة – وتأتى أن تنقاد فى طريق الوقار والكلم الصالح ، وتتشوق للهدر والكلام الفاضح ، فتميل الدفة ناحية العايق ، حينئذ تبسّم شفتاه عن أسنان أهلكتها الكيوف ، وعيناه اللتان ربما أضر بهما الدخان المتصاعد من الجوزة ، تلتهب الجلسة بالضحك وراء حكاية عن زوجته اللصة روايح وعشيقته الجازية ليست حراما معاشرته للجازية فلقد وهبت نفسها له – على خليل يشحب من مهارات العايق – لكن الجازية وهبت على أى حال – كنزا من اللحم الأبيض والعيون المكحولة ، يوازي كنزا وهبت له روايح من كل شيء يمكن أن يسرق وينقل ، تدور الجازية وراءه فى الموالد ، فى دهليز ضيق مظلم ، ضبطهما الحاج كريم فزرق فيه فهب من فوقها مذعورا يعدل عمامته ، ونظر اليه الحاج كريم وهو يتميز غيظا :

– سايب الناس ودابير تلعب يابن الكلب .

وسوى العايق ثيابه ملهوجا :

– حاضر يا عم ..

وانطلق يقدم للناس الطعام والقهوة ، ويبادر الى ما يحتاج الى اصلاح من كلويات .. يحكى العايق ، ويطرق الحاج كريم تمففا ، ويكتم ضحكه فيهره الضحك المكتوم هذا ، ويتقافز الولد عبد العزيز فى مكانه من السرور .

العايق ليست له أرض فيما عدا قيراطين على حافة السكة ، يرتدى جلبابا ناصعا مثل الباشا ويضع على رأسه شمسية غالية ويذهب كل عصر ليتفقد «الأرض» والقرية كلها تضحك ، وهو ليس فلاحا ، انما هو فراش يضىء الكلوبات فى الآتم والأفراح ، وامراته تسرق له كل شيء ، يأكل كل يوم لحما ودجاجا وبطا

مسروفا ، ويتعطر ويلبس أفخر الشباب ولا يأبه لأحد ، يمتلىء قلب عبد العزيز ضحكا وهو يتذكر العايق واقفا وسط المآتم نحيفا دقيق الحجم يرتدى قفطانا لامعا من الشاهي وفي يده ابريق القهوة - لا يسميه ابريقا - بل يقول عليه « سلاحا » يرفع يده الى أعلى بالسلاح ويده الأخرى ممدودة بالفنجال وينزل سيل القهوة قاطعا هذه المسافة الطويلة لكنه لا يخطيء أبدا طريقه الى الفنجال .. وبكل أنفة وكبرياء يمد يده للناس واحدا وراء الآخر بالقهوة من شرب شرب ، ومن رفض بإيماءة من رأسه تجاوزه بحركة رشيقة من يده ، يطير بها الفنجال الى الشخص التالي دون أن تسكب منه قطرة واحدة .. هكذا هو يمشي وسط أكبر المآتم منتشيا كالديك ومتجهما ينظر الى الكلوبات كأنه شاويش الداورية الذي يمر على الخفراء الساهرين .

الولد عبد العزيز ، يحب العايق ونكاته وسخرياته بالشركس وفرهود الناس يقولون عليه كلاما كثيرا فامراته لصبة وهو يأكل ويلبس من الحرام ، الكلام يصك قلب عبد العزيز حينما يأتي على خليل الى الحاج كريم .. على خليل لا يتكلم الا قليلا ، ويعرف الناس العناء على وجهه قبل ان ينطق ينكس رأسه وتزداد أكتافه هزالا ، يحل الصمت وتنصرف الى ناحيته كل العيون وترتبت عليه عيون الحاج كريم بحنان :

- يا عم الحاج .. العايق كل عيشته حرام .

- يا على .. ببعوص ايده جاز وينور لنا لمبة في فرحنا وميتمنا ..

- عيشته حرام ..

- ربنا سايعه في ملكه .. وفي طريقه .. ما اقدرش اطرده .

لكن على خليل يلح :

- عيشته حرام في حرام ..

ويكسب وجهه صفرة خوف يعرفها عبد العزيز في وجهه على خليل حينما يجلس مستمعا الى الواعظ ، ذلك العملاق الهائل الذي يقف وسط جمع الفلاحين يصرخ بأعلى صوته ويقول اشياء مرعبة عن نار الجحيم وعن الكاذبين والسارقين والزانيين .. صفرة وجهه على خليل وهو يتكلم تخيف عبد العزيز فلم يحب هذا الواعظ أبدا ، ربما أحب حمارته أكثر ، تلك الحماراة الدقيقة الحجم البيضاء ، كان عبد العزيز يظنها طفلة في الحميم لكنه عرف انها عجوز وهكذا ، ومع ذلك ظل يكره أن يرى جرم الواعظ الهائل يثقلها حتى ليكاد يكسر ظهرها .. يأمره أبوه فيقتادها رفيقا بها الى الزريبة هناك تقف ساكنة تنهد الى جوار حمارتهم الضخمة السمراء ويتصور عبد العزيز ان الحمارتين ستغرقان في حديث ودود بعد خروجه .

يظل الحاج كريم يحاور على خليل حتى يذهب خوفه ، ويعيد البهجة الواهنة الى وجهه ، ويفرح عبد العزيز بدفاع الحاج كريم عن محمد العايق .. ذلك الرجل الأبيض الدقيق الجرم الطفلي الحجم كحماراة الواعظ تماما .. كم يمتلىء قلبه اشفاقا عليهما الحماراة النحيلة والعايق الخطاء ..

وقد يطير العبت بكل وقار فيقف العراقي الأطرش وسط الحلبة بلحيته وعمامته ومسبحته الخشبية الكبيرة الحبات ويحكى .. كيف يحكى العراقي الأطرش ..؟ لغة خاصة به ، كلمات مهمشة تكمل معانيها حركات قرذية بيديه وجسده ، وتلعيب للامح وجهه ، وصيحات وهمسات وقيام وقعود .

لكن يا الله .. لقد كان العراقي الأطرش ذنبا يلبد طول النهار

فوق جميزتهم على رأس الحقل لا يكلم أحدا ، حائر العينين مكشرا منفردا ، لا علاقة له الا بأمه العجوز السوداء المكرمشة الوجه ، تم سقط مريضا ، وجلس القرفصاء على ظهر الفرن في الغرفة المظلمة في قاع الدار، لاتبرئه أحجية الكاتبين ولا وصفات العارفين، الى أن هبط القرية شيخ سبقته شهرة عريضة في معالجة الأرواح التي تعمر الأجساد وجاءت به الام الى ابنها ، ومكث الشيخ في الدار شهورا ، قال ان العراقي قد عمل له عملا عويضا مكتوبا على ذرات الردة ، وان الردة التي كتب عليها قد نثرت على اركان الدنيا الأربع، وانه لا سبيل الى افساد هذا العمل الا اذا جمعت الردة المشؤمة وأحرقته، وان ذلك عمل شاق سوف يقوم به أعوان الشيخ وخدامه من الجن الصالحين .. وفي كل صباح كان يأتي بقليل من الردة ليقول هذا جمع من العراق ، هذا جمع من الحجاز ، والايام تمر ، وهو جالس متربعا على ظهر الفرن لا يفطر الا بالفطير والعسل ، ولا يتغذى الا باللحم والطبخ ، وفي كل آن يطلق بخورا ويكتب أوراقا تكلف مبالغ كبيرة ، وعلم الحاج كريم بالأمر ، فأخذ عباءته وعصاه - وعلى جانبه اثنان من الاخوان - وقصد دار العراقي الاطرش ، قلب للشيخ بخوره وكسر آنيته وضربه وطرده من البلد والعراقي ينظر مذهولا ثم يضحك أخيرا ويأخذ الحاج كريم الى الدوار .. ثم الى الطريق ..

ليلتها جلس على الحصر مع المرتلين لا يدرى ماذا يدور حوله ثم بدأ يغمض عينيه ويحرك رأسه يمينا ويسارا مقلدا الدراويش على غير ايقاع وهو يهين بأصوات غريبة .

ليلتها ضحك عبد العزيز من قلبه على العراقي ، لكن العراقي أصبح شيئا آخر يتكلم ، هي كلمات مهشمة لكنها تفسد بعض المعنى ، وأصبح يعمل في مشتل مصلحة البساتين ، واشترى دراجة وهام بهذه الدراجة حبا ، يزيناها ، ويربط فيها الشرائط والأوراق

الحمراء والخضراء ، واذا تلف فيها شيء حزن وجاء للحاج كريم :
- الأكله عيانه يابا ..

فهو يدعو الحاج كريم أباه ، يجبه ويجلس بين يديه ضاحكا يكاد يطير فرحا ، وهام بالاخوان والطريق حبا ، بل انه أطلق لحيته واشترى لنفسه عمامة حمراء ، وحزاما أحمر يدور حول خاصرته ويقسم عرض صدره من اليمين الى اليسار ومكتوب عليه بالنسيج الأخضر « لا اله الا الله محمد رسول الله » وهو يهيم بالشموع والبيارق والرايات يشتري منها ما يستطيع ، وفي صباح العيد يزين المسجد ، وفي غبشة الصباح المبكر ترى المسجد غارقا في ضوء الشموع ، في كل مكان مناديل ملونة ورايات ، والعراقي يكاد يجن سرورا ، طائرا في صحن الجامع ، يقبل الناس ، ويصيح مناديا المدد على السلطان .

يقف العراقي وسط الحلبة يحكى حكاية يومه في العمل بطريقته الخاصة يقلد كل الناس ، يضحك الاخوان على المفتش ، وعلى كل من صادفه ، وأغاظه أو سره .

وهكذا ، في كل مساء أمسية يطفأ بعدها المصباح ويعود الناس الى الدور .. لكن الليلة ليست كغيرها من الليالي ، انها ليلة جمعة ، وليلتنا الجمعة والاثنين من الأسبوع ليلتان مباركتان تقرا فيهما دلائل الخيرات وبردة البوصيري وتكون حضرة مباركة .

فبعد أن يجتمع شمل الاخوان يتركون الشرفة الى الصالة الكبيرة حيث الفانوس الكبير وحيث الدكان الهائلتان متقابلتان الى جوار الحائطين ، يجلس الحاج كريم في مكانه من الدكة ، ويبتسم لاحد الجالسين :

- افرش الحصر يا بنى ..
- حاضر يا عم الحاج .

وتفرش الحصر البيضاء الناصعة على أرض الصالة المبلطة ..
شمعية البياض هذه الحصر ، تقسم صفاءها أحجية ومربعات
ملونة بالأحمر والأخضر ، حصر جميلة صنعها الرجل الصالح سيد
من محلة منوف .. كسير العينين لا يكاد يرى ، كسير الصوت ،
لا يكاد همسه يسمع لكن بيديه خشونة وصلابة غريبة كأنهما
أظلاف ، ربما ذلك من كثرة ما تد كان السمار على الخيطان في
مهنة الحصر ..

إذا ما أعجبتة تحفة من الحصر ، مصلى أو مفرش دكه طواها
وحملها على خاصرته - على طريقة أهل مهنته - وجاء بها من
قريته الى الحاج كريم ، طريق طويل ، يقطعه مارا بالناس والحقول
والقرى ، تؤنسه التراتيل والتسايبح ، يقرأ الناس السلام حتى
العبال الذين يلعبون بالتراب .. وحينما يصل ويضع حمله يجلس
صغيرا ساكنا كحمامة لا يصدر منه الا صوت حسوات القهوة من
الفنجان الزر كرش الكبير .. ثم ينهض متصرفا .. ويعترض
الحاج كريم :

- ريقنا ما اتبل من لقاك يا شيخ سيد .
- ارادة ربنا ..
- لقمه .. !
- ما فيش نصيب ..

ويحزن الولد عبد العزيز لأن هذا الضيف الرقيق لن يشارك
أباه طعامه ، وحينما يصفاح يتساءل الولد .. ترى هل تكمن
ارادة الله في صلابة هذه اليد العربية ..؟

فرشت الحصر التي صنعها الرجل الصالح سيد من محلة
منوف على أرض الصالة المبلطة ، وشقتها من منتصفها تماما ارائك
صغيرة واطئة وضعت عليها مصابيح الكيروسين الصغيرة وشموع
العراقي ، وأوان صغيرة فيها جمرات متقدة نثر عليها البخور ،

فانطلقت سحائبه وعطره واصطف الدراويش جالسين في صفيين
الى هذه الارائك الصغيرة الواطئة وفي كل حين يفتح باب الدوار
وبدلف ريفي يقرىء السلام ويتلفت محاذرا ثم يخلع نعله ويجلس
حيث انتهى به الصف ، حتى اذا ما آن الاوان جيء بالصندوق
الكبير من الغرفة الداخلية ، ذلك الصندوق الذي تحفظ به نسخ
دلائل الخيرات وبردة البوصيرى وكذلك الوسيلة .. وثمة في ذلك
الصندوق أيضا كتب أخرى مهولة ..

يرقبه عبد العزيز محمولا على كتف احد الدراويش حتى
يستقر على الحصر عند رأس الصف من الجالسين .. يا له ..
قد ينصرف الناس الى كد اليوم في الحقول ، وتصيح الشوارع
ساكنة قليلة العابرين ، ويثقل الفراغ قلبه .. فيتسلل الى الغرفة
الداخلية حيث ذلك الصندوق الكبير يجذب غطاءه فينزلق كاشفا
عن اكداس من الكتب صفراء الاوراق منمنمة الكتابة ، يتجاسر
وهو خائف مرتعب ، ويخرج من الصندوق كتابا يبسطه أمام
عينيه ويتأمل تلك النمنمات المرصوصة في داب لا بكل ملء
صفحات وصفحات ، يتأمل هذه الكتابة ولا يفلح في استكناه
سرها ، انه يذهب الى المدرسة وله كتبه ، صغيرة مرحة كبيرة
الكلمات تحكى حكايات لطيفة عن اولاد نظيفى الثياب وبنات
صغيرات ذوات صفائر وشرايط ، لكن هذه الكتابة الغريبة هي
همه الكبير ، لا تبوح له الا بالندر اليسير من حرف او كلمة
لا تكون معنى .. كيف اذن تتحول هذه الصحائف الصفراء الى
سحر يخلق في سماء مجلس الاخوان ، حينما يجلس الحاج كريم
متربعا في مكانه من الأريكة خابطا بكفه باطن قدمه اليسرى الراقد
على فخذه اليمنى ..

- المصاييح يا شيخ احمد يا بدوى .. نور المجلس بمناقب
الصالحين ..

ويؤتى لأحمد بدوى بكتاب مناقب الصالحين ويقرا مررتلا مترنما ، تتفجر الصور الضبابية ، وتتحرك فى أربع أركان المعمورة رجال ليسوا كالرجال ، تدق المسامر فى الأطراف ، وتجلدا الظهور بالسياط ، لكن شيئا غريبا يظل بعيدا عن العذاب لا يدمى ..
وحيثما تدمع عيون الحاج كريم ، فان قلب عبد العزيز ينفطر فى محاولة لاصطياد السر الخرافى .. الخبز الأسمر الخشن ، والملح الأجاج ، والماء العكر ، والأثمان البالية وعيون كالطيور الغربية لاتحط على مكان .. رجال ليسوا كالرجال ، ليست السيقان كالسيقان ، انما هى مؤشرات تطوى تحتها المسافات الشاسعة كالبسطة ، وليست الأيدى كالأيدى ، انما هى مؤشرات لتقدير المقادير ..

يتجاسر عبد العزيز على الصندوق ويستخرج من جوفه مزيدا يتأمل أغلفته ، فان بعضها يحمل رسوما يعترف منها محتوى المجلدات ..

تلك بلا شك هى سيرة الهلالية ، وذلك الرسم على الغلاف هو الحسن بن الربيع وأبا زيد ودياب بن غانم فى مجلس العرب ، لكم أحب عبد العزيز الحسن بن الربيع ، كان رجلا حكيما رصينا حزينا يستشف النكبات فى طيات الأيام الآتيسات ، واذ يترنم أحمد بدوى بشعر حكمته فى المجلس تميل الرؤوس طربا وتأسى ..

لكن مريم الصناعات تثير فيه شجنا غريبا تلك المسححة الدائبة على اشغال الابرة ، تمخر بها السفن العباب وتباع فى الأسواق وتدخل السعد على مشتريها بصناعة يدها واشغال ابرتها ..

وذلك القرد الذى يتحول كل آن الى أمير وسيم ، يا للضحك لقد كبر عبد العزيز بعد ذلك وذهب الى المدرسة وتعلم كيف يقرا .. ثم مد يده وتناول الكتاب وطالع كأنما هو فى الفصل لكن اباه الحاج كريم نهاه !

— ما هكذا يقرا الشعر يا بنى ، انما يرتل ترتيلا ! ..
كل الكلام فى الصحائف الصفراء عندهم شعرا ، وكل القراءة انما هى ترتيل وغناء ..

ذلك هو حق السرور والأحزان .. الصندوق الكبير ..
وزعت نسخ دلائل الخيرات على الدراويش ..
كل من جلس على الحصر الأبيض الى الدكة الصغيرة درويش .
وحل نوع من الصمت الا مصمصات شفاه أو تسليك حناجر وصفق الحاج كريم بيده ..

— استبدا يا شيخ محمد يا كامل ..

فهو أكبر الدراويش سنا وأكملهم وقارا ، فارس الذكر فى الليالى ، استبدا بصوته العميق وخلفه جوقة الدراويش والترتيل ينساب هادئا رتيبا والصلوات على النبى تترى عدد حبات الرمال وعدد موج البحار ، وعدد ما كتبت الأقلام ، وعدد ما لم تكتب الأقلام ، وحرارة الأصوات تزداد دفئا وقوة .. حتى تنتهى دلائل الخيرات وقد تركت الدراويش أكثر رغبة فى تلاوة التراتيل ..
ويصفق الحاج كريم ويميل من الرضى ..

— استبدا بيرة الأباصرى يا شيخ أحمد يابدوى ..

أحمد بدوى ، الشاب الذكى ، الجميل الصوت ، قارئ الكتب للاخوان فى المجلس هو الذى يليق لقيادة جوقة الدراويش فى تلاوة شعر الأباصرى ، فالبردة حافلة بالغناء ، وصوته حافل بالألوان وهو القادر على أن يقود القراءة الى ذرى الانفعال .

— مدد ياسيدى يا أباصيرى ..

عيناه عالقتان بأشعة شاحبة هائمة فى سماء الردهة الكبيرة
- الوسيلة يا شيخ احمد .. الوسيلة يا ابنى ..
روح مشتاقه لا دواء لها الا التراتيل ، تحمل على أجنحة
الاصوات المبروكة الى سماوات الرواء ويجاوب قلب كوته النار .

- اللهم انفعنا بهم ..

ثم يبدأ احمد بدوى فى قيادة الدراويش يقراون الوسيلة ،
كم يحب عبد العزيز الوسيلة وكم يحب ان ينصب مشدوها الى
أبيه الحاج :

- لما ينام اللى قلوبهم فارغه .. يفضل الكرام صاحيين ..
يتقربوا لله بذكر اوليائه ..

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، نفس الله فى خلقه ، بضعة
من رسول الله انحدروا من صلبه عن فاطمة عبر الأجيال ، قلة هم
لكنهم اقرب خلق الله الى الله ، يتميزون بالعمائم الخضراء بين
الناس كم يحبهم الحاج كريم وكان أبوه كذلك يحبهم حتى لقد
تزوج واحدة منهم من الشرقية وحينما ماتت طار نعشها يكاد يقتلع
أكتاف الحاملين تريد أن تدفن فى جوار آلهما الصالحين لكن الجد
الكبير وقف بجوار النعش يبكى ويتوسل لها أن تبقى .. وما
استقر النعش الا بعد أن وعد ببناء مقام له قبة وهلال لاتزال ترى
قائمة فى مقبرة القرية الى اليوم ومن يومها والجد الكبير يتخذ
الشيخ والد زوجته شيخا له وهو له درويش ومرید ، وبعد الجد
اتخذ الحاج كريم ابن الشيخ الكبير شيخا له وهو درويش
ومريد ..

أبيات الوسيلة تعدد الأولياء وكراماتهم وصوت جوقة
الدراويش ملء بالرجاء والمذلة وهو يتوسل الى الله بالأولياء ..
وعبد العزيز يترقب البيت الذى يجيء فيه اسم شيخهم الحالى :

بمحمد بن الفضل معروف السنا
ليث الأفاضل والامجد والنسدا
يا رب نور قلبه وطريقه
واجعله فى يوم المعاد لنا يدا

يخفق قلب عبد العزيز اذ يتذكر الشيخ ، ويتذكر وسامته ،
وصفاء ملامحه ووقاره وسكونه ..

واذ ينتهى احمد بدوى من القراءة تبقى رأسه منكسة وحيات
عرق دقيقة تلمع فى أعلى جبينه والحاج كريم يهز رأسه على
الايقاع السابق كأنما دوى القراءة لايزال فى أذنيه .. يحل صمت
طويل لا تأمه الا مسح الجباه بذيول الجلابيب حتى يؤذن صفق
الحاج كريم بكفيه ..

- الفواتيح يا شيخ محمد يا كامل ..

احتفال مهيب تختتم به كل حضرة يقوده محمد كامل مغمض
العينين يجلجل صوته مشيرا ومقترحا ..

- الأربعة الاقطاب .. والأربعة الانجاب .. والأربعة خلفات
النبي لهم منا الفاتحة ..

وبعده تنطلق الهمسات من الجالسین تقرأ الفاتحة فى ابهام
وغموض ..

- الفاتحة لأهل السماح ..

- الفاتحة ..

- الفاتحة ..

- الفاتحة لآخوان الطريق ، الحاضر منهم والغائب لهم منا
الفاتحة ..

ومن بعض الجوانب يأتي صوت متردد خجول :

- الفاتحة يا اخوانا لفلان ربنا يزيج غمته ..

ربما هو اخ مريض او مكروب يلزم داره او هو مسافر لقضاء حاجة ، يغمض محمد كامل عينيه ويصيغ الطلب ويأمر بالفاتحة .

ثم الموتى ... اخوان كانوا زهرات هذه الليالي ، ثم طواهم الموت في القبور ، ولكن ذاكرة الدراويش لاتنساهم .. يقترح محمد كامل الفاتحة لكل منهم ، هم دار الدوام ونحن في دار الزوال .. ما أسعدهم ، ختم الله حياتهم ختاماً صالحاً واختارهم لجواره ..

المقبرة في ذهن كل اخوان الطريق ، دار البقاء السمراء الشواهد ، شواهد طينية تتابع صامته .. في صباح العيد حينما يجلجل صوت المبلغ رائعا يتردد صداه في المسجد الجامع :

.. فاذا ما ارتقى الخطيب المنبر ..

وسبح لله وهلل وكبر ..

فالواجب على اهل المحضر ..

ان ينصتوا للكلام ..

وينصتون حتى ينتهى الخطيب وينزل سلالم المنبر صفيرا شاحبا مباركا وتنتهى صلاة العيد ، ويخرج الحاج كريم في ابهى زينته ، وخلفه الاخوان وجموع اهل القرية صامتين لا ينبسون ، ماضين نحو المقابر لا يضافحون أحدا ولا يتكلمون ، لا سلام ولا كلام قبل تحية الراحلين ، فاذا كان الحاج كريم بازاء المقابر وخلفه الناس وقف جليلا ..

- السلام عليكم ورحمة الله دار قوم مؤمنين .. انتم السابقون ونحن اللاحقون ..

وحينما يهل الحاج كريم ووراءه جموع الناس على المقابر ، تتسلل النساء عائدات ، هن الحزاني ثواكل الاولاد والبعل ، بتن ليلة العيد كل واحدة امام شاهد قبر ابنتها او بعلاها النائم في التراب - تواسه في الليلة المباركة ، اما النساء السعيدات ، فقد أمضين الليلة افي القرية بين العيال او في حضن الزوج .

يتفرق الرجال في طرقات المقبرة بين الشواهد يحيون الموتى ويدعون لهم فان دعاء الحى للميت ينير قبره ويوسعه عليه يحيون ويضعون الجريد الأخضر على القبور ويسقون الصبار . وفي الآخر يجتمعون جميعا في مقام زوجة الجد محمد ، وهناك يقيمون حضرة صباحية ثم يهبون ثوابها للموتى .

وبعد ان تتم تحية الموتى على هذا النحو يصبحون في حل من السلام على بعضهم والكلام والتبريك بالعيد ..

هكذا قرئت الفواتح للقريب والبعيد للميت والحى ثم جلجل صوت محمد كامل ..

- الخاتمة للنبي .

وقرئت هذه الفاتحة بالذات بصوت قسوى جهورى احتراماً وتبجيلا وبنهايتها انتهت الحضرة وتحرر الدراويش من سممت الجد الذى اتخذوه للقراءة وبدوا يستريحون في جلستهم ويشتررون وشفقت احقاق المضغ على الاكف ولفت السجائر وطارت سحب الدخان ودارت العيون بحثا عن النعال ..

وهكذا في كل مساء من ليلتى الاثنين والجمعة حضرة مباركة تقرا فيها دلائل الخيرات ثم بردة الاباصيرة ثم الوسيلة ثم الفواتح في الختام ..

لكن هذه الليلة ليست ككل الليالي .. ذلك انه ذات عصر كان الحاج كريم جالسا يشرب القهوة في شرفة الدوار .. اذ اقبل

عليه سليم الشركسى النجار لايسا جلبابه الحريري ولبدته البيضاء
وحذاءه البرتقالى الطويل الرقبة وعلى وجهه بقايا من غبار الطريق
ومسحة سرور تعرف على وجوه الايبين من الاسفار ..

ان سليم الشركسى ليس نجار سواقى او نوارج انما مهنته
صناعة مصاريع الأبواب والشبابيك وايدى السكاكين ومزايج
الأبواب ، ولذلك فعدته لامعة صقيلة ولباسه مهتم ومزاجه
عصبى حاد .. وفيه الى جانب ذلك شيء يخيف ، ربما فى ومضات
عيونه ، أو فيما يقال عن جد الشراكسة الكبير من انه كان فاسد
الدماغ يدمن المنزول ويأتى بفرائب التصرفات وعجيب الأقوال ،
وربما شيء من ربح هذا الجد يتفرع فى عروق الأبناء والحفدة اثر
لاستطيع امساكه لكنك تحسه وتخافه ..

وامرأة سليم الشركسى النجار فارعة بيضاء ولدت له ستا من
البنات وشوق الرجل لولد من صلبه زاد طبعه عصبية وحالطت
صوته نغمة قانطة وشده الطريق اليه .. وجابت امرأة النجار
ولدا أسموه شحاتا ، فكلنا شحاتين وان هى الا لقيعات ومتاع
الدنيا قليل .

صعد الرجل الدرجات ، على وجهه غبار الطريق ومسحة
السرور والحاج كريم عمره ما انتظر أن يقرأ السلام ، انما يبادر
مرحبا بالقادمين ..

— مرحبتين يا شركسى .

— وسلامين يا عم الحاج ، واحد من عندى وواحد من عند

الحياب .

وينغم الحاج كريم السرور الطائر حول اللقاء بخبطات كفه على
باطن قدمه ..

— هيه .. هيه .. هيه

يستعجل الحكاية والشركسى يلم جلبابه الحريري بحذر
ناصح هفهاف يلبسه شتاءا وصيفا منذ ما يعى عبد العزيز يلبسه
فى الاسفار والاعياد واحتفالات الاخوان يخرج حق مدغته لا ينكش
الدخان فى الحق بقشه من الأرض كسائر الناس بل بمسماز جديد
مستقيم مدبب يعزم على الحاج كريم .

— قرئت لك الفاتحه فى السلطان .

— مدد ياسيدى يا سيد .

بخشوع نبرة تصك القلب

— وملت على الشيخ على .. الفرح امتى .. قاللى الليلة الكبيرة

مثل النهاردة ..

وهلل الحاج كريم كانما رأى الهلال اول الشهر العربى ..

— مدد ياسيدى ياسيد مدد .. ناديت علينا يابو فراج وآد

اخنا جاين ..

بدات الأنفاس المبروكة تسرب فى البلد وتوقظ القلوب ..

صدر عبد العزيز ضائق بقلب كالعصفور ، السيد البدوى ينادى

أولاده أو هم فى اسفارهم يدورون يدبون على البلاط المبلول فى

المسجد الكبير ويسألون الخدم متى الفرح الكبير .. ؟ وتترى الأيام

ثم ينتشر الخبر فى الجرائد عند ذلك يكون الوعد اليقين ..

وفى هذا المساء كان العراقى الاطرش يصعد الدرجات الى

الشرفة ملهوجا عجولا ، وقبل السلام يدفع جريدة مطوية الى يد

الحاج كريم ويهتز كيان عبد العزيز ضحكا ، ويلكز احمد

بدوى جنب العراقى .

— سلم الاول يابن الكلب

– اقرالى .. اقرالى .. كتابة الجونال بتزغلل عيني

.. (تقرر أن يكون الليلة الكبيرة ..) ..

وبعد أن فرغ أخذ الحاج كريم الجريدة وقربها من عينيه ، ثم أبعدا عنها لآخر ذراعه ، وقرأ لنفسه محركا شفثيه ، ثم ركن الجورنال بجانبه وصفق بيديه بعزم ..

– شئت وليينا .. يا سلطان

ثم يترنم مسرورا

ياراحلين ليمة ياإباد

شوقتمو يوم الرحيل فؤادى

هكذا ينادى السيد البدوى أولاده، أما ساكن البرية فيما بعد القرين شرقية ، سيدي سليم أبو مشلم العراقي ، الذي أتى من العراق الى أرض مصر الطيبة فى بيارقة ورجاله ، وأقام منفردا فى الحلاء، وكما كان مجلسه وسط الاخوان لايزال، ضريح واطيء منهدم الحيطان، وحوله بضعة قبور ، وتتناثر اكواخ ريفية هنا وهناك كأنما تقوم على خدمة المتسامرين .. وفى الأمد الشاسعة حوله تتنفس الرياح انفاسها الطلقة الجبارة .. فاذا ما كان المولد زرع الخلاء ناسا وخياما وطبولا وخيولا ولحوم جديان وتاب السارقون والقتلة وتجاوبت الآفاق بالتراتيل ، يالهذا السيد ويا لسيرته الغريبة فى نداء أولاده ..

– فى مولد العراقي يجى الراجل أبو جريدة .. مش كده . ؟
اسود كأنه مصنوع من اطر السيارات ، مفتول العضل كأنه مهر ادهم مستوفز على خلفتيه ، يسير ، بل يهرول حافيا وفى يده جريدة طويلة ، فى طرفها قطعة من الورق مكتوب فيها موعد المولد ومختومة بختم شيخ السجادة ، يدور يجوب المديرات السبع مناديا على مولد العراقى ..

وعراقى الأطرش ينظر الى شفثى احمد بدوى ويعرف انه

يشتمه فيقول بكلمات مهشمة ..

– بس متقولش يابن الكلب .

ويضحكون جميعا ويضحك العراقي معهم ، ثم يقفز جاريا الى الصالة ويستحضر كرسيًا يجلس عليه بين يدي الحاج كريم وهو لايزال يضحك ، ويطوى الحاج كريم الجريدة ويضعها بجواره على الدكة ، وبتحريك شفثيه وحركات يديه يفهم العراقي أنه قرأ الخبر وعرف ما فيه عصرا ..

حيث كان يصب قهوته من الكنيكة النحاسية الصفراء فى الفنجان المزركش الكبير ، اذ طلع عليه الشيخ محمد الجمل كاتب الزراعة مرتديا جلبابه البوابلين الأفرنكى وطاقيته البفتة البيضاء ، وفى يده المسبحة الكهرمان تدور بين أصابعه بسرعة كبيرة جدا .. لم الولد عبد العزيز طرف ثوبه ادبا ، فان الشيخ محمد الجمل هو معلمه وعلى يديه لقن مبادئ القراءة والحساب ، وربما شئ فى عين كاتب الزراعة المطموسة بالبياض يخيف ، لقد كان الناس يتساءلون طويلا هل يستطيع الشيخ محمد الجمل أن يلاحق بالتسبيحات حركات حبات المسبحة الدائرة بين أصابعه بسرعة غريبة ، أم يختلط الكلام ويصبح لغوا لاينبع من القلب ..

والحاج كريم يقول :

– سر القلب عند الله .

لكن الناس بقوا يتساءلون وآثر الأب ضيفه بالفنجال الاول من قهوة العصر مليئا مختوما ، وفرد هذا جريدة كانت بيده مطوية ..

– يا عم الحاج .. اذن الله بمولد السلطان

وخبط بأصبعه على موضع الخبر من الصفحة

كيف يكون حال العالم من غير هذه المصائب .. ؟

كان الحاج كريم متربعا على مكانه من الأريكة والدرأويش صفان على الحصر البيضاء بازاء صف الأرائك الصغيرة امام مصابيح الكيروسين واوانى البخور وفى ايديهم نسخ دلائل الخيرات .

- ياولاد .. الجمعه الجايه نعمل الحضرة فى رحاب السلطان

ضحكت الوجوه الوضيئه بالسرور .. مدد ياسيدى ياسيد ..

ومدد يابو فراج

صفقت احقان دخان المضع على الاكف الايام القادمة واعده بالمباهج نضح الشوق تحت وطأة الظهيره فى ايام العمل الشاق المتابعة .. يراحة الروح والقلب ياسلطان .

- المعاملة ناشفة اوى يا عم الحاج

أحمد بدوى أجرا الدراويش على الحاج كريم .. يخطب يده بنسخة دلائل الخيرات ويفكر ... لقد أخفى خمسين قرشا فى حق فى الحائط لكن امراته عثرت عليهم وأخذتهم .. ماذا يقول لامراته المدللة ..

- تفرج يابنى .. تفرج

القلق الذى يرين كالسحب على الوجوه ويخلق على المجلس لا يبدده الا كلام الحاج كريم العميق المؤمن ..

- تفرج يابنى .. تفرج

دائما (تفرج) تحزب الأزمات وتشتد تهرب النقود الى قيعان بعيدة، ولكن فى الزمن المعلوم تشد الرحال الى المفاصد .. ويطلق الحاج كريم قليلا اطرافه تنشر الصمت وتخلق بين - الحاضرين التشوق للكلام ..

ومع استمرار البلح يترقبه عبد العزيز وذات ضحى ينشق عنه الشارع مارقا كالفيتون وقبالة الدوار يقف وينادى على المولد ثم يصعد الى الشرفة قانزا الدورجات ملييا دعوة الحاج كريم ويقدم الطعام فيلتهمه بنهم يشرب اللبن الرائب من حافة الاناء ثم يهب واقفا ويستبقه الحاج كريم ..

- استريح ياراجل شوية

- ما أقدرش يا عم الحاج .. فاضل اربع مديريات ..

ويختفى مع الطريق سالبا لب عبد العزيز ووجه الحاج كريم فائض بالرضى ..

- مدد يا سيدى سليم يا عراقى

ومدد يا بنت الحسين .. يانفيسة الدارين ..

كان عبد العزيز قميئا نحिला تنام يده فى يد ابيه كعصفور ازغب يستريح فى كف طرية دفينه وهما امام ضريح السيدة نفيسة ، ويمد عبد العزيز بصره من شبك النحاس عبر زجاج شفيف صقيل، ويبصر الشفوف تتدلى حول رأس القبر - زينة عروس ليلة العرس - أحبها عبد العزيز وعرف عطرها الطيب .

ودائما يكون صباحا عذبا عندما يأتى ساعى البريد وينزل عن حمارة قبالة الدوار ويسلم بأدب على الحاج كريم والخطاب دائما من عند حسن افندى الساكن فى شارع امير الجيوش وزوجته البيضاء الطيبة وابنته الرضيعة المليء جسدها بدمامل صغيرة يقفز قلب عبد العزيز ، ويدفع الحاج كريم المكتوب الى أحمد بدوى .

السلام عطر قلوب الاخوان والاولاد آن البيت كبير ريع قديم الحب فراش الاحباب والوساد وكلنا فى رحاب عروس الاولياء والحاج كريم يكاد يجهدش بالكاء .

- اللهم لا تبعدنا عن طريقك يا كريم

– والله .. وحق من أماته

الشيخ الكبير كانوا عائدين من مولد سيدى ابراهيم الدسوقي
قطارا تركوه وقطارا ينتظرونه فرش للشيخ على الرصيف فتمدد .

– يا حاج محمد

– نعم يا عمى

– عاوزين كازوزة

– عالحديدة .. يعلم الله يا عمى .. يادوب تذاكر الرجوع

– يا حاج محمد .. عاوزين كازوزة

ويشرب الشيخ الكازوزة

– ادفع يا حاج محمد

– منين يا عمى ..

ويغضب الشيخ ويشور ويطوح بالزجاجة الفارغة بعيدا فتطير
كانما نبت لها جناحان تطير وتقع وتتقاذف الى أن تستقر واقفة على
قضيب القطار ، سليمة لا تضطرب ولا تميل يهلل الدراويش للكرامة
ويتقاطر الناس وتنتشر الحكاية ويزيد الزحام وتتكدس قطع العملة
الفضية على أفراس الشيخ الممدد الناس ذوى الحاجات يقبلون
يده ويطلبون الدعاء ..

– ادفع ثمن الكازوزة يا حاج محمد

وقتها كان الحاج كريم غلاما صغيرا يتقاذف هكذا فى رحاب
الطريق .. لم ير عبد العزيز أشياء خارقة مثل هذه ، الشيخ
الحالى شاب وسيم مبارك لكنه لا يملك مثل هذه الكرامات العظيمة
ليت عبد العزيز رأى الشيوخ السالفين العظام مثل ما رأى الحاج
كريم وشاهد ، الشيخ الحالى سليل هؤلاء الاقطاب لكن الناس

تقسو قلوبها مع الزمان وينقص الله البركة من الوجود كل أن
بمقدار .. لا ملاذ سوى الطريق .. خير كله خير .. احمل خرجك
وعصاك وخيائك واقصد السلطان فهكذا فعل الرجل الصالح
ودرويشه وفى الرحاب دق العصا ونشر الخباء وأوقد النار ونصب
الإناء وقال له الدرويش ..

– يا عمى .. العدس قليل والاكلون كثير

ويقول الرجل الصالح :

– يا ولدى اذا كان السلطان قد ارسل لنا اولاده ولم يرسل

لنا عدسا فأترد لهم فى الماء ..

ويزيد الدرويش الماء الى الإناء دون عدس فيكون ثريدا ماكان
اشهى منه فكيف اذن يترك المريد الباب ليتسكع بالحيطان (المعاملة
ناشفة) حقا لكنها سوف (تفرج) ..

سوف يرسله ابوه لينادى المتولى ساروخ ويأتى الرجل ليجلس
على الدكة بجوار الحاج كريم نحىلا خشنا متحفظا جهما قليلا
وقلب عبد العزيز واجف .. اشفاقا ..

– عاوزين ارشين يا سار ..

– حاضر يا عم الحاج .. على عينى ..

ويأتى كاتب البلد طويل طرى العود واليدين ابخر ذو منظار
يتدلى على انفه .. رجل غريب يظل ، يجوس الدور يدخل ويخرج ،
يجلس متربعا ساندا اوراقه على ركبته ويكتب مضيقا بين جفنيه ،
يكتب فتنقل الارض والبهائم بين الناس والناس ينظرون اليه ..
أين كان .. أين هو ذاهب .. من باع من اشترى .. وشرخة
الأرض الرقيقة ملك الساروخ بجوار ملك الحاج كريم تزداد عرضا
كل عام على حساب ارض الحاج كريم ..

القلق الذى يتكور
العقيقة المؤمنة وثمالا
بد العزيز لا تذيبه الا كلمات ابيه
الطلية ..

.. مالناش فى نفسنا .. احنا حراس ..

وكل ما فى الدور للاقطاب ، الأم والفصيل وما تقع عليه عيونهم
يدبح دون تأخير ، فاذا ما أصاب درويش خيرا جاء يزف البشرى
الى الحاج كريم .

.. يا عم الحاج .

يقف الرجل خجولا فرحا بين يدى الحاج كريم .

.. الجاموسة ولدت .

.. مبروك عليك يا بنى .

.. كم يفرح الحاج كريم بالخير للاخوان .

.. كفاية على اللين .. العجل لأهل الله .

.. الله يخلف عليك يا بنى .

وتكون ليلة رائعة فى دار ذلك الدرويش ، لكن هذا انما يكون
فى زورة الشيخ السنوية للبلد ، ليال مباركة ليس ابيه منها أبدا ..

يخرج الاخوان جميعا لاستقبال الشيخ على المحطة ، ويعودون
على الطريق موكبا جليلا ، الاخوان وضيوفهم الأعراف من الترقية
الشيخ فى المقدمة ومعه الحاج كريم ، رجلا نجمعهما النسب
والطريق ، ووراء الرجلين يمشى الموكب ، كل رجل من الاخوان
يرحب بأحب الضيوف الى قلبه وأثرهم عنده ، المستكاوى بكرم
بالضحك مع العايق، وعلى خليل ينصب بكليته الى حسن أفندى،
والشيخ عباس انفرد بالشركسى النجار ، وصانع القهوة يبتسم
مسلمنا قياده لمحمد كامل ، وصانع الرقى زانغ العينين لا يكف عن
التسبيح ، الطريق مفروش بأحاديث الترحيب والودعة ..

ليال مباركة ليس ابيه منها أبدا ، كل ليلة بدعى الشيخ ورهطه
الى دار من دور الاخوان والمريدين تدبج النذور ويقدم الطعام وتقام
الحضرة والأذكار ويكون سرور ترتج منه الحيطان .. لكن ليس
ابيه من الليلة التى تقام فى دار على خليل أبدا ، يالها دار على خليل .
ما أحبها الى قلب عبد العزيز ما تكاد تخطو من العتبة منحدرها الى
وسط الدار حتى تجد السلم الطينى يدعوك صاعدا بك الى
السطوح ، تندفع تجاه السلم لا تبالي بفتحة كهفية جنب الباب ،
ربما هى غرفة المعاش أو بها الفرن وموئل العيال فى ليالى الشتاء ،
ربما ، لم يدخلها عبد العزيز أبدا ، وانما يندفع منها عيال على خليل
المعلولين وامراته الطويلة الفتيحة المتوردة الوجه كشرخة أرض
خصبة ..

مشى موكب الشيخ الى دار على خليل وثمة أمام باب الدار
باحة صغيرة تحيط بها الدور الواطئة دور قمينة ليست شامخة
كتلك التى تقع على الشارع الكبير ، دور قمينة يصعد العيال
والنساء من قيعانها الى الشارع ليروا موكب الشيخ القادم نحو
دار على خليل ..

ويصعد الشيخ وورواه الاخوان على السلم الطينى الى
السطوح ، مكان لطيف فرش بالحصر البيض وتطريه ربح بحرية،
وفى الشباك صينية النحاس فيها قلال جديدة مغطاة بأغطية من
البلاستيك حمراء وخضراء وليمونية احضرها معه من طنطا ..
ما انق على خليل والطف حاجياته .. وفى كل آن يصعد رجل أو
امراة السلم يحمل طفله الصغير ويأخذه منه على خليل ويذهب به
الى الشيخ .. دار على خليل فى حارة فقيرة ، يحبونه ، كان
هو الآخر فقيرا ثم فتح الله عليه لا يستطيعون اقامة الليالى ودعوة
الشيخ ..

اتى له فورا بالسلم الكبير وقفز عليه كالقرود وعالج الكلوب مكشرا
كانما يلومه او يقرص اذنه فيتدفق النور والطين ..

فرشت الحصر البيضاء امتداد شاسع من الفرش المبتوثة اتى
كل رجل وكل امرأة من داره بشيء انضم الى البساط الكبير ..
الناس يحبون على خليل يحدقون به ويكلمونه ضاحكين ، وجهه
شاحب بالضوء الابيض انه طيب وديع يدفع الاطفال برفق وهم
يتزاحمون شكسين ..

شق الفراش الشاسع بصف الاراتك الواطئة صفان هائلان
من الدراويش ، الليلة هم كثيرن ، كثيرن جدا رجال جاءوا من
اعماق الدور على وجوههم جدية طيبة ، يخلع الرجل نعله ويطويه
ويضعه امامه على الحصر ويجلس خاشعا والصفان يطولان
تقلصت الاراتك الصغيرة واصبح صفها قصيرا بين العدد الكبير
من الناس ..

العراقي يتعجل السرور لابسا عمامته الحمراء ، وحزامه
الذى يدور حول وسطه ويشق صدره ويحمل فى يده مبخرته
وينادى بأعلى صوته على المدد من السلطان ثم يضع مبخرته على
الأرض وينخرط فى ذكر عنيف يطوح بنفسه يمينا وشمالا مع
ايقاع صوته ..

— الله حى .. الله حى ..

ثم يكتشف انه وحيد فيضحك ويضحك الناس والعيال
والنساء ، ينطلق بجري حاملا مبخرته ضاحكا ومناديا على المدد
من السلطان ..

والعيال بعيدا يقيمون اذكارا صغيرة زائفة تدور للحظات ثم
تنفض لتنبث فى مكان آخر بين الضحك والجسرى والتجاذب
والتقاؤف بما يقع عليه اليد . أما الصبيان العاقلون فيجلسون

فاذا ما حل بدار على خليل اتوا بالعيال طالبين البركة يأخذ
على خليل العيال الى الشيخ يمسح رؤوسهم ويتفل فى افواههم ،
وفى الغرفة يعكف كاتب التعاويد والتمائم على كتابة الرقى
والأحقة للنساء العواقر واللاتى يموت اطفالهن ، زيارة الشيخ
لدار على خليل عيد للحارة كلها ، وهو واقف يجول بنظراته ربما
أحد من ضيوفه يريد شيئا وبهيب به الشيخ بلسانه الشرقاوى .

— احمد يا على .. استريح .. احنا مبسوطين .. مش
ناجس حاجة ..

يتسم على خليل خجلا وينزل الى وسط الدار ..
هناك يذبح الحاج كريم الذبيحة وهى تتلوى بقوة خارقة فى
وثاقها ، والرجال حولها يشدون اطراف الحبل بحول وانصراف
ورهة ، يضع ركبته على رقبتها ، لا يكون وجهه هكذا الا اذ يذبح او
يحرث او يؤدب المرأة أو الولد ، تمرق السكين فى الحلقوم مما يلى
نهاية الفكين ، ويطرطش الدم الأرض واطراف جلاليب الرجال ،
وتطرطش البنات كعوبهن فى دماء الذبيحة ، دافعات ذبول الجلاليب
عن السيقان والجسد ينتفض على الأرض والحاج كريم يتسم
وحوله الرجال .. ويخبط بصفحة السكر على الجسد المرتجف ثم
لايصبر ، يتناول خلفيتها ويثقبها من ثمة يولج عمود الحديد ليفسح
بين الجلد واللحم مجالا ، سوف تنفخ ثم تعلق فى السقف وتقف
الحاج كريم امامها يسلمها ويقطعها .. انه يعرف الأشياء جميعا ،
شملول فى كل حرفة ذلك الأب الكبير ..

الباحة امام باب الدار وقدة من النور زرعت الأرض عيالا
والاسطح حول الباحة نساء وبناتا ، والعايق فى قفطانه الزاهى
وعمامته مثل الباشا — لولا ابرة التسليك المرشوفة خلف اذنه —
يدور ينظر الى الكلوبات جهما فاذا نعست عين واحد منها

صفوفا صفوفا متتالية خلف الدراويش صفوفا تغطي الفراش حتى تتجاوزته وتفتش الأرض الرطبة من المساء .. اما النساء ففى الأطراف قليلة الضوء وعلى السطوح تبرق عيونهن وجليهن وهمساتهن وضحكاتهن اطارا بعيدا غامضا لحضرة المساء ..

يأتى الحاج كريم فيحل الصمت ، يمشى الهويانا فى عباءته وعصاه تتبعثر الهسهسات .. يقف ساكنا لحظة يكاد يقف قلب عبد العزيز عن الخفقان ثم يجلجل صوت الحاج كريم واضحا كأن الله يتكلم ..

– اباريق نور نازلة من السماء على دارك يا على يا خليل .

ويجمد وجه على خليل كأنه مصنوع من الشمع وتنتطق زغرودة تشق السماء كاللهب ويقول الحاج كريم بصوت خافت لكنه مسموع :

– استبد يا شيخ محمد يا كامل ..

انه اليوم فى ابهى زينته لف شالا أبيض على طاقيته من صوف الغنم الأحمر وسدل لفاعا على كتفيه ووجهه حليق وكثفاه عريضان كأحد أولياء الله فى صور تباع فى الأسواق ، أغمض عينيه، اكتسى وجهه مهابة جليلة ثم خرج صوته عميقا ووراءه كورس الدراويش فى تدفق هادىء رصين .. « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله عدد معلوماتك ومداد كلماتك » .. عالم شاسع صحارى ورمال وبحار وأنهار وأشجار وسحب وذرات وكتل فى صدر كل مخلوق بـ مهما دق ولو كان هباءة طائفة فى شعاع شمس – قلب دافىء نابض يسبح باسم الله ويصلى على أسعد مخلوقات الله .. ومع الرحلة الغربية فى أقطار الكون فى الافلاك البعيدة وفى الاعماق السحيقة تضطرم القلوب

بالاشواق وتلتهب التلاوة وتشق الزغاريد أجوار الفضاء .

ويتميز بين اصوات الكورس صوت احمد بدوى الرفيع النافذ ويبدأ يفرض نفسه بين طيات نهر الكورس المتدفق ويميل بجماع الاصوات نحو مذهب مياد بالتلوين والدلال وتبدأ الكلمات تتجسد وتتضح تبكى الحروف ويتدال الكلم أو ترقص المقاطع فى المعنى الباهر .. وما تنتهى دلائل الخبرات الا وقد خفت القلوب حتى لتكاد تطير بالأجساد فى النور ..

ماكر والله احمد بدوى لا يستلم الدراويش الا عرقانين مبجوحى الصوت من قراءة الدلائل يأخذهم الى آفاق البردة اللانهائية والنساء سكرانات على السطوح والرجال مبادون فى الصفين كالأعواد والشيخ يطل من الشباك ..

– تانى يا بدوى .. تانى يا حبيبي .. هواك ونغماتك يابدوى .. من عند الله .. فى احدى يديه نسخة البرده ، يده طائرتان فى الهواء ، جسده يميل ويعلو ..

يا نفس لا تقنطى من ذلة عظمت

ان الكبائر فى الففسران كاللحم

ذات الرجفة التى دبّت فى قلب عبد العزيز حينما رأى الكلمات تدب فيها الروح اذ يسقط عليها النور أحمرًا وأخضرًا ملونا بألوان زجاج المسجد وكفه مخنوقة فى يد والده الذى يشير له ..

– شاييف يا ولد .. اقرا .. البرده كلها مكتوبة على جدران المسجد ..

مسجد الأباصيرى فى الاسكندرية وريح البحر تهب مالحة والحروف يقظانة فى الضوء الملون ..

يلائمي في الهوى المذرى معذرة
منى اليك ولو انصفت لم تلم

في صوت احمد بدوى بحة المداحين حينما يتصدرون ردهة
الدوار في المساء والناس زحام جالسين عند أقدامهم وصفق
الدنوف يهز الجدران وقلب عبد العزيز أكثر ارهافا من دف محمى
على النار الليلة مداحين هذه أم ذكر حضرة أمام باب دارعلى خليل،
أم نور الفانوس يزدهى بالسرور لاقتراب فرح السلطان .. ؟

رفعت الأرائك الصغيرة مما بين الصفيين نهض محمد كامل
واقفا فوقف الصغان جميعا ، أسرع العيال والصبيان وتسللوا بين
الأرجل والأجساد وافترشوا الحصر جالسين بين الصفيين الواقفين
الكلوبات أبهى ماتكون نورا والسطوح مثقلة بالبنات وزغاريد
متفرقة متعجلة سرور الذكر الوشيك . .

على رأس الصفيين وقف السنهوتى عازف السببب وصاحب
زار القرية نحيل كان ثوبه مقام على خيزرانتين ميادتين ، شاحب
كانه ميت واقف غائر العينين لا يفيق من الأفيون الا لينفخ في
السببب كيف تزوج السنهوتى من هذه المرأة الزيتجية السوداء
الضخمة تمسك دفا هائلا وتقف الى جواره ضاحكة عن أسنان
صحيحة ناصعة البياض ..

توسط محمد كامل الصفيين ورفع يده لأعلى هاتفا ..

— الله ..

وانهى التنهيدة العميقة بصفقة قوية على كفه .. هكذا بدأ
الإيقاع هادئا عميقا تتردد فيه كلمة الله رتيبة متباعدة على تقاسيم
ينفخها السنهوتى فى السببب وعلى رعشات من شخايل الدف ..
انزاحت أكمام جلباب السنهوتى الهفافة الناصعة البياض عن
زراعين نحيلتين مشعرين وأغمضت المرأة عينين ساجيتين مع

الإيقاع .. هذان الاثنان السنهوتى وامراته ، هذا السببب الذى
لا يجاوز طوله شبرا وهذا الدف الكبير ياسران النساء فى القرى
البعيدة فيأتين متشحات بالسواد حذرات مترددات يخضن الحوارى
الملتوية حتى يصلن الى دار السنهوتى حيث يقام الزار كل اثنين
وجمعة من الأسبوع ..

اصبح الذكر جنونا، محمد كامل فى الوسط طائر الذراعين
يصفق كفاه بقوة وفى إيقاع سريع محموم ، السنهوتى يصب فى
السببب روحا مجنونة .. طار غطاء رأسه وطارت خصلات
شعره السوداء، وجسده النحيل يرتجف مع الإيقاع، نبجات صادرة
من قلوب عشرات الذاكرين معا على الإيقاع تصك الحيطان ضربات
الأقدام فى الأرض تهز القرية من جذورها صفان من الأجساد
المتصبية بالعرق يميلون معا يلتون معا ، يستقيمون معا يقعون
معا ينهضون معا فى نسق مزلز لا يختل ، امرأة السنهوتى
تضرب قلب الدف بكف سوداء ضخمة ، قلب الدف المرهف على
النار ، ليس فى الدنيا كلها سوى صوت الدف والسببب
ونبجات صدور الذاكرين ودق أقدامهم ، صوت جبار يسحق كللكة
كل قلب ..

عبد العزيز يحس بالخوف ، لكنه خوف رائع كذلك الذى أحسه
عندما كان عند عمته فى القرية البعيدة ، هناك زوجها أبوه فى دار
كبيرة طرقاتها طويلة معتمة الجد الكبير لاهل الدار مدفون فى
وسطها ، وهم يضعون على القبرة لمبة لاتطفأ أبدا وحينما يمرون
ينظرون ناحية القبر محاذرين ، قوم غير عاديون ، ابنتهم الكبيرة
العانس جسدها عامر بالأرواح آتوها بالدنوف الكبار وبدأ الصك
الرهيب والخوف الرائع ، ضمت العممة عبد العزيز الى صدرها
أمسكت ذيل جلبابه وعقدته عقدة قالت ان ذلك يحميه من
الأرواح .. عبد العزيز يود الآن لو يعقد ذيل جلبابه ليحميه من
صك الدنوف الرهيب .

ورفع محمد كامل ذراعيه لأعلى هاتفا لختام الذكر .

.. الله ..

ارتعشت شخايل الدف حتى سكن ، تسحبت أذيال السبب
انطلقت عواصف الزعاريد من السطوح . وقف الذاكرون يكادون
يسقطون اعياءا .. عمر فرهود انجذب فما يستطيع أحد إيقافه
أو السيطرة عليه .. العايق الخبيث يقول :

.. سيبوه .. مش حيسكت الا لو شافته مراته .. هو قايل
لها أنا بنجذب فى الذكر وهى مش مصدقاه ..

ويضحك عن أسنانه السوداء ، السنهوتى يمسح بمنديله
الابيض نابه القصر المثقب الذى بلله لعابه لكن عراقى الأطرش
لايزال منهمكا فى الذكر وحده لم يسمع بانتهائه ، نبهه واحد ،
جذبه من ذراعه ، حينما اكتشف الوضع شتم الناس جاريا فى كل
اتجاه ليدارى كسوفه ..

حيطان ردهة الدوار عليها بصمات ليال وليال ، وصوت أحمد
بدوى فيه عطر ليال السرور ، عطر الطريق ..

.. حرما جميعا يا مشايخ ..

.. التجلى كان نازل الليلة ..

.. نفحات السلطان يا عم ..

.. ربنا ما يحرمتنا من رحابه ..

وأخرجت المناديل لتمسح حبات العرق من الوجوه ، وفى
همسات مجهدة قرئت الفواتح للاخوان البعيدين والقريبين والأحياء
والميتين ، الاخوان هم صحبة الحياة ورحلتها القصيرة الدنيا من
غيرهم بطعم التراب ..

المستعجل على النوم قام وبقي ساهرا مع الحاج كريم الخلاء
من اخوان الطريق .. لغائف الدخان وأحقاق المضغ .. تمددت
السيقان على الحصر ما التزام الوقار وقد انتهت حضرة
المساء ..؟ يدور الكلام هينا حالما ..

.. السفر باذن الله يوم الأحد ..

السفر الى السلطان ، الطريق ، طنطا بيت الخدمة ، لقاء
الاخوان ، الفرح وليلته الكبيرة ، الكلام يترقرق يصنع حلم الايام
القادمة فى ضوء الفانوس الذى بدأ يخفت وتنعس ذباته ..

آخر المنصرفين هو دائما احمد بدوى ، يتسم .

.. تصبح على خير يا عم الحاج .

وحينما يفلق وراء انصرافه باب الدوار الكبير تصبح الردهة
موحشة يثوب الحاج كريم الى الدار فى يده المصباح والعصا
وخلفه عبد العزيز .. الليل هداة مخيفة تسلم الى النهار ، نها
الجهيمين الصائحين ، لو كانت سهرة المساء شيئا لا ينهى ..؟!

www.liilas.com
florist

الخيز

قمن جالسات يسوين ملابسهن ويفركن النعاس من عيونهن
ويغطين الصغار من العيال ، نزل عبد العزيز من على السرير ، لبس
الطاقية في رأسه زر طوق جلبابه وخرج الى وسط الدار ، ضوء
اللمبة ذات الشعلة ثابت لا هواء يحركه وحوله هالة صغيرة من النور
رفيما عدا ذلك الظلام والسكون ونجمات الصبح تتكدس في مربع
عار من سقيفه وسط الدار ، جلس على المصطبة ، أصوات غامضة
تأتي من بعيد ، الحماثم تتحرك في البناني قرب السقف ، البهائم
تجتز طعامها ، الحمامة السوداء الكبيرة تتهد في ارتياح ، الدار
عليها سقف من الحطب وفروع الشجر به كثير من اعشاش العصافير ،
لعل صغارها تحلم ، الذكور والاناث تتحاضن ، تزقزق بهدوء ، ثمة
ثعابين ايضا في العريشة الثعبان يتلع العصفوره دون ان يمضغها ،
يتسلل اليها ثم تجدها في جوفه متكور هكذا بوضوح في جسده
الطويل المسحوب .

خرجت أم عبد العزيز تحكم طرحتها حول رأسها ذراعاها
متحاضنتان على صدرها وكفاها مدسوستان تحت ابطيها ، تناولت
لمبة ذات شعلة من رف طيني في الحائط اشعلتها من اللمبة الاولى
اخذتها مشتعلة اخرجت المفاتيح من صدرها - لا تتخلى ابدا عن
هذه المفاتيح - فتحت غرفة المعاش وغابت هناك .

فتحت الغرفة الأخرى بابها عند رأس المصطبة تماما ، خرجت
منها زوجة الحاج كريم الأخرى تحمل في يدها ابريق فخار اسود ،
حالما برزت من الباب كان وجهها في وجه عبد العزيز تماما . .

- صباح الخير

- صباح النور

سمراء متفضنة الوجه واسعة العيون ، يعرف عبد العزيز سعة
عيونها في اخواته غير الشقيقات ، ولكن وجناتها نبيلة ، مشيت تحمل

الغرفة مخنوقه بانفاس النائمين ، الضوء مخنوق على الحيطان
بتهاويل الظلال ، والمصباح عين ناعسة على الحائط ، عمدان السرير
النحاس الارباع الشاهقة تجثم على حيطان الغرفة وسقفها ، الانفاس
تتردد في غير ما نظام ، حيوان ضخم راقد تحت اكداس النعاس ،
حبات العرق على الجباه ، - الاجساد المتعرية من الزحام والحرارة
العالم الغامض المهول بالظلال والعتامة ورائحة اناء البول الحمضية
يتسرب الى دماغ عبد العزيز في نومه يهوش احلامه ، هولة ضخمة
ذات شعر تمتد لتخنقه ، يستيقظ مروعوبا يزيح يد والده السمينه
المشعره المنداه بالعرق عن وجهه ويدور بعينيه ، حمدا لله انه حلم ،
اغمض عينيه مره أخرى لكنه يقظ تماما ، تملل الحاج كريم بجوار
ابنه عبد العزيز على السرير ، استقام جالسا ، سوى جلباب النوم
على فخذه العاريين انحدر نازلا من على السرير ، على الأرض الأولاد
متكومون على حصير ، داس بين الاجساد بحذر حتى وصل الى
مشجب الملابس خلع جلباب نومه وقف عاريا تماما ، ظهره تجاه عبد
العزيز فتح الولد عينيه ، الاب العارى ، ثنيات اللحم عند خاصرتيه ،
اغمض عبد العزيز عينيه مره أخرى ، لبس الرجل ثيابه ثم خرج الى
المسجد .

عبد العزيز يتقلب قلقلًا أخواته يتقلبن على الحصير أغمض عينيه
حتى لا يرى عريهن ، دفن وجهه في الوسادة والاحساس بالاثم يربعه ،
سمع صوت الأم .

- اصحى يا بنت انت وهيا . . الفجر لاح . . وانا خبيز

السحاب لا يستطيع الامساك بها ، فقط يمتلىء خياله بالصور المتوتره الحزينة ، مثل صورة وجه المسافر الى حبيبها تطل من شباك العربى تتعجل المسافة يفطر قلبها القلق ..

عند عبد العزيز بضعة كتب قليلة فى شباك الغرفة يجثم التراب على اغلفتها ، كم يتمنى لو عاش وحيدا فى مكان ما، وحيدا بعيدا عن كل شىء ، لكنه يتذكرها، غدبرتها وعيناها وابتسامتها الراقه .. زمان .. حينما كان بعد طفلا صغيرا كان ينتظر العيد فى شوق و ليلة العيد يبقى ساكنا عازلا نفسه عن ضجة العيال مصيخا السمع .. ثم فجأه يسمع زمارة العربى ويندفع خارجا يفتح الباب الكبير، وتنزل هى من العربى مع أبيها وأمها صغيرة لطيفة مثل العرائس التى تعرض فى نوافذ الدكاكين وطول أجازة العيد لا يفارقها بلأعبها ويعنى بها الى أن تسافر فيبقى حزينا منتظرا عودتهم فى العيد الآخر .. لقد مرض ابوها ومات وهى الآن تسكن حارتهم مع أمها وهما يسافران معا الى المدرسة فى طنطا كل يوم لكنه مع ذلك مشتاق اليها دائما ..

وحيثما يقف على باب الحارة يكاد صدره يتفجر بالشوق يركز بصره بقوة على المنحنى حيث تلتوى الحارة وتغيب يركز بصره معذبا مشتاقا فإذا بها خارجه كمعجزه نبي وفسطاتها طائر عن ساقها ..

غلب عبد العزيز الابتسام وهو جالس يحلم على المصطبة تصورها وهى طائرة هكذا كالفراشة ، يملأ قلبه سرورا ويغلبه الابتسام .. هى وكتبه المغبره فى الشباك ووريقاته الصغيره التى فيها فتات قلبه .. لكم يود ان يعيش وحيدا لكنه مع ذلك يحب الاشياء جميعا حمارتهم السمراء وامرأة ابيه القديمة الطيبه .

بدأت البنات تخرج من كلا الغرفتين الى غرفة المعاش وهناك بدأ يعلو صوت الكركبة والكلمات التى لاتزال ناعسه واوامر ام عبد

ابريقها الاسود الى الركن الذى يقوم فيه الزير ، ثدياها ضخمان وساقاها نحيلان ملتويان تندفع فى مشيتها .. قطرات ماء تسح من الزير متباعده تسقط فى اناء تحته فتحدث صوتا .. بدات تصب الماء بالكوز فى ابريقها ، الماء يرن فى تجويف الابريق ، ظهرها نحيل .. استدارت ، عيناها واسعتان ووجنتاتها ذابلة ، تقول عنها أم عبد العزيز انها تشتري الصابون النفاش لتبدو أحلى فى عيون الحاج كريم ، ذات مرة وجدوا فى غرفتها ورقة ملفوفة فيها قطعة صابون نفاش حمراء تنفش ملامح الوجه وتجعله متوردا تتكحل ويزدهى وجهها وتجلس على عتبة بابها يدخل الحاج كريم ويخرج دون أن ينظر ناحيتها .. وفى المساء تلمع زجاجة مصباحها وتتربع على فراشها التنظيف سائدة ذقنها على يدها ، يتسلل عبد العزيز الى غرفتها - عندما كان صغيرا - ترضمه وتقبله وتحكى له حواديت الفول والفولة ورائع الباذنجان .. أخذت ابريقها ومشت نحو المراض ، طهورة نظيفة الثوب ، بعد ذلك سوف تصلى ، لاتعرف شيئا من أمور المعاش توكل اليها الأشياء التى لاتقتضى مهارة ولا التفاتا ، حتى عبد العزيز لم يعد ينظر ناحيتها وهى جالسة على العتبة ، يحسن نظراتها الحائرة ولكنه لا ينظر ناحيتها ..

عادت بابريقها الدار ساكنة لا يسمع سوى كركبة أمه فى غرفة المعاش وصوت تلاوة الزوجة الأخرى فى صلاتها وهمهمة الحمام فى البناتى وقطرات الماء الساقطة من الزير يصيغ سمعه ويدبر رأسه كاللدجاجة المشوقة .. فى هامش السكون والعتمة هذه الوسوسات غير ذات المعنى تولد فى عروقه شيئا كالخدر يسرح الى قلبه ويتكور ثقيلًا يزدحم صدره يزرع على أنفاسه وحلقه، يحرق فى شعلة اللبنة طويلا، الكلام يتفرق فى داخله كالدموع ، لو كان يندد لكتب كلاما كثيرا حزينا مثل تلك السطور التى أرسلتها بطلاة الرواية الى محبوبها وأرسلت معها خصلات من شعرها سقطت من عنائها فى حبه .. لكنه لا يستطيع ، الكلام فى صدره كنتف من

في الزمن الماضي كان يعصف بها اذا عارضته فيما يريد وكان عراكها يربعه فيصرخ مذعورا ويحمله الناس بعيدا حتى ينجلي العراك .. لازالت اثار هذا الخوف في نفسه مثل آثار جرح اندمل ، حزين قليلا من أجل أبيه لم يعد يعصف بها كما كان يفعل في الماضي لانته شرسته امام عنادها أو ادعائها المسكره الذي ينتظر الفرصة ليعلن الرفض .

سنين طويلة والعالمان لا يلتقيان .. عالم الحاج كريم المحلق على أجنحة الكرامات والبركة والبلد للاخوان كخير سبيل لتكثير القليل ونبريكة ، وعالمها المحدود بالجرار والقذور ومخازن الحبوب تخفي امرها اذا امتلأت لكنها تظل تدمدم غاضبة اذا نقصت أو فرغت ..

انها تحارب بقامتها القصيرة المكينة ووجهها الأبيض المستدير الجهم ، وعيونها الضيقة التي تحرق دائما في الأرض ، تحارب ضد شيء ما خرابا محققا تنوهمه قادماتصوره في كلماتها وأوامرها الحازمة للبنات وتحذيرهن من الإهمال والفوضى والقضاء الفتات وتصوره في نظرات عيونها السريعة اللماحة المفتشة في كل ركن باحثه عن الخطأ أو التقصير .. وتلقى بتصورها كل أن في وجه الحاج كريم مهددة ، أما هو فانه يتسم ويهز راسه مطمئنا ان له ثقة غير محدودة في الآت الكف التي تبذل لا تنضب أبدا ، والدار التي يأكل فيها الضيفان لا تخرب أبدا .. عالمان منفصلان ، زوجان غريبان ، كيف أذن يختلسان معا ساعات في هذه الدار المزدهمة بالعيال والبهايم ليتضاجعا ويكدسا الأطفال كل عام بلا انقطاع .. وقف عبد العزيز على باب غرفة المعاش تضيئها لمبة ذات شعلة أو بالأحرى تصنع فرجات من الضوء بين مساحات الظلال التي ترسمها الأشياء المتزاحمة في الغرفة وفي الفبراغ فيما يلي السقف أحبال معلقة عليها حزم البصل والثوم ، وفي الحائط

العزير المقتضبة، وضحكات صغيرة خافتة، وفي كل آن تخرج واحدة من البنات - في يدها لمبة ذات شعلة - تذهب وتجيء في وسط الدار تقضي حاجة أو أخرى ثم تعود الى غرفة المعاش .

ثم خرجت ام عبد العزيز وبدأت تصعد السلم ذى السياج والدرجات من خشب الجميز الغليظ ، قصيرة مليئة تلك الدرجات بقدميها اللمبة على راسها وهي تحمل نفسها بأشياء وأشياء ، في كلتا يديها وتحت ابطيها لو كان لها عشرة اذرع لطلبت مزيدا .

تفكر عبد العزيز في أبيه الحاج كريم .. لعله عاد بالأمس من سهرته مع الاخوان في الدوار وطلب اليها أن تخبز زوادة السلطان، ولا بد أنها غضبت الى أقصى حدود الغضب ، وأكدت ان المخازن

خالية من الحبوب والدقيق وأن الجرار ليس فيها رائحة السممن .. وان قطرات اللبن التي تنزى من أخلاف الجاموسة لا تكفي حتى لبل ظمأ العيال .. وانه قد آن الأوان لأن يكف الحاج كريم عن بعثرة رزق اولاده على الموالد والضيوف وانه يكفيه ان يملا سلالا يحمله في يده الى طنطا مثل الباقيين وان هاتان الصحارتان الكبيرتان ستظلان تنزحان من الدار حتى تصبح وليس فيها لقمة لطفل ..

ولا بد ان الحاج كريم تربيع على السرير النحاس الكبير وطفق يكلمها ساعات عن الخبيز للسلطان وعن العيال والدار وعن البركة التي بسرها تسير هذه المركب الواهنة الفلاع المثقلة بالأحمال تسير في نهر الحياة بأنفاس أولياء الله .. كلاما عذبا مؤثرا وهي متفرقة على الحصر عند أقدام السرير ، عنيدة لاتلين تلقي بتعليقات جافة مقتضبة عن رعا وطنطا وشذاذ الخلق الذي يلقي في أفواههم بقوت العيال ..

وتتدخل أم عبد العزيز حازمة وفي كلامها رنة ساخرة :

— خدى بالك من اللى فى ايدك ياروح امك .. حتروحى
ياختى .. الدار كلها حتقعد عالجمال وتروح طنططا .. بس ..
ياالله ياخبيبتى ..

جلست أم عبد العزيز وسط غرفة المعاش وحولها شوالى
اللبن ، تلك الأوانى المخروطية من الفخار التى يشخب فيها سيال
اللبن من أخلاف البهائم ، بدأت تنتقى الشوالى التى حلب فيها
اللبن من يومين أو ثلاثة تلك تتكون على وجهها طبقة كثيفة مختومة
من القشدة ، تتحسسها بيدها فتتأكد من تمامها وتنحيتها وهناك
شوالى حلب فيها اللبن مساء أمس أو قبل فجر اليوم ومازال
حليبا والرغوه على وجه الشليه هشه لم تختم .

بمهارة فائقة وخفة بدأت تجمع القشده من على وجه الشوالى
المختومه وتلقى بها فى برام الفخار وعبد العزيز جالس على قفص
مقلوب وجهه بين كفيه والبنات فى حلقة حولها يتأملنها ويتعلمن
منها .. انها ابنة موظف فى الحكومة نشأت فى المدينة ، حينما
تزوجها الحاج كريم لم تكن تدرى عن أمور الفلاحين شيئا كانت
بيضاء وجميله لازال فى وجهها المستدير السمن الأبيض وسامة
واضحة ، حاصرتها نساء دار الحاج محمد والد الحاج كريم
وعزلنها وعابرنها بجهلها بشئون المعاش .. الآن هى مرجع النساء
فى خفايا الدور وأسرار اللبن والطبخ ..

يدها مليئه بكمية هائلة من القشده لوحت بها فى وجهه
عبد العزيز :

— شوف قشطة جاموستنا يا عبد العزيز .. صلاة النبى ..
بسم الله الرحمن الرحيم .. سعى سعى يا عبد العزيز وصلّى
عالنبي ..

تدق أوتاد تعلق فيها الزناويل ، بجوار الحيطان تقف مخازن الطين
المليئة بالدقيق ، وفى كل شبر من أرض الغرفة توجد جرة أو قدر
أو اناء أو قص أو صحن ، والغرفة مظلمة ليلا ونهارا ، فليس فيها
نافذة واحدة ، لأحد من الرجال يدخل هذه الغرفة ، ان فيها معاش
أهل الدار وأم عبد العزيز لا تتخلى عن مفتاحها أبدا ، كيف يتحركن
داخلها دون أن يتعثرن فى شيء .

اللبن ذات الشعلة ضوءها هزيل وخط مستقيم من دخانها
يصعد حتى يصطدم بالسقف وحولها على الأوانى والجرار ضوء
أصفر شاحب وعلى الحيطان ظلال طويلة ، الأم تتحرك وعلى وجهها
جدية صارمة والبنات حولها ينتظرن تعليماتها هؤلاء بناتها وبنات
الزوجة الأخرى لكنهن يطعننها ولا يابهن لأمن كثيرا ربما يكرهنها
لكنهن مرتبطات بها ، تعلمهن وتعصف بهن يمرمرن ثم يعدن إليها
.. عيونهن ناعسة والظلال والضوء الشاحب يجعلها تبدو ناعسة
أكثر أوامر أم عبد العزيز مهموسة مكتومة لكنها نافذة البنات
يتحركن فى كل اتجاه بين أكداش الأشياء المتزاحمة جو حلم مفزع
يدسسن أيديهن فى الجرار أو يرفعن على رؤوسهن الأوانى
ليجلبن الماء .

دائما يبدأ الأعداد للخبيز قبل الفجر حينما كان عبد العزيز
صغيرا كان يسمع حكايات عن قيام البنات مع الأم للأعداد للخبيز
البنات يسعين فى ظلام الدار وسط كرات من الضوء يحكمن الطرح
حول رؤوسهن يضحكن ضحكات صغيرة وتشجع واحدة منهن
الأخرى ..

— اتجدعنى .. يمكن ينوبك من المولد حته حلاوه ..

— حلاوه ؟ .. حلاوة إبه ياختى ، والنبي ان ماخدونى معاهم
ما أنى حاطه ايدى فى شقله فى الدار دى أبدا .

واحدة الى دار الحاج كريم بحلاب بهيمتها مشاركة فى زوادة مولد السيد ..

لا بد ان الشبخة زينب ابنة الماذون قد عرفت موعد الخبيز من ام عبد العزيز ثم دارت به على الدور فرحة بان لديها شيئا يقال هذه الفتاة الصجوز ما كينة كلام لا تكف ابدا يضحك عبدالعزيز اذ يذكر كيف تاتي الى زيارة امه تجلس بجوارها على المصطبة وتبدأ فى الكلام لا تكف ابدا تنام ام عبد العزيز جالسة وتذهب البنات الى الغرف وتصيح الدار ساكنة اما هذه فلا تكف ابدا .. ماذا تفعل ان لم تتكلم ، لم يعلموها شيئا من امور المعاش قالوا لن تتزحجح فى عوراء ضامرة فاتمة اللون قبيحة الامر فى البنات غريب فابنة ام صباح الفقيرة تنمو كالزراع المبكر يمتلىء فرعها وتتورد وجناتها وينتصب نديها شامخين ولكن زينب هذه ابنة الماذون تضمير مثل نبتة فصلت عن امها قالوا لن تتزوج ، فوهبها للقرآن حتى حفظته ودارت تقرأه للنسوان فى المآتم ، ولكن ما ابعد الايام بين موت رجل وآخر ماذا تفعل انها تدور على الناس فى الدور تلم ثوبها حذر النجاسة ثم تجلس وتبدأ تحكى لاشيء يوقفها .. كبر اخوتها وتزوجوا وأصبح لكل واحد دار ، وكبرت اخواتها وتزوجن وتركن الدار ، اما هى فى غرفتها الصغيرة وخن ارانبها ، يلدن كثيرا هؤلاء الارانب رعندها كيس قماش صغير تضعه فى صدرها عامر دائما بالنقود ولقد اقترض منها عبدالعزيز مرة خمسة عشر قرشا وذهب الى طنطا ليرى فيلما وكادت تكون فضيحة حين طالبته وعجز عن الدفع شبع اخواته منه سخرية لولا تسامح الحاج كريم الذى دفع المبلغ مبتسما .

لا بد ان زينب هذه دارت على الدور ناشرة ما تعرفه عن موعد الخبيز وامرأة احمد بدوى تضع البذور مكان ما يحفر زوجها بفأسه الصغير فى باطن الخط وتردم بيدها رفع راسه ونظر اليها مبتسما فتورد وجهها خجلا وقالت له :

فخورة بهيمتها تخاف عليها من الحسد ، اول ماجاءت هذه الجاموسة الى الدار ، لم تدع الرجال يدخلونها من العتبه الا بعد ان بيضت بالدقيق جبهتها .. فى الاول كان سمك القشده على وجه الشيله فى رقة ورقة السيجارة لكنها لم تسكت ظلت تجرب وتبحث عن «دولاب» جاموستها ، المرأه الخائبة من لا تعرف دولاب بهيمتها ، جربت كل شىء حتى انكشف لها « الدولاب » واستقر تعلم البنات فى حزم ووضوح تفضل الشليه بماء الترعه بغلاف قنديل الذره ويلقى الفسيل بجوار حائط لا يلقي به فى عرض الطريق والا داسته الاقدام وفيه بقايا لبن من الحلاب السابق ، وهذا حرام يضر بالجاموسة ، ثى تكفا الشوالى قائمة على جنوبها جهة الشرق حتى تجف ثم تدس فى فرن محمى بثين الفول وروث الجاموس الجاف ، وحينما تخرج الشلية من الفرن يحلب فيها اللبن توا قبل أن يفسد ما أجرى من تطهير يشخب اللبن فى الشليه من اخلاف الجاموسة ويحدث خشيشا وتتكون الرغوة فائرة بيضاء دافئه تتجمد بعد ذلك وتصير قشده .. واذا توعت الجاموسة او نقص حلابها او فسد قشدها فانها تقوم قبل الفجر وتجرى تدور على سبعة ابواب شرقية تترك عليها من قشده جاموستها ، فاذا ما اشرفت الشمس وانصهرت القشدة وسالت فان لبن الجاموسة يسيل نهرا باذن الله أصبحت تعرف الاسرار كلها هذه الكاهنه الصغيره ليس هذا ما فتن الحاج كريم عندا تزوجها انما فتنه فتاة صغيرة جالسه على كتبه فى صالة بيت والدها فى المدينة تطرز قماشاً فى يدها ..

اجتمع فى برام الفخار قدر كبير من القشدة جمع اللبن الرائب فى الشوالى فى وعاء كبير واللبن الحليب فى وعاء آخر اخذته احدى البنات الى الكائون حيث تشتعل تحته النار ليغلى عدد كبير من الشوالى اخذ الى خارج غرفة المعاش حتى يرد فى الصباح الى اصحابه لا بد ان خير خبيز المولد قد انتشر فى البلد فأتت كل

- حودى حلاب الجاموسة الليله دار عم الحاج كريم .. عشان الخبيز ..

وهو ابتسم قائلا :

- الله يبارك لك فيها ..

وفى المساء جاءت حامله على رأسها حلاب جاموستها ، وفى يدها ابنها الصغير عوض الله به عليها من صغيرها اللذين ماتا فى وباء الكوليرا ، متوردة الخدود نضيضة الثنايا قبل عبد العزيز خدود ولدها . ياما جاءت بهذا الولد وهو رضيع الى ام عبدالعزيز تبكى والولد يصرخ ويتأوه وام عبد العزيز تضعه فى حجرها وتحسس جسده من تحت ثيابه وتحرك أعضائه وتحسس جسده ثم تطلب بيضة تكسرها فى يدها وتسرب بياضها من بين أصابعها وتستبقى صفارها فى راحة كفها وتضعها على جسد الولد العارى تماما ، تدحرج الصفار على جلده القرمزى وتدور بهذا الصفار مدحرجا على كل جسده وفى مكان معين ينفجر فتكيسه على ذات المكان بالردة وتربط عليه وفى الصباح يكون قد برىء .. لا بد انها مدت يدها بحلاب جاموستها مكسوفة الى امرأة الحاج كريم ثم أنصرفت مسرعة ..

ضحكت احدى اخوات عبد العزيز وهى تقول له :

- عارف داهه شلية مين ؟ شلية روايح ..

وضحك جميعا فرحات كأنما عشرين على صندوق مليء بالأشياء اللطيفة .. نعم فسيرة روايح يمكن أن تسليهن الى الصباح اكيد هذا اللبن حرام ليس من المعقول ان تسرق شلية لبن ، لكنها على الأقل قدمت لجاموستها عشاءا حراما من حقول الجيران .. لكن السيد البدوى واسع البطن لا يهमे الحرام فان امرأة سرت دجاجة لتذبحها لأولادها وعند الكانون لم تجد الدجاجة المذبوحة

ووجدت « الأفرع » قابعا ينظر سألت عن الدجاجة فتح فمه نظرت فى داخل جوفه وجدت بحرا شاسعا على وجهه تعوم الدجاجة المذبوحة ، ابتلعها حتى لايسمن الأولاد من طعام حرام ، فيصرون نساء اشقياء ..

- فيه واحد فى بطنه بحر .

- ايوة .. مش بيقولوا : يا بحر طامى ياسيد يابدوى ..

- بحر طامى يعنى .. يعنى ..

- ماتقعدش تقول يعنى يعنى .. هى الحكايه كده وخلص .

وفى طنطا على اى حال ناس تاكل الزلط ، سيأكلون هذه القراقيش ولو عجنت بالكبروسين .. يضحكن ، ويضحكن على اهل حارة الزعايرة حيث دار روايح، انهم يمسون قلوبهم بأيديهم هذه الايام فان سفرة العايق الى طنطا سوف تكلفهم كثيرا .. يحكون عن ولدى « طراوة » اللذان يعيشان فى دار واحدة ، وكان عندهما ذكر من البط هائلا له عرف قان كلما خرج امام باب الدار يخطر مباحيا ويفع بقوة تكلمنا عنه حالين ..

- ادخل الدار يا سبع .. صلاة النبى من العين ..

- ليلتك حنقى فل ..

ايام طويلة والذكر العزيز يطعم ، يدس فى حوصلته الأذرة والفول ، حتى عميت عيناه من سماته ثم فجأة اختفى ، بحثوا عنه فى كل مكان هم يخمنون طبعاً أين هو لكنهم يبحثون لعل وعسى .. ثم اذا به خارجا يخطر ويفع من دار روايح وولدى طراوه جالسين على مصطبتهما امام باب الدار ، يودان لو أخذاه الى دارهما لو قتلوا روايح .. لكن من يستطيع ؟ لا رجل فى البلد يقدر على المجازفة انها عندئذ تقبض على خصيته حتى ترغمه على

يحس حنان ضمها له لا يذكر ان أمه ضمته او دلتته كطفل ، طول عمرها جهمه منهمكه فى شغل الدار ، وبالليل تنام كالحجر من فرط التعب ..

حينما يعود الحاج كريم الى الدار يحس عبد العزيز انه مشتاق للكلام الودود ، ولكن امراته تشير النكد وتتكلم بعصبية عن الخراب المحتوم ، ما اغرب ما تكلمه شوق وتضحك عيونها فى وجهه ، لقد ذهب الى الحجاز معا ، كانا فتيين يقومان على خدمة سائر الحجاج حبا وكرامة لا يفتآن يتكلمان عن هذا ، ويهز الحاج كريم رأسه مؤمنا وهى تقول له :

— ربنا مش هيفضحك أبدا يا حج كريم .. بيتك انشاء الله هيتنه مفتوح ..

البنات يعرفن ميل الحاج كريم الى الحاجة شوق وعبد العزيز يعرفه بيتسمون فى خبث وتواطؤ ويحزم تامر أم عبد العزيز بترك الثرثرة والالتفات الى مافى الأيدى ..

طشت كبير ملىء بالدقيق الأبيض المنخول المتكوم هشنا ناعما تقوم أم عبد العزيز الى جرة الملح تدس بدها وتستخرج الخميره ، هنا تحفظها ، لا تفرط فيها أبدا تضعها فى العجين وتأخذ منه قطعة بدلها تحتفظ فى جرة الملح ، وهكذا فان هذه الخميرة المبروكة تنتقل من عجين الى — عجين منذ متى لا احد يعلم لاتعيرها لاحد أبدا تحيطها بالاسرار والغموض ، اذ ابتها بماء دافىء فى اناء صغير ، حفرت حفره عميقه فى الدقيق الأبيض ثم صبت الخميره الدافئه فى الحفرة باناة وقداسة وارتجاف وهى تبسمل ، البنات حول طشت الدقيق على وجهن اهتمام غير عادى يبسملن هامسات بشفاه مرتجفة وسائل الخميرة الدافىء ينساب فى حفرة الدقيق حتى عبد العزيز نفسه بسمل باهتمام ، بنت واقفة بين يديها اناء الحليب المغلى تدفق سيل اللبن يخرج منه البخار فوق الخميرة فى

الركوع على ركبته وتجعله فرجة لعابرى السبيل يقولون سوف تموت يوما وينبت الريش فى وجهها بما سرقت من طيور كما حدث لامها التى كانت لصة اكثر خطورة ومهارة الف مرة من روايح .

لسكن البنات اذ يتحدثن عن شوق .. الحاجة شوق ، حلاب جاموستها ملىء شلية هائلة مختوم بطبقة كثيفة من القشدة .. اذ تتحدث البنات عن الحاجة شوق يكن مبهورات واسعات العيون بالاعجاب وعلى اطراف شفاهن ابتسامات خبيثة فرحة ..

— عيني على شليتك يا حاجة شوق ..

— عندها جاموسه مفترية ..

كل شىء فى دارها الكبيره كثير ، مات عنها زوجها فقامت بمعاش الدار ورعاية الغيط بهمة الرجال وهى بين عيالها .. الأب والأم .

واذ يزورها الحاج كريم يهتف مناديا : يا ستار ..

وتخرج اليه طويلة ناهضة الصدر كأنما لم تلد ولم ترضع .. واسعة العيون .. سمراء ندية الوجه ضاحكة ..

— اهلا بالحبايب .. مرحبه يا حج كريم .. رجل عزيزه ..

ويترك لها يده قبلها مرتين وثلاثا ويربت على كتفها ويقبل راسها .. يجلس على مصطبة وسط الدار فيما يلى الباب وتجلس هى على الأرض بين يديه تنكش بعود فى يدها تحكى ، وينصت الحاج كريم ، كلامها مرتب وهادىء ، وحينما يتكلم الحاج كريم تنظر اليه ضاحكة العيون ..

اجيانا يتمنى عبد العزيز لو كانت الحاجة شوق هى امه .. حينما كان طفلا يذهب مع ابيه الى دارها لتضمه اليها ، لازال

الحفرة التى فى الدقيق حينما افعمت الحفرة باللبن الكبين عليها يعجن العجين بأيديهم ، الأذرع تدك الى المرافق ثم تخلص بصعوبة الكل يعمل .. الماهرة تضحك من الصائبة وتعابرها الخصل تتدلى على الجباه ، الضحكات والأنفاس المبهورة وصوت أذرع ترتطم بالعجين أطواق الثياب تبدى الإثداء الصغيرة والحلمات السمراء الدقيقة ، حمى العجين تميتهن من الضحك ..

– بس يا ست أنت وهى .

يخلصن أذرعهن ويمسحن ما عليها من عجين وتسرى أم عبد العزيز وجه العجين بيدها .. وهى تبسمل والبنات مجهذات يتنفسن بصعوبة غطين طشوت العجين ورسدت وأحدا أثر واحد، خبزا وقراقيش سوف تخبز وتملأ بها صحارتين تحملان على جمل عمر فرهود وترسل بيت الخدمة فى طنطا .

الآن لاشيء يعمل سوى انتظار اختمار العجين ، جلست البنات كل واحدة فى مكانها بين أكداش الأشياء صامتات واللمبة ترسل على وجوههن الضوء الخابى والظلال ، خرجت أم عبد العزيز ربما لتطمئن على الصغار النائمين بالفرنة الأخرى أو لآى شيء آخر فهى أبدا لا تجلس فى مكانها ساكنة تنتظر .. طشوت العجين مغطاة بالثياب ، ملايين البكتريا تعمل عملها الآن فى العجين .. أو سر خميرة أم عبد العزيز .. ان الحياة الكامنة الغامضة فى جوف العجين تخلق جوا غريبا فى الغرفة ، البنات مائلات الرؤوس على الألف يتكلمن مخافتات كدجاجات بيتن فى خن .

ما الذى جاب سيرة امرأة عمر فرهود الجمال ، المرأة الطيبة الدقيقة الحجم الناعمة الصوت . كان أبوها فقها ، مات تاركا لها ستة قراريط فى الحقل وترك فى صدرها . كلام الله .. وترك لها كتاب أبى محشر ..

ذلك الكتاب الغريب الذى يضم بين دفتيه صنوف السحر والعمل ، من وصل الى سره وفك رموزه سخرت له الجن وأصبح قادرا على أن يفعل مايشاء ، يوقع العقول فى الخبسل ويزرع كراهية النساء فى قلوب الرجال ، ويربط الذكور عن الاناث ، ويستطيع أيضا أن يبرىء المرضى ، ويداوى تفزع الأطفال وصراخهم فى الليل ، لقد رأى عبد العزيز هذا الكتاب ورأى فى صحائفه الصفراء الجداول المقسمة فى خاناتها الرموز والأشكال الغريبة وقرأ فيه عن مواد تمزج وأشياء تحرق ومسامير تدق ، وأشكال من الورق على هيئة الرجال والنساء تخزق عيونها بالأبر ولفائف من كل شيء عظام الموتى وريش الطيور وجلود الثعابين تدس تحت الاعتاب ليخطو من عليها من يراد به الشر والخير .. وقرأ كل هذا عبد العزيز وهو لا يصدق شيء منه ولكن الرعب يلبسه ويصك قلبه وتكلم إحدى الاخوات – خائفة واسعة العيون غارقة الملامح فى الظلال والضوء الشاحب ..

– بس الوليه دى ما بتعملش بالشر أبدا .

أما تذهب اليها النساء بشيء من ثياب عيالهن فتقيس هذا الأثر بالشبر والقيراط وتعقد فيه العقد ثم تقيس العقد وتقرأ التعاويذ والتسايبح الى أن تعرف تماما علة المصاب فتصف الأحجية والبخور وما يثرب وما يدلك به الخسد .. وهكذا هى لا تعمل عملا يضر بأحد .. تهتف إحدى البنات ضاحكة :

– ماسمعتوش على عمر فرهود وعلى اللى جرى له ..

وتهتف البنات فى نفس واحد .

– ايه .. ؟

انفرد مرة بكتاب أبى محشر ، اراد أن يجرب ما فيه طفق يقرأ التعاويذ دونما معرفة بما فعل فان هو الا جمال لا خبرة له

بشيء من أمور الكتب ، وتصادف أن ما قرأ كان تعاويذ تدعو جن الخدمه الى الحضور فحضروا بين يديه وانتظروا أن يأمرهم بشيء أو يصرفهم لكنه ارتبك ولم يفتح الله عليه بشيء يقوله ويبدوا ان الجن قد اغتاضوا فقلبوه زرع رأسه فى الأرض واشرعت ارجله الى السقف ، وسقط ثوبه عن عورتيه ، وغرقت البنات فى الضحك والأخت تحكى عن دخول امراته عليه وكيف تصرفت بسرعة فصرفت الجان وانقذت عمر فرهود .. هو هكذا يقع دائما فى الخطأ وهى به عطوفه يلجأ اليها كالطفل ..

لكن احدى البنات كانت ساكنه لا تشارك البنات ضحكهن واسعة العيون شاحبة الوجه بالخوف ، قالت فى صوت سليل مرعوش ..

– انا خايفه

شمل الصمت الجالسين جميعا تسمع عبد العزيز انه لا يصدق بالعفاريه لكن الخوف يتسلل الى قلبه ، خارج غرفة المعاش خارج الدائرة الصغيرة من الضوء الساحب يقبع الظلام والسكون ، السكون الملىء بالهمسات الغريبه .. حاول أن يسيطر على مخاوفه صرخ فى اخته ..

– خايفه من ايه يا بت

ولكن البنت تثن كقطعة مريضة وعيونها زائفة ..

– انا خايفه

بدأ عبد العزيز يرفع صوته بالكلام حتى يهزم مخاوفه هو

– كلام فارغ .. قولة عفاريه وكلام من ده

وتجاسرت احدث البنات لكن رنة صوتها كانت تشوبها الرجفه

– دا بنى آدم هو اللى عفريت

وبدأت احدى البنات تحكى فى صوت هامس لا يكاد يسمع

– عاملين لمرات محمد كامل عمل

وشمل السكون حتى لا تسمع نامه

– كابيين لها على لوح كتف عيل غريق

بلعت ريقها

– ومدفون فى تربة مجهوله

بدا الخوف مرة اخرى يزحف على قلب عبد العزيز والبنات

تحكى

– كل ليلة بالليل بتطلع ندور فى التراب

صاح عبد العزيز ليسكت البنات ا لتى تحكى

– بلاش خرافات .. طول عمرك كدابه

والبنات تلح

– آى والنبي .. بيقولو كده

سمع صوت ام عبد العزيز تنزل السلم ، طرد الصوت

اشباح المخاوف ، ودخلت الفرقة كشفت عن العجين اختمر وفاض

من الطشوت ..

– الاقرع نفخ فيه

– مستعجل اوى عالزواده تروح له

وتكلمت ام عبد العزيز بحزم

– يالله يا ستى انت وهيا .. النهار ملا الدنيا .. عاوزين

نشوف حالنا ..

خرج عبد العزيز الى وسط الدار ، معتم لكن النهار يملأ السماء

انطلقت الحمام واللدجاج والبط من الاختان واقبلوا يلقتون ماتلقيه

اليهم مرأة الحاج كريم الاخرى من حبوب ، ضحك عبد العزيز

دائما يوكل اليها اقل امور الدار شأننا ، كلمتها ام عبد العزيز .

ناعمة اليدين ، فهي لا تشتغل وتسافر كثيرا الى طنطا لعلاج عينها وتقيم اياما طويلة عند اقارب امها .. تعلمت من بنات البندر اشياء كثيرة ولبست الثياب البندرية وحلمت بالزواج من افندى يرحل بها عن البلد وتأتى فى الأعياد فقط تنزل من العربة وتهتف بأولادها النظاف المؤدبين :

— بوس ايد خالتك يا ولد .. بوس ايد خالتك يابنت .

لكنها تزوجت من فلاح ضخمة الجثة يغزل الصوف ويصنع منه جلابيبه وطواقيه وملافة ، تزوج قبلها من امرأة تركت له بعد موتها اولادا كثيرين ، قرع الرؤوس قذرين ، يوم زفافها كان عبد العزيز طفلا رأى العريس الهائل يدخل فى جلبابه الصوفى منتصب حول جسده كأنه مصنوع من الخشب ، وهو يمشى يخب فيه عندئذ انفجر عبد العزيز صارخا .

الآن هي لا تكف عن الشغل فى دارها وكلما افادت من أمباء الدار سخرت من كل شيء وأماتت من حولها ضحكا ..

جلست احدى البنات امام الفرن تجرف من داخله التراب الذى تخلف فيه عن أيام خبيز سابقه كان هذا الفرن فى الليل قابعا فى صدر وسط الدار بفتحتيه الهائلتين كتلة معتمة مخيفة بعد أن سوف تتوهج فيه النار وحوله النساء صاحبات ..

وضعت الطبلية الكبيرة امام الفرن فرشت حولها قطع الحصر القديمة والأجولة والزكائب وضع طشت العجين بجوار الطبلية ، وجلست اليه ام عبد العزيز فرشت الطبلية بالرده وبدات هي تقررص من العجين قرصات وترصها واحده بجوار الأخرى على الطبلية ..

دفعت ام صباح البا بداخله ووراءها ابنتها الفارعة صباح ، صفق قلب عبد العزيز فى صدره ، جلس على المصطبة ساكنا

— بعد مايشربوا احبسيهم تانى عشان مايلخموناش فى الخبيز .

واطاعت صامته بعد ذلك سوف تكنس الدار ببطء وسكون . عبد العزيز يتأملها والضحك يغالبه اذ يتذكر ماحدث فى سفرتها الأخيرة الى أهلها فقد اهدوها ذكرا من البط وضع على الكانون من الصباح الى المساء والنار مستعرة تحته ، وحينما تقدم المساء فرش الحصر فى وسط الدار ووضعت الطبلية الكبيرة وجلس الحاج كريم فى الصدر وحوله عياله وانفاره ، وجيء بالأرز والفت والطبيخ ، لكن الذكر لم ينضج بعد والمرأة غارقة فى الخجل قام بنفسه الى الكانون وجس اللحم ، فرد اللحم اصبعه كأنه المطاط تناول السكين وشققه وأوصى بأن يوقدوا عليه مرة أخرى من باكر .. عبد العزيز يضحك منها هي لاتوفق فى شيء عمله ابدا . لكنها طيبة وديعة ودودة ، تزوجها الحاج كريم بعد موت أم رشيدة ابنة عمه ، وأحب زوجاته اليه بعد أن ماتت ذهب الحاج كريم الى احواله زوجوه هذه .. كانت أم رشيدة أحب الناس الى قلبه بعدها لم يجد فى الزواج سعادة ..

زعقت ام عبد العزيز فى صفرى البنات :

— روحى يابنت نادى أم صباح ..

— وانادى رشيدة كمان ..؟

— ونادى رشيدة كمان يا ستى ..

أم صباح هي الاجيرة التى تقعد امام الفرن فى الخبيز وستأتى معها ابنتها الفارعة الشامخة الائداء التى تثير عبد العزيز لن تغلت منه اليوم .. وستأتى رشيدة وتميتهم ضحكا بسخرياتها سيكون يوما غريبا يوم الخبيز هذا زياط وضحك تقوده رشيدة ، يا لها طول عمرها مريضة العينين أعفاها هذا من شغل الدار ، كانت تقضى طول النهار عاكفة فى غرفة على السطوح نظيفة الثياب

خذرا يرقب في هدوء .. هتفت أم صباح :

- صلاة النبي أحسن بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم توجهت مباشرة الى الفرن وجلست امامه وكلمتها
أم عبد العزيز :

- يا الله يام صباح سمى كده وونى ..

البنات جالسات حول الطليبة ، وكذلك امرأة الحاج كريم
الآخري كل واحدة منهن فى يدها مطرحتها .. سكن الجميع ..
وبدأت شفاههن ترتعش بالبسملة عرضت أم صباح عود حطب على
شعلة اللبنة وهى ترفع صوتها :

- بسم الله الرحمن الرحيم ياهادى يارب .

قذفت بالعود المشتعل الى الحنية وبدأت تناوله عودا من
الحطب وراء عود لكى تتركى النار ، البنات تتناول الواحدة منهن
قرصة العجين وتدقها بكفها على الطليبة حتى تدحوها قليلا ، ثم
تنقلها على مطرحتها المفروشة بالردة وتظل تضرب وجه الرغيف
براحة كفها وتحركه على المطرحة ومساحته تكبر رويدا رويدا حتى
تكاد يغطى مساحة المطرحة فتطيره فى الهواء نافخة الردة من تحته
وتتلقاه عليها مقلوبا وتعيد الكرة ضاربة وجه الرغيف بكفها حتى
تفيض أطرافه من حواف المطرحة ..

امتلات حنية الفرن بنار مستعرة وتناولت أم صباح أرغفة
البنات على مطرحتها طويلة اليد ، ثم زجتها على عرصنة الفرن
هناك ينسبط عليها رقيقا أيضا ثم تدب فيه الحياة وينتفخ
ويتململ فى مكانه حتى ينضج ويتورد وجهه فتسترده المرأة
بعودها الحديدى ..

بدأ دخان الفرن يعبق فى وسط الدار حتى كاد يدارى

الحمائم على البنانى تنكمش على نفسها ثم تطير بعيدا عن الدخان
فى اعالى السطوح والعصافير فى عريشة وسط الدار تتقافز
وتزفزق فى حركة لا تكف وذرات الدقيق تطير فى جو وسط
الدار ساخنة من سخونة الأرغفة الخارجة من جوف الفرن صفق
المطارح وازيز الحطب المحترق وثرثرة البنات يجعل الام ترفع
صوتها اذا أرادت أن تصدر توجيهها حتى تكاد تصرخ لسمع كلامها
وبين آن وآخر يفتح الباب الكبير وتدخل امرأة أو صبية تصيح
بأعلى صوتها :

- بسم الله الرحمن الرحيم خبيز الهنا يا اولاد .. كل سنه
وانتوا طيبين ..

وترد البنات تحيتها فى كورس ضاحك صاخب ويدعونها
للمساعدة :

- مدى ايدك والنبي علشان يستبارك .

وترد القادمة مجاملة :

- ميروك باصحابه وباللى رايح له ، نظره ياسيد ربنا يخلى

عم الحاج وميقطعلوش عاده .. أبدا ..

تم تخلع نعلها وتأخذ لنفسها مطرحة وتجلس الى الطليبه ..
ويدخل صوتها ضمن جوقة الضجيج والضحك والزياط والثرثرة
.. لقد أتت لتأخذ لدارها نار ..

- والنبي العيال فى الدار لوحدهم .. وورايا شغل الدنيا ،
ومانى فاضيه أبدا ..

والبنات يغربنها وحمى الخبيز تأخذها ..

- ياختى اخبزي رغفين .. دا خبيز سيدنا السيد ..

تخبز رغيفا وآخر حتى تكاد تنسى نفسها .. ثم تهب واقفة

تنفض الدقيق عن حجرها وتشعل لمبتها وتأخذها وتفر فرارا
وصياح البنات وضحكهن يلاحقها ..

عبد العزيز يرفع عينيه عن صباح ويدها تعملان عملا دائما
في الرغيف على المطرحة تديها يرتجفان تحت جلبابها الخفيف
حمرة خدودها قانية بالجهد تحت ذرات الدقيق البيضاء التي
تتجمع على وجهها ورموشها ، فتحة الفرن تستعر فيها نار حمراء
لهابة أم صباح تناولها رغيف أثر رغيف ، البنات غارقات في
الضحك والثثرة هن جميعا يكون آلة صاحبة دائبة الأذرع يهب
منها هباء الدقيق والأم جهمة ساكنة تقرص العجين وترص
القرصات على الطبلية بلا انقطاع ..

دفع الباب فصار منفتحا ودخلت الحاجة شوق طويلة ضاحكة
رائقة في ثوبها الحريري الأسود

– بسم الله الرحمن الرحيم .. صلاة النبي .

ارتفع ضجيج بنات الحاج كريم وصاحباتهن وقف عبد العزيز
من مجلسه على المصطبة فيما يلي الباب مباشرة ، ضمته الحاجة
شوق الى صدرها ناعمة الوجه والثوب ورائحة صابون حمامها
المعطر ، تخلص من عناقها مرعوبا من شيء عارم يجرى في عروقه .

– ازيك يا حبيب عيني .. يخليك لابوك يامنايا ..

ثم مشت تخطر مباهية الى يمة الفرن والبنات :

– عواف يا صبايا .. خبيز الهنا .. كل سنة وانتوا طيبين .
تشتعل الهيصة والزياط .

– والنبي ياخاله الحاجه ما الصبح نقول ماجتش ليه ..

تعالى هنا جارى .. عشان يستبارك .

– هو انا يا اولاد بقيت اعرف اعمل حاجه .. العواف يا ست
أم عبد العزيز ..

– أهلا ياختي .. يزيدك عافيه ..

وتبادلا سلاما دون قبلات .. وتواصل حديثها للبنات .

– البركه فى الصبايا .. احنا خلاص .. ايامنا راحت .

وتصرخ البنات مستنكرات وأم عبد العزيز ساكنة مرهفة
الحس للمباهاة الخفية فى نبرتها :

– يا حومتى ..! ايامك راحت !! دانتى شاطرة الشاطرين
يا حاجه ..

وتضحك راضية عن الشناء وتجلس الى الطبلية بثوبها الحريري
وتتناول المطرحة وتشرع فى الخبيز وعبد العزيز يتأمل أكتافها
وساعديها ، ليس فى النساء مثلها أبدا ..

أنا قلت مايفوتنيش خبيز السيد البدوى .. أخبز رغيف ولا
اتنين .. ان طلوعوا وحشين أبقى أكلهم آنى ..

وتفرق فى ضحك مكركر مسرور .. ويقارن عبد العزيز بينها
ويبين صباح . هذه هى الاكتمال الرائع ، وتلك هى البداية المزدهرة
.. البنات يصحن مستنكرات :

– وحش ؟ عمر عيشك ما يبقى وحش ابدا .. طب هنظم
رغيفك ونشوفه .. يا أم صباح رغيف الحاجه آهه .. خدى
بالك منه .

وتتابع العميون رغيف الحاجة وهو ينفرش على العرصة رقيقا
أيضا .. ثم يتململ وينتفخ هائلا كديك مزدهى بنفسه وتصيح
البنات مهلات وتضحك الحاجة معهن ..

- صدفه ياولاد .. ربنا مش عاوز يكسفننى ..
لكنها تحل طرحتها ويبدو مندبل رأسها الكحلى على شعرها
المسبول اللامع وغديرتها الكبيرتين سارحتين على ظهرها مربوط
فيهما مفتاح صندوقها وتشمر عن ساعديها تاركة نفسها مع
حماس الخبيز ..

ويصر الباب الكبير مرة اخرى لتدخل منه رشيدة صائحة
باخواتها :

- يا قلات الخير ..

- هيه .. أم كريم أهه ..

وتكتشف عبد العزيز على المصطبة ..

- يا حبيبى ..

وتضمه الى صدرها فهي تحبه بشكل خاص وهو يضمها بقوة
قامتها القصيرة وأكتافها الضيقة ..

- ازيك يا عبد العزيز .. اخواتك قلات الخير دول .. بقى
ياولاد مش تقولولى على بيات عشان أعرف آجى بدرى .. سامعه
حسك من بعيد يا حاجه شوق .. عواف يا خالتي ..

تلثفت الى أم عبد العزيز تسلم عليها وتقبل يدها قبل كل شيء
- رشيدة لاتهمل الأصول أبدا - ثم تسلم على الحاجة ..

- سامعه حسك من بعيد يا حاجه .. قلت هو الخبيز من غير
الحاجة شوق يبقى له معنى ..

- يخليكى يا نور عينى ويحلى لك لسانك .. بنت ابوكى
صحيح يا رشيدة ..

هكذا يقول كل الناس عن رشيدة اثيرة أبيها .. نزع

طرحتها ودخلت فى حومة الخبيز ، واذا كان المجلس فيه رشيدة
والحاجة شوق فهو أحلى المجالس ، وهذا خبيز السيد البدوى
وبعد أيام سيكون المولد ..

تتوسل احدى البنات ..

- رشيدة .. والنبي تخلى ابوكى ياخذنا معاه يارشيدة ..
هساعدك فى طبخ المولد . والنبي يارشيدة ، مش حخليكى تعوزى
حاجة أبدا ..

- من عينى يا حبة عين اختك . حاضر ياختى ..

- وانا يارشيدة ..

- حاضر ياروحى ..

- وانسا ..!

وتتدخل الحاجة ضاحكة :

- كلكم ياولاد .. ليه .. دا فرح .. من السنه للسنه ..
نظره يابو فراج .

وتزقطط البنات فرحات وتطير المطارح فى الهواء وتتشقلب
الأرغفة عليها فى خفة ، ومن الحر والجهد والسرور تخلع الحاجة
جليباها الحريري وتبقى فى قميصها البمبى ، وتتلوها البنات
ورشيدة ، قمصان لبنى وبمبى واسعة الصدور ، قصيرة الأكمام ،
ما الخجل ؟ لا يوجد غرباء وعبد العزيز لا خطر منه ، وان كانت
أم صباح تنظر ناحيته محذرة ..

- ماتآمنش للدكير ولو كان صغير .

ينكس رأسه مكسوبا وتضحك منه اخواته ثم يرفع عينه ليرى
ساعدى الحاجة وصدرها ونحرها وضحكها والدقة الفائرة فى
ذقنها .. لكن قميص صباح المهلهل مقطوع عند صدرها ويبرز
القطع قمة نديها سمراء دقيقة الحلمة ، صرف نظره سريعا

وقلبه يكاد يخترق صدره ، يعود .. تلتقى عيناه بعيني صباح
تسرع يدها لتضم دفتي القطع على ثديها ثم تسرع يدها الى الرغيف
تاركة القطع ويقفز الثدى خارجا من القماش الواهن ولا يستطيع
عبد العزيز أن يحول بصره وتستمر اللعبة وسط الضجة وهياج
اللهب وصفق المطارح وذرات الدقيق الساخن الطائرة والضحك
والزياط والثرثرة ، تستمر اللعبة .. تضم القطع على ثديها ، ثم
تسرع يدها الى الرغيف فيقفز الثدى خارجا ، وعبد العزيز مبهور
الانفاس يكاد يعمت في مكانه .

– والنبي تليقى في الموده يارشيدده ..

وتأمل رشيدة ذراعيها الممتدين الى المطرحة تتأمل في تباهي
ساجر وتلعب حواجبها فوق عيونها المريضة وتممصض شفنها ،
والبنات مائتات من الضحك عليها تهتف بهم مصطنعة تائبهم ..

– بتتحكوا على ايه .. والنبي احنا حلوين زى الورد .. بس
مالناش بحت ..

ضحكهن .. وهمسات الحلقات الرخيصة وعقود العقيق
الانداء البكر ترفع صدور القمصان الرقيقة والحلمات منتصبه
تحت رهافة القماش .. وعبد العزيز مربوط الى ثدى صباح الذى
يبدو ويختفى ويرهق قلبه خفقانا .

– يلبسونا ويريحونا واحنا نبقى احسن من نسوان طنطا .
وترد الحاجة :

– دكهم لهم تعويج شكل تانى ، ومهنكه شكل تانى .. حاجه
فاضيين لها وأعددين لها ..

قالت الحاجة هذه الكلمة وهى تهز صدرها فيرتج ثديها ..

وتدفع كتفها الى الامام بطريقة فيها غنج اذهل عبسد العزيز ..
وصرخت له البنات مجنونات من السرور .. كيف تختزن الحاجة
كل هذا الدلال وراء هذا السطح من الوقار والاتزان انه جنون
الخبيز ، يوم غريب فى الايام ، عبد العزيز يكاد يقفز على صباح
ملتهما ثديها وشفقتها ، متى يرسلونها لتحضر شيئا لينفرد بها
عبد العزيز ويفترسها ..

تلوح رشيدة فى وجه الحاجة شوق مستنكرة قولها :

– عليهم وعلى ابراشهم والطاخهم وقلة معنتهم .

وترد الحاجة بأسلوبها الجديد المكشوف المذهل :

– هيا الرجاله يا حبيبتى بتحب الا كده ..

« يا الهى ماهذا يا حاجه شوق » ..

امراة الحاج كريم الاخرى مفتوحة العيون ذهولا وام عبد
العزيز لها قدرة تغيظ على أن تعزل نفسها عن كل هذا وتلاحظ
الارغفة بعين صقر لا تسمح بتبديد شئ ، او بتلف لقمة ..

تقول رشيدة شامته :

– يحبو زى ماهم عاوزين .. مشوار لحد طنطا ومسيرهم
راجعين لنا تانى .. وراهم لحد مايرقدوا .. يجيبوها من
قصيرها بقى ، والبصه البرانيه مالهاش لزمه ..

وتعوت البنات من الضحك على جراه رشيدة وتقول واحده
منهن موغلة فى الجراه

– نسوان البندر حلوين .. ورجالتهم كمان حلوين ..

ويشتعل الضحك وتقول لرشيدة :

– والنبي يابنتى عمرك اطول من عمرى .. ياما نفسى فى واحد
افندى برد روحى ..

لبست قميصها وملأت الاناء بالدقيق وخرجت وهو جالس
على قفص مقلوب يسترد أنفاسه اللاهثة ..

حينما خرج وجدها قد انخرطت فى الخبيز تطير رغيفها فى
الهواء بانفعال نسيت كل شيء ، اغتاض ، جلس هامدا على المصطبة
يتأمل الخابزات وحمى الخبيز تسرى فى عروقه الى مخ رأسه ،
وحلمة صباح تتقافز أمام عينيه ، لاشيء يشبع جوعه أبدا ، جوع
يجعله يبكى يريد قبلة وعناقا .. يستغرقان العمر لايفيق منهما
أبدا .. أسند رأسه على الجدار وأغمض عينيه ..

سميره نازله على السلم ، فستانها طائر حول سيقانها ..
ضحكتها تفرش طريقها بالاشراق ..

— عبد العزيز ..

هتفت البنات :

— سميـه .. سميـه ..

نادت رشيدته فرحه عاتبه

— اهلا سمرتى .. مش تقولى عواف يا عروسة اخويا

الخجل دماء حمراء تكاد تقفز من وجه سميـه كل الناس تقول
ان عبد العزيز سيتزوج سميـه حينما يكبران ، قام لها احضرت
له كتابا كانت قد استعارته منه وفرت هاربه ، تحط فى قلبه
احساسا خاصا ، حزنا خاصا ، دخل الى الفرقة ليضع الكتاب ،
الاغلفه المغبره ، رواياته وكتبه ، حزنه الخاص الصغير المكون فى
ناحية مغبرا متثنى الاطراف ، وتلك الوريقات الصغيره التى يكتب
فيها بعض ما يعن له .. سميـه .. صباح .. الحاجه شوق ..
فى صدره جفاف لا يرويه نهر ..

عينا عبد العزيز دائرتان كمينى قسط حول حلقة النساء
المهتاجات يحسب لكل حركة حساب ، الآن سترسل صباح الى
غرفة المعاش المعتمة لاحضار مزيدا من الدقيق ، قفز متسللا ولبد
فى العتمة وراء الباب .. حينما تجاوز قدها فتحة الباب دفعه
بقدمه فانطلق تقريبا هو وهى فى العتمة دقات قلبهما وانفاسهما
المبهورة اسرعت يده رافعة ذيل قميصها عن ظهرها والتف ذراعاه
حول عرى خصرها وضمها اليه بقوة انطرح رأسها الى الخلف ..
وسقط اناء الدقيق الفارغ من يدها الممدودة على آخرها .. ندياها
تحت أنف عبد العزيز بيده الأخرى ، خلع عنها قميصها تماما ..
هزت رأسها لتخلصه من طوق القميص سقط مكتوما على الأرض
مرغ عبد العزيز وجهه بقوة فى طراوة نديها ورأسها مطروح للخلف
وهو بكلتا ذراعيه يضم جسدها العارى اليه وهى تتملص فى يده
كالسمة ، اعتصر خصرها حتى اثنت ساقاها وركد عليها مفترشا
جسدها العارى على قميصها الملقى على الأرض يمرغ وجهه فى
صدرها ويعضها كقط مسعور فى شفثيها ورقبتها وحلمة نديها ،
وهى تتملص بقوة وسط اضطراب الأنفاس :

— لا .. لا .. ياسى عبد العزيز .. لا ..

مد يده لينزع عنها سروالها .. قفزت تحته بقوة خارقة رامية
به من فوقها .

— والله العظيم هنادى لامك دلوقت آهه ..

هب من فوقها مذعورا من تهديدها ، مرتبكا تعثر فى اناء حتى
كاد أن ينكفى على وجهه ، هتفت وهى واقفة امامه عارية الام
سروالها :

— بسم النبى حارسك ياخويا ..

وقال لها مخافتنا :

— مغيث حاجه ..

ويضح البنات بالضحك ، لا يخفن منها ، تسرق الناس جميعا
ما عدا دار الحاج كريم ..

– اقمدي ياخاله روايح اخبزي رغيفين

– مانيش فاضيه يابت .. بخبز لابوكي محمد العايق ..
زواذة المولد .. قراقيش بتخر سمنه بلدى كده .. رجاله مالهمش
ضرب .. هما نور البلد .. من غيرهم تبقى كفره ..
وتضحك لها رشيدة وشوق ويقولان فى نفس واحد .

– والنبي تقعدى ياروايح

فتح الباب على آخره ، دخل الحاج كريم ومعه أحمد بدوى
والعايق والعراقي والأطرش ، سكت الضحك والثرثرة بحث كل
واحدة عن طرحتها لتستر نفسها ..

– كل سنه وانتو طيبين يا ولاد .

– أهلا أهلا نور عيني

صاحت روايح تشير بيديها للعايق والحاج كريم ..

– أهلا .. أهلا ..

ثم شرعت تتقافز امامهم راقصة والعايق يكرع بالضحك .

– بس يابنت الكلب .

اختطفت شليتها وخرجت تجرى دون مقدمات .. الكل فرح
بالحاج كريم وجه رشيدة مشرق .

– كل سنة وانت طيب بابا .. يخليك ويخلى رجالتك .

وأسرعت الحاجة وقد عاد وقارها وأشرق نور غريب فى وجهها .

– يتن بيتك ياخويا وما يقطع لكش عادة .

– ويتهلل لها الحاج كريم .

وقف بياب الغرفة ، الان ظهر صباح ناحيته ، فتح الباب
ودخلت امرأة احمد بدوى .. وصديقه امرأة محمد كمال ، وجهان
وجه متورد يتسم عن اسنان بيضاء نضيده ووجه اسمر ذابل
واسع العينين فيه حزن خاص ..

– ربنا يعوض عليكى ياختى

تقبل صديقه التمنيات ناكسه الرأس تخبز دون ان تلتفت
لاحد .. عبد العزيز يعرف انها تتعذب بهذا العطف لو كانوا
يندمجون فى الخبيز ويتركونها ، لوحدها ، انها تخبز بانفعال
تدعو حمى الخبيز لان تأخذهن بعيدا عنها ، فقط جائت لتخبز
رغيفين من خبز السيد لعل وعسى بركة الأولياء تخبص الرحم
الناضب ، لكنهم يعذبونها بممصصات الشفاه والتمنيات والدعوات،
والاشارة عليها بالشيوخ والوصفات ..

– عمل لواحدة صوفه .. تلبسها .. آى والنبي .. العاده
ماجتهاش تانى ابدا .. صلاة النبي .. عندها ثلاثة دلوقتى ..
وامرأة احمد بدوى خجله متورده الوجه ناكسه الراى تخبز
باندماج ..

ثم تقفز روايح فجأة الى وسط السدار طويلة كالرخ ، طويلة
الاطراف خضراء العيين تلتفت بسرعة غير عادية كالحدهاء .. انها
كالحدهاء تماما ، تصرخ منفعله

– ازرغت ولا أغنى ولا أقول ايه بس ياخواتى .. عقبال الف
سنة ويتن بيتك عمار يا حج كريم يارب ..

ثم تنقض على عبد العزيز تختطف يده فى يدها وترفع الاخرى
لاعلى مندره

– باذن الله تصبح مدير

– كل سنة وانت بخج يا حاجة .. يا مرحب .
عينا احمد بدوى على امراته الخجلة تدارى وجهها بطرحتها
العايق يكرمك بالضحك والعراقي يستخفه السرور فيضع يديه حول
فمه وينادى على المدد من السلطان ، تمتلىء الدار بالضحك والزياط
وتصرخ البنات وراء رشيدة مستحلفات الحاج كريم أن ياخذهن
معه الى فرح السلطان والحاج كريم يضحك ويقول .
– انشاء الله .. انشاء الله .
ثم يخرج ووراء الدراويش .

غرفة المعاش المعتمة عابقة برائحة الخبز والقراقيش ..
اللبة ذات الشعلة ينتشر الضوء الشاحب والظلال أم عبد العزيز
جالسهاين الاواني والجرار وتحت تعاليق حزم البصل والثوم وامامها
أهرام الخبز والقراقيش وحولها البنات مجهدات ذابلات العيون
تقرز الخبز واحدا واحدا ، تنفض عنه الدقيق بخرقه فى يديها وتنفى
عنه التالف والمحروق ، تتركه فى جانب لن يأكله أحد ، ستعيش
عليه هى لا شىء يلقي أبدا لن يرضى أحد غيرها بأكله .
أتى الحاج كريم ونظر فرحا الى أكوام الخبز والقراقيش ثم مضى
يهز رأسه مسرورا مبتسما للبنات .

– كل سنة وأنتوا طيبين .

وترد أم عبد العزيز .

– حطينا عليه السمنه اللى حيلتنا .. طول السنة بقى ناكل
طوب .

وجمدت البنات ناظرات الى الأم والأب فى انتظار العاصفة
المقبلة ، لكن الحاج كريم يهز رأسه فى بأس ويخرج الى وسط الدار
يلتفت الى عبد العزيز .

– لمبة الدوار يا عبد العزيز .

ثم يمشى وييدا خارجا .. الى الصحاب .. الى جلسة المساء .

السفر

الاعمدة والماء الذى يطير منه النخار يتدفق من ابريق الفخار الاسود المعلق والام مهوشه الشعر مفتوحة الصدر جلاب رقيق وحيد على جسدها وكومة العيال على الارض كومة عرى وعرق ورائحه زاعقه ..

يحاول عبد العزيز أن يستغرق فى النوم لكن الاشكال تتلوى وتتخذ اوضاعا مرعبه وتصرخ ويسيل منها القيح والسم .. يفتح عبد العزيز عينيه ويحاول بشده أن يتشبث باليقظه ان يتعقل الاشياء ويضعها فى نسقها وان ينام نوما هادئا ..

هب عبد العزيز جالسا اضاء مصباحه ليطرد مخاوى الظلام فى الركن كومة كتبه تأملها تحت اغلفتها المتربه علتة ودواؤه .. تلقيه كلماتها فى المتاهات الغريبه لم يبق شيء فى عالمه ثابت معاول المعروفة الرهيبة تدمرتصوراته واحد اثر واحد.. خلقت فى داخله جسارة ومرارة ، أصبح يدمن وخزها الأليم ..

نزل وئيدا على درجات السلم العصافير فى سقيفة الحطب ، اللدجاجات الشرهة الى جوب الافطار أفرح الحمام المزغبة فى البنانى ، النهار اليقظان المغول الوجه .. هربت أحلام الليل .. لكن فى زاوية دماغه سؤال عويص وفى قاع قلبه هم لاينكسر ..

الحاج كريم جالس على مصطبة وسط الدار وجهه حليق طرى بالاستحمام والصدار الشاهى وسلسلة الساعه الفضيه تجرى من العروة الى الجيب قاطعه عرض الصدر ، عبد العزيز يحسن نعومة الشاهى وبرودة سلسلة الساعه من بعيد .. يود لو يريح رأسه على صدر ابيه ، لكن هيهات ..

قبل يده وجلس على طرف الحصير محاذرا غير مطمئن بقايا تسابيح فرغ منها الحاج كريم .. حمد لله ودعى لاخوان الطريق ومسح وجهه مؤمنا .. ثم نادى

لا يستطيع أن ينام ، يغمض عينيه لتهاجمه احلام يقظه غريبه ، بعوضه منقضه طنينها يدوى فى اذنيه والبراغيث تزحف على جسده تحت ثوبه القديم الذى يخصصه للنوم ، الوسادة تنضح ترابا يزغم نفسه ثم احلام اليقظه المهوشه الغريبة ..

انه الان ينام وحيدا فى هذه الغرفة على السطوح وجد سريرا صدئا قديما فى ركن من اركان الدار جاء به واقامه هنا .. قالت له امه ..

- تنام لوحذك يابنى .. حاجه تطلع لك ..

اصوات اصطكاك النحاس تاتيه من غرفة الحاج كريم التي تقع تحت غرفته تماما انه حمام الحاج كريم ، فاليوم سفرته الى طنطا .. يغمض عبد العزيز عينيه محاولا النوم فتهاجمه الاحلام الغريبه ، الصور تتمرد وتضخم تتخذ حجوما خرافية واشكالا مهولة ، أفواه بشعة وأنياب تفرز القيح والسم وتقول أكثر الكلمات بشاعة وكفرا .. يقبض بيده على عامود السرير النحيل الصدى ويفتح عينيه .. لكن الظلام مطبق بلا رجاء .

على صوت اصطكاك النحاس فى الغرفه السفليه تترى صور من طفولته ، الحاج كريم عار تماما واقف على كرسى خشبي وسط الطشت والماء الدافىء يجرى على جسده من الابريق الفخار الاسود ينفخ الماء من منخرينه بقوة ويدعو بأدعية حازمه فرحه .. وعبد العزيز صغير قدر الكف لا بد فى فرش السرير النحاس الشاهق

– ياولاد .. هاتو لقمه

كسرة وحبّة ملح ، ملاً فمه وناول الباقي لعبد العزيز ، طعم في غاية العذوبة ، الضوء في وسط الدار رائقاً .. وفي الأركان كاييا قليلاً .. عصافير متأخرة مازالت عيونها تلمع في الاعشاش ..

– ياولاد .. هاتو القهوه

الكنكة النحاسيه الصفراء اللامعه والفنجان المزركش الكبير بدأ يرتشف قهوته في استمتاع حكى لعبد العزيز مرات كثيره عن القهوه وانها مشروب الذاكرين يشربونها سوداء من غير سكر لسكى تعينهم على اقامة الليل ساهرين يذكرون الله .. ليكون من حلاوة الوداد .. لا تهاويل متقيحه .. لا كلمات كافره رهيبه .. لم يعد عبد العزيز يعرف حلاوة الوداد أو الاتساق مع نفسه انه يكره الليل ويهرب منه الى وضوح النهار .. لو يمرغ وجهه في يد الحاج كريم السمراء ويبيكي ..

– اشرب يا عبد العزيز

ومد الحاج كريم فنجال قهوة الى عبد العزيز ، أخذه متسرعا خجلا هذه أول مره يدعى فيها الى قهوة ابيه ، ثبت نظره على الارض لا يحوله .. طعمه طيب .. مشروب الذاكرين

احضرت الام طربوش العمامه وشالها اقام الحاج كريم ساقه مشنيه امامه ، كبس الطربوش في ركبته فرد الشال بينه وبين ام عبد العزيز كبيرا شفيفا ، ثم بدأ يطوى بينهما طيات متتالية لكى يصبح شريطا طويلا لطيفا .. عندما كان صغيرا كان يسابق أمه لكى يفرد الشال امام ابيه ، يفشل وتلتوى كفاه ويضحك منه أبوه ويحاول من جديد .. كان في كل شيء بهجة ..

بدأ الحاج كريم يلف الشال بعناية حول الطربوش وهو يتابع اهتمام ابيه .. ساهما .

الزوجة الأخرى جالسة امام باب غرفتها تستند ذقنها على كفاها صامته ، والبنات يقمن ببعض أشغال الصباح في سكون .. ناول العمامه الى ام عبد العزيز وقام متمهلا الى غرفته وامام المراه بالدولاب لبس قفطانة الشاهي وتحزم عليه بشال كبير مزركش ثم ارتدى جلبابه الكشميري الكبير ، تناول العمامه .. حبكها على جبهته ونظر الى نفسه في المراه وهو يسوى طوق جلبابه على صدره ببسطة كفه ، مهيب مزوم الشفتين ، كل مافيه اتيق ليس فيه عيبه ..

« .. توشأ أبو زيد وصلى لله وكعتين وأخذ عدته وحسامه ، خوذته ولثامه عازما على الرحيل الى ارض تونس ووقف بنو هلال حوله مودعين وبالسلامه له داعين والقي ابو زيد بعيونه على النيافي والفقار .. ثم نظر الى من حوله من الكبار وانشاء يقول ، صلوا على طه الرسول .. » نسي عبد العزيز الشعر ، ونسى حتى نبرة احمد بدوى وهو يتغنى بالابيات ، لكن ذلك الحنين الذي احسه وقتها اصبح شيئا خالصا يخالط روحه .. الحنين الغامر للسفر .. للخروج .

وقف الحاج كريم ساكنا في وسط الدار عيناه البنيتان لاتحيطان على مكان .. لا نامه حتى الحمام سكنت على البناني ، كأنما هو قائم للصلاة فما تجسر على المرور من امامه .

– طيب .. نتوكل على الله

ومد يده فناولته ام عبد العزيز العباءه طرحها على كتفه وضمها الى صدره بيسراه وناولته العصا فعلقها على ذراعه اليمنى وبدأ يتحرك في اتجاه الباب تقدمت اليه ام عبد العزيز فمد لها يده

يا عرب ياللى ناديتسولى آدينى جيت
واقف على بابكم وان اذنتسولى آدين خشيت

- الله .. الله .. الله

ويتقدم محمد كامل باسطا كفه ناحية الحاج كريم عازما عليه
بشعرة من دخان المضغ

- ما تحرمناش من طريقك يارب .. وداد يابو فراج وداد

وما يكاد محمد كامل يجلس فى مكانه حتى يهل احمد بدوى
ومعه عراقى الاطرش ضاحكين مهللين عراقى وضع عمامته الحمراء
ومشط لحيته لم يسلم وانما وقف وسط الشرفة ورفع عقيرته
بالمسد ..

- مدد .. يا سيدى احمد يا بدوى مدد

والقى احمد بدوى بنفسه على الحاج كريم يعانقه ، لطيف فى
ثوبه الجديد وطاقيته التى تلبس راسه باحكام وملفحته التى
تندل شراسفها على الارض من قصر قامته .. الحاج كريم يقبل رأس
العراقى الذى انحنى يقبل يده وهو يقول متغنيا

- احباب السلطان عليهم نورا يا سيدى .. مدد ياعم

وجاء الناس من كل فج امتلأت شرفة الدوار بالوجوه الفرحانه
واخرجت غلب الدخان وتبودلت اللفائف واخرجت احقان المضغ
وصفقت على الاكف وقدمت للاخوان مبسوط عليها الدخان المدقوق
المندى ، عبد العزيز ساكن فى الركن يبتسم ، السرور الجماعى
اجتاح كآبة المساء .. اكتسحها غسلها ..

ما الذى جمعهم اهو زعيق العراقى مناديا على المسد ام تلك
الانفاس التى تسرب منذ أيام فى البلد .. حثيته تنفخ فى كل قلب

فقبلتها فى صمت ثم الزوجه الثانية ثم النبات .. وخرج الى الشارع
يمشى وثيدا وبجواره رصين الخطو يمشى عبد العزيز .

شرفة الدوار نظيفة مكنوسه الدكك مفروشة بالحصر البيضاء
الشارع لا يزال ساكن التراب من ندى الصباح .. جلس الحاج كريم
فى مكانه من الاريكه ركن عصاه ووضع عباءته بجواره واخرج علبة
دخان وبدأ يلف لنفسه سيجارة ، من امامه تتحدرد سلالم الشرفة
الى الشارع وعبره يمتد الجرن وفيه بضع نخلات ثم تتراعى الحقول
الى الافق وعيناه البنيتان تجوبان الامتداد المترامى مشوقتان ، وجهه
الاسمر السمين ريان بالرضى ، مباحج الرحلة .. السفر .. الطريق
الى السلطان ، لاشئ يستطيع أن يضع فى قلبه كل هذا الفرح الا
السفر ..

وصعد محمد كامل سلالم الشرفة ضاحكا ، مفسول الجلاب
قد لف شالا ابيض على طاقيته من صوف الغنم الاحمر والقى على
كتفه بملفحته وقام الحاج كريم مرحبا وسلما مشتافان كأنما لم
يتقابلا منذ سنين وهما اللذان سهرا معا بالامس فى ردهة الدوار
وقبل محمد كامل كتف الحاج كريم وقبله الحاج كريم ما بين عينيه
وسلم محمد كامل على عبد العزيز ودعى له ثم جلس على الاريكه
مهتاج الوجه بالسرور .. أخرج حق مضغته وطفق ينكش فيه بعود
ويتهف به الحاج كريم

- هو الشاعر كان يقول أيه ياعم محمد ياكامل

ويهز محمد كامل رأسه فى انتظار الشعر ضاحكا مغمض
العينين

- أيوه ياعمى أيوه

- كان يقول يا سيدى :

حول السور هزيم الانبهار والايمان وتفرق الوجوه - المبقعة من
سوء التغذية - فى رضى صوفى .
- شوف احنا يا عم محمد يا كامل بنسافر فى القطر قاعدين
مربعين رجلينا ..

ويتأثر محمد كامل حتى ليكاد يبكى ..
- احنا ضعاف يا عم الحاج كريم

ثم ينكس رأسه ويواصل بصوته المشروخ حاكيا عن

- راجل نواحي المحلة الكبيره .. يقوم الصبح يقول لمراته ..
يامر، هاتي العصايه عاوز اقوم ازور سيدى احمد الرفاعى فى العراق
.. تناوله العصايه والعصر تلاقيه راجع .. يناولها بلع عراقي ويقول
لها زيننا رزقنى ببلحتين وأنا قاعد اقرأ سورة ياسين جنب مقام
الرفاعى ..

والايمان يئز فى القلوب كظنين النحل والناس يمصصمون
الشفاه دهشين يحوقلون ويتهلون ، ويصفق الحاج كريم باطن قدمه
المجوريه مغمض العينين قائلا

- طاروا على متن حرفى « كاف » و « النون »

دول اهل الخطوه ياعم الشيخ محمد يا كامل

وتبرق عيونه البنيه بذلك الشوق الذى عرفه عبد العزيز اذ
يقف فى شرفة الدوار يدور بناظره ينقل على روحه حبس النهار
القعود يتلمل فى مكانه والشوق فى عيونه ألم قاتل .. اذ ينشق
الطريق عن واحد منهم ، المسافرون فى الزمان ، الجوابون ، الارواح
الهزيلة الرثة الهائمه فى الريف .

كان ذلك الرجل ابيض الوجه دقيق اللحيه واسع العينين واذ
يزيح عمامته ينسدل على جبينه شعر أسود سبط .. اخرج من كفه

نارا وعلى المصاطب امام ابواب الدور فى العصارى وعلى الكيمان
فى الليالى الصيفيه المقمرة يدور الكلام ماذا عن ايام السرور ،
قليلة على مدار العام ، والزمن بينها مفروش بالكد والغناء ، ومولد
السلطان فريد فى ايام السرور ، تلك السفره الغريبه الى طنطا ،
ثم الليالى هناك متفجره بالاضواء والغناء والهياج ..

- والله العظيم لو حتى سرقت لرايح .. لو حتى مليت حجرى
غلة من المخزن وبعته لابد رايح .

وينظر الجالسون الى الشاب الذى استخفه الشوق والى هياجه
وايمانه المغلظه ويضحكون فى كل قلب شوق وفى الاكياس الخلقه
قد يكون ثمة قروش قليلة او لا يكون - لكن الله كريم - ومن هنا
الى صباح يوم السفر يستطيع الله أن يرفع سبع سموات وأن
يسط سبع أراضين ..

وفى ذلك الصباح تلبس الجلابيب المغسوله وتعلق العصى فى
السواعد وتزدهى الوجوه بالحبور ..

- فىن احنا من اهل زمان ... الله ينفعنا بهم .. ويشفعمهم
فىنا ..

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجور به وتشرئب
اليه الوجوه المشتاقه للسفر .

- ما كانش الواحد منهم يركب دابه وهو رايح للسلطان ابدأ
.. ان ركب يبقى أساء الادب .

ويهتف محمد كامل من اعماقه

- يا سلام .. يا سلام على كرمك يارب

ويسمع من عشرات القلوب المتزاحمه فى شرفة الدواز والمتكائه

كل رجل من دارة بطعام ، المكان ناسى وطعام ، الحاج كريم مبنهج لا يقر له قرار ، ودون سابق انذار يمسك الرجل عصاه ويدب نازلا من الشرفه متأنيا على الدرجات والناس تتبعه بالعيون والقلوب حتى اذا كان وسط الباحة امام شرفة الدوار ، اذ به تركبه روح مارده وتلبسه قوة غريبه ويرفع عصاه فى الهواء ويصيح قافزا على قدم واحده ويدور يرقص رقصة غريبة وصياح مدوى ، دوره او دورتان ثم يعود عجوزا مهدما يدب على عصاه منصرفا والجمع واقفة مأخوذة وهو يغيب مع انحاء الطريق ..

ان روح عبد العزيز تحلق وهو فى وسط هذا الحشد من المسافرين ويود لو ينطلق يدور فى البلاد لا يسأل اين ، لا يسأل لماذا ، لكن كيف يسافر الانسان من غير العكاز والحفاء والوضوء انه جنب ثقيل الراس بعلامات استفهام لا تقهر ثقيل القلب بهم لا ينكسر ..

ويضحك احمد بدوى ويفرق فى الضحك مذكرا الاخوان بسفرتهم الاخيرة الى مولد الحسين اذ عينوا فى عربه (كاميون) وركب الحاج كريم بجوار السائق والدرائش افترشوا ملافحهم مع نسائهم فى صندوق العربه وظلوا يتارجحون ويضحكون حتى وصلوا الى القاهرة مهشمين من الاجهاد والضحك .. ويشرد محمد كامل .

- الشراقوه حيطبوا طنطا بكره انشاء الله .

وبيتسم الحاج كريم بحنان سوف يسافرون الآن ويعدون البيت فى طنطا ومن غد يصل الشراقوة ويقومون مدة المولد ضيوفا عليهم مكرمين ..

وربما من بكره صباح الغد سيخرج الشيخ من داره مرتديا عمامته الخضراء وجلبابه الكشميرى الكبير ويجلس امام دواره فى انتظار

قطعة جلوى قدمها للطفل عبد العزيز ، وما ذاق الولد اشهى منها ابدا .. وعرف ان الرجل يثقل نفسه تحت ثيابه باغلال الحديد ويسأله الحاج كريم .

- ليه كده يا عمى

هو احدث سنا من الحاج كريم لكنه يناديه يا عمى

- بلاوى الناس .. شايها على ضهرى

وفى المساء حين اقيم الذكر طار بين الصفيين كالحمامه البيضاء. وجن جنون الذاكرين .

وفى الصباح سأل الطفل عبد العزيز ملهوبا

- الراجل فين يابا

والحاج كريم ينظر الى بعيد .

- مشى يا بنى .. مشى

واذ يقف الحاج كريم وحيدا فى شرفة الدوار .. وعبد العزيز عند اقدامه يرى عيونه ترف فى الآفاق بنية يحيرها الشوق اذ ذاك ينكشف السكون عن طيف مهدم يدب على عصاه احد المسافرين فى الزمان يتهلل الحاج كريم وينزل درجات السلم مرحبا

- أهلا يا عمى ..

عجوزا مهدما كليل البصر رث الثوب يتسند على فرع سينط يجلس على الاريكه مهموما بنفسه لا يرى ما حوله بهمهم بما لا يفهم يتقاطر الاخوان والناس والرجل لا يعى ما يكون يخرج حق مضغته ويفرغه كله فى كفه ثم يضعه فى فمه آنا ثم يستخرجه مرة اخرى ويودعه الحق يتململ مكروبا ملولا يلقي نثار الكلام ..

يأتى محمود ابو اليزيد حاملا الصينييه النحاسيه الكبيرة ويأتى

زمانهم الان .. أو صباح غد سوف يجلسون امام دوار الشيخ حتى يجتمع شملهم ، حتى يأتي صانع القهوة الأسود حاملا عدته فى خرجه الصغير وحتى يأتي كاتب الرقى الفقيه الذى لا يكف عن التسييح أبدا والذى لا يكلم احدا تقريبا .. حتى يجتمع شملهم فيبدأون الرحلة الى فرج السلطان .. وفى امسيه ندية فى بيت الخدمه سيكون اللقاء ..

كم رقت القلوب وهفت للسفر الوشيك وطارأت أجنحه الشوق وحطت على الذكريات الحبيبه يميل الحاج كريم على احمد بدوى

- ياترى جوابنا وصل لحسن افندى وعرف معاد المولد

سلمه ساعى البريد الخطاب قراه وابتسم ابتسامه وضيئه ومن غد سيضع الطربوش على رأسه ويزرر معطفه ويقف حائرا على رأس السلم المعتم وخجلا قليلا ثم يستجمع نفسه ويقول لامرأته الواقفه تحمل ابنتها الصغيره

- خللى بالك من نفسك

وينزل مسرعا

ظهر العايق وعلى كتفه خرجه وفى يده ساعته .

- يا أخونا لسه بدوى

ويزوم سليم الشركيسى النجار عصيبا

- لما نبدر شوية .. مش احسن ..

ويسلم العايق ويقف فى شرفة الدوار يتكلم ملوحا بيديه ..

- لسه بدوى يا عالم .

ويعاجله احمد بدوى

- بدوى ولا وخبرى .. انت قاعد فى الدار تعمل ايه ..

مشبعتش من روايح طول الليل ؟

الاخوان ليبدءو الرحله الى طنطا وربما ينعقد هناك امام دوار الشيخ مجلس مثل هذا طلى الحديث ملء بالشوق الى بهجة السفر .. ويتصور عبد العزيز الشيخ عباس وقد أهل من بعيد على مجلس الشراقوه امام دوار الشيخ يتحسس طريقه بعصاه فهو كليل البصر حتى ليكاد يميز الأشباح - وحالما يستقر له الجلوس ويشرع فى الحديث لا تسكته قوة فى الارض ولا فى السماء ذلك الازهرى الذى هجر دراسته دون ان يحصل من العلم شيئا ومع ذلك فهو يتخذ الجبه والعمامه ويتخصص فى افتاء الناس يفتيك بما تريد ييسر لك أمور الدين حتى لو أفطرت فى رمضان عامدا .. لا بأس .. صل لله وكعتين واستغفره يغفر لك .. اذا كنت حنبليا متمسكا فاطعم مسكينا .. ان الله غفار ياأخى لما التضييق على عباد الله .!!؟

- والنبي يا شيخ عباس انت تستاهل يتعملك مقام .. بطنك

أوسع من السيد البدوى ..

لكن المستكاوى يصطنع جهامه مضحكه ويسأل بلسانه الشرقاوى .

- جولى يا شيخ عباس .. سرجة الحمير جلال .. ولا حرام ؟

ويتدخل العايق مصطنعا الجد .

- هيا مش حرام يامستكاوى .. بس تقسى قلوب الملايكة .

ويفرق المجلس فى الضحك ويشتمهم عباس .

- ولاد كلب حشاشيين ..

فالمستكاوى والعايق يعبدان الحشيش عباده .. ويفرمان بالثياب الناعمة والطيب ، لكن احدا لايدرى من اين ياتى المستكاوى بمعاش أولاده ولا احد يسأل ربما يهمسون انه يسرق الحمير لكن الشيء المؤكد انه لا يسرق حمارا مدة موالد الشيخ ..

- روايح لها ليلة ما أكون صابح مسافر وليلة ما يكون صابح عيد او موسم ونهار السوق بالليل والباقي انا حر فيه ..

- وان رحت ليلة من دول للجازيه

- ان روت صبحيتها الدار تكسر رجلى

وانفجر الجالسون ضحكا وعلق واحد

- يعنى روايح كبت ميه بصابون قدام الباب النهارده
وضحك العايق

- صابون بريحه

نهض الحاج كريم واقفا ضاماً عباءته الى صدره بيسراه ممسكا
عصاه يمينه ووجهه وقور هادى ساكن وقام الحاضرون وقوفا وحل
صمت جليل لثوان وتكلم محمد كامل بصوت عميق الفرح

- الفاتحه لاوياء الله الصالحين .. ان ربنا يصلح احوالنا جميعا
ويسهل لنا طريقنا ويفتح فى وشنا الابواب .. الفاتحه

وقرئت الفاتحه فى همسات لا تسمع وفهم العراقي انهم يقرأون
الفاتحه فرجع يدها فى هيئة دعائية وبدأ يحرك شفتيه حتى ادرك
انهم ختموا القراء مسح صدره بيديه مؤمنا ورفع عقيرته مناديا على
المدد .. لم يعلق احد ولم ينطق ببنت شفه مشى الحاج كريم وثدا
نحو سلم الشرفه وبدأ ينزل الدرجات فى سكون والجميع ورائه
صامتين يخبون فى الجلايب المفسولة ساهمون سارحون، نحنحات
او مصمصه شفاه اليوم لا تسمح الانوف فى الاكمام ولا ذبول
الجلابيب ، منديل او خرقة نظيفه مطبقه ..

وجه الحاج كريم مشرع الى الامام وعيونه مليئة بالجلال والحنان
والشوق ، لم ير عبد العزيز ذلك التعبير فى عيون انسانية ابدا . ،
ظل محفورا فى خياله ، اشتياق لا يرتوى الى عوالم مبهمه غارقة

ويضحك الحاضرون .. ويضحك الحاج كريم مداريا ضحكته
.. وفجأه تبدو روايح بذاتها على البعد تنادى العايق وينفجر
الضحك أكثر وأكثر .. ويهرول العايق بحجمه الدقيق الى روايح
ويقف فى كفها ضخمه عيونها تبرق كعيني حداه تكلمه بالحاج وهو
يلوح بيديه وكلما اراد ان ينصرف استبقته بأن تجذبه من طوق
جلبابه واخيرا أفلت منها وأقبل مسرعا وهي واقفه فى مكانها تنظر
اليه كأنه ابنها الطفل مسافرا لأول مره فى طريق محفوف بالمخاطر
.. استقبلته فى الشرفه عاصفه من الضحك والتساؤل .

- كانت عاوزاك ليه

- خير يا عايق

- جايبالى ورقه دخان

- لازم كنت سبع ليلة البارح

ويضحك العايق ويكرمع حتى تبدو أسنانه التى اهلكتها
الكيف

- كانت ليله ندى .. جوز حمام وتعميره

ولا بد أن كلا من الحاضرين تجاوز التعميره والليله الندى وفكر
فى زوج الحمام الذى طهى للعايق بالأمس وكل سرح ذهنه الى البنانى
فى داره ، حمام من ذبح أمس مساء ..؟ عبر أحمد بدوى برهه
الصمت وسأل العايق

- وما فوتش على الجازيه تقولها خلتك بعافيه

- لا

- ما لكش حق

- شوف يا سيدى

- هه

في الصفاء ، حينما كان صغيرا كانت تلك النظرات تصيبه بالخوف أو بالحزن فيمشى في كنف أبيه ساكنا منكمشا على كيانه النحيل ينظر اليه في خشوع ويمشى مبهور القلب يتعثر في حصاباء الطريق . انه اليوم في ذيل الموكب لكنه يحس رفيف هذه العيون تستطلع أعلى الطريق وترين على موكب المسافرين ويراهما في هؤلاء الناس على جانبي الطريق يتقدمون الى الحاج كريم صامتين وينحنون على يده يقبلونها ، اليوم لايجذب يده من أحد يسلمون وهو يهمس لهم .

- تراكم في خير انشاء الله

ويرفع واحد بصره اليه راجيا

- سألتك الفاتحة في المقام يا حج

رجل من القاعدين ، ربما جذب اليد وفراغ الجيب وربما هموم الدار وشواغل الحقل أو فساد الهمة وفتورها كريح واهنة لا تدفع القلاع الى محاط الشوق آه من ثقل المراكب وتلكؤها بالشطوط وتوزع النفس وحيرة الليل .. لكن الحاج كريم يهز رأسه مؤكدا والحنان والتسامح يفيض من ملامحه

- انشاء الله .. انشاء الله

وحينما مر موكب المسافرين امام الدار وجد عبد العزيز الباب مشقوقا ولمح عيون البنات تزدهم في الشق ضحك في نفسه على لهفتن الغريبة، انهن يعبدن اباهن الحاج كريم، من في البلد لايجبه .. سوف يسافرن من غد لكن اى سفر سيخرجن لابسات الاسود محجبات ولن يسرن في هذا الشارع السوى الى المحطة .. بل يسفن الى سكه موغله في الحقول متجنبه سبل الناس يتعثرن في الكيمان ضاحكات وشاتمات في السيد البدوي وسككه العثره وسوف يكن في صحبة رشيدة ومعهم رجل لكنه بالقطع سيكون ذنبا خائباً فاته ان يشارك في موكب الحاج كريم .

هكذا يكون سفرهن ، يتمنين لو كن رجالا ، ولكن أسوأ الاسفار خير من القعود في الدار ، بحار المخاوف المدهشه ، القطر والكمسارية وعبث ابناء البنادر ، موكب المسافرين جاوز الدار وهاهى امرأة امرأة احمد بدوى وامرأة محمد كامل وامرأة الشركسى النجار . مسافرات مع الرجال يحملن سلال الزواد وتسحب كل واخذة طفلها ماعدا امرأة محمد كامل، مسكينة ناكسة الرأس كسيرة العينين، باليت الحاج كريم يدعوهم اذن لحملن السلال على الرؤوس وطرن وراء موكب الرجال ، لكن زاد - الحاج كريم لا يجعل في سلة بل صحارتين هائلتين تحملان على جمل عمر قرهود الجمال .. يلتفت عبد العزيز وراءه ليجد شق الباب قد احكم ويضحك في نفسه مرة اخرى وهو يتخيل هرجهن وعراكنه وجريهن في كل اتجاه يجهزن لرحيلهن .. ويتصور امه الان غير مباليه بشيء من هرج البنات تروح ، وتجىء في الدار حازمه متجهمة تطعم الدجاج وترعى البهائم او تعد الشوالى لحلاب المساء .. التأم شق الباب والموكب يمضى والناس يسلمون وفي همس يسألون الفواتيح في المقام والنسوان في فتحات الدور ينظرن الى المسافرين ، لكن قد يحدث ان تندفع امرأه نحو الحاج كريم حامله صغيرها .

- والنبي يا عم الحاج اقرأ الفاتحة لابنى في مقام السيد

ويتوقف الحاج كريم ويضع يده على رأس الطفل ويدعو ثم يربت كتف المرأة ويمضى والمرأة دموعها تنهمر على خدودها وعندما يجاوزها الحاج كريم ماضيا تطلق زغروده طويلة مظلمة فيها بيدها وتتردد في الموكب الممصصات ويعدل العايق من وضع الخرج على كتفه وتلمح في عيونه نظرة غريبه

- ايه ..؟ يامرة يا بنت الكلب

ويغالب احمد بدوى ابتسامته ويقول مؤدبا للعايق

.. لم يعد عبد العزيز يسيفها كثيرا يتردد دعلى خليل فى اعطائها له
فالأفندية حذرون عادة ازاء حاجة الفلاحين لكن عبد العزيز يسرع
بأخذها ..

– نفسى فيها من زمان ..

لهم فى كل مكان مكان للجاوس نظيف ولطيف ودائرى وحينما
يجلسون ويشرعون فى الكلام فانك لاتدرى متى ينتهون ، دارت
اللفائف وصفقت احقاق المضغ على الألف وعلا صوت العايق
ضاحكا ونظر العراقى حوله غير فاهم شيئا لكنه يتسم للفرحة
التى يراها على الوجوه ..

ويأتى عمر فرهود جريا ، داره على بعد خطوات من الدكان
والجمال جاتم هناك هائل الجرم ، يقبل يد الحاج كريم ويقبله
الحاج كريم فى جبينه ..

– كل عام وانت بخير يا فرهود ..

و صوت عمر فرهود متذلا مشروخا وهو يقول :

– سألتك الدعوات يا عم الحاج ..

– انشاء الله .. انشاء الله ..

ثم يتسم لفرهود منها عليه ..

– الصحاحير من بدرى يا عمر .. زوادة السلطان يابنى ..

– من عينى يا عم الحاج .. دا فرض عليه .. ربنا مايقطعناش

– آمين ..

ثم يبصر عبد العزيز فيسلم عليه ضاحكا :

– ازيك ياسى عبد العزيز .. مش عاوز تركب على الجميل

السنة دى ..

– خليك فى حالك يابن الكلب .. هيا دوده مايقترحمكش ابد
ويدارى عبد العزيز ابتسامته مكسوبا ثم يعيى قلبه بالجلال
ويمضى مع الموكب ومن بعيد يرى على خليل امام باب دكانه عليه
هيئة السفر الجلباب المغسول والوجه الحليق والابتسامه المشرقه

– السلام عليكم ورحمة الله ياعم على يا خليل

وينحنى على خليل على يد الحاج كريم ويقبلها ، ويقبله الحاج
كريم فى جبينه وفى سكون يمضى الى داخل الدكان ليحضر حصير
المصطبة ، رفوف الدكان مزدحمة الى السقف بالعلب والاحقاق
والكيزان الصابون والسكر والقماش وزجاجات المصابيح وسائر
الوان البضاعة ، العلاقات من السقف محمله بصنوف من ملافح
الرجال وشيلان البنات الحمراء والخضراء ، الصناديق بجوار
الحيطان مليئه ببلح التمر والعدس والبقول وعلى الارض بلايص
العصل الاسود واجولة الارز والملح كل الاشياء تتكدس بلا نظام
غارقة فى الفبار والوساخة ، كان ريق عبد العزيز يتحلب وهو صغير
حينما يرى الحلوى الملونة فى النافذة الزجاجية الصغيرة فوق
البنك ، أما الآن فهو يحب أن يتأمل على خليل يدور بين هذه
الاكداس هادئا ساكنا لا يتعثر مثلما تفعل ام عبد العزيز فى غرفة
المعاش .. وحينما لا يكون ثمة زبائن يهجع على جوال مفعم ويفتح
امام عينيه كتابا اصفر الصحائف مبعق بالزيت ويسرح ساكنا
شاحب الوجه ..

فرش على خليل الحصر الأبيض على المصطبة ومسح عنه
التراب بكفه والحاج كريم يهتف به :

– كويس .. كويس يا على .

ويجلس ويجلس من يجد لنفسه مكانا ويقف الباكون متحلقين
حول الحاج كريم ويأتى على خليل بالكراملة ويوزعها على الحاضرين

ويضحك الحاضرون وينظر الحاج كريم مبتسما الى ابنه راضيا عن حب الاخوان له فيقول عبد العزيز خجلا :

- بقيت ثقيل عالجمال يا عم عمر .

ويضحك الحاضرون ويواصل فرهود :

- كان غرامه الركوب على الصحاحير ..

اذ ذاك طفلا صغيرا يقف أمام باب الدار منتظرا ، ومن بعيد يأتي جمال عمر فرهود الهائل الجرم ينقل كلاكه على الأرض وهو سائر يتدفع ، وعمر فرهود يتقافز حوله بخيزرانتة الطويلة وأمام باب الدار ينيخ الجمال ، الارتفاع الشاهق يتهاوى حتى يجثم على الأرض والجمال حائر العينين يتلفت شاكا مستوفزا عصبيا وعمر فرهود يهدىء نائرتة باصدار صوته خاص مستطيل .

- هخ .. خ .. خ ..

ويأتى الفتيان خجلون متكسرى العيون لكن وجوههم مزدهية بالانفعال عبد العزيز الطفل يحس هرير الانفعال فى صدورهم وينظر اليهم خائفا كارها والبنات فى أركان الدار واسعات العيون يكتمن ضحكات فرحه ووجوههن تكاد تبك دما من الهياج .. أم عبدالعزير حازمة عارفة لما تريد ..

- من هنا ياجدع انت وهو .. كل اثنين من ناحية .. بالراحة .

ويهجم الفتيان على الصحاحير ، سواعد مليئة بالمروة ويحمل كل اربعة صحارة ويخرجون بها يضعون الصحاحيرتين على جانبي الجمال الجائئ وعمر فرهود مستطار اللب يدور يجرى هنا وهنا .

- حاسب ياسيدى .. ماتعديش من قدام الجمال .. بس ..

بس كده .. استنى اما اقولك أبقى شيل .

ثم يوثق الحمل على ظهر الجمال بالحبال وأم عبد العزيز

عيونها على الصحاحير والبنات عيونهن على الجدعان .. شرارات يرقبها عبد العزيز ذاهبة آبية بين العيون تملأ قلبه بالخوف لكنه يصرف همه عن هذا ويهتف متوسلا :

- ركبني بقى بابا عمر .

- حاضر ياسيدى .

يوضع الطفل على الصحاحير تقذف له أمه بخرقه بيضاء .

- حظ ذى على راسك من الشمس ياوله .

يقبض على الخرقه غير فاهم شيئا كل همه منصرف الى اللحظة الرهيبة الوشيكة ، لحظة نهوض الجمال من جثومه ، يمتلىء قلبه لها شوقا ومنها خوفا .. يزيد من ارتجاف بدنه مايصل اليه من هدير الجمال الصاخب الفاضب من أثقالة بالحمل ، ومما يصل الى سمعه من صياح عمر فرهود وضحك الجدعان وزياطهم .. وتنبهات أم عبد العزيز الحازمة وضحكات البنات المرححة المجلجلة ثم يفك عمر فرهود عقال الجمال فيهم بصدرة ناهضا بالحمل الى الخلف ويكاد عبد العزيز ان يطير ساقطا على الأرض لولا تشبته الوثيق بسياج الصحارة ، ثم ينهض الجمال بخلفيته فيلقى بالحمل الى الامام ويكاد ان يقفز بعبد العزيز مرة أخرى ، ثم يستقيم واقفا مهابيا بقوة عضلية خرافية وعبد العزيز عال فوق الجمال الشاهق الارتفاع يكاد يلمس بيده شبك الفرفة على السطوح ينظر الى أمه واخواته على الأرض ويتسم ثم يمضى الجمال وتبدأ منقلا خفافه الثقيل على أرض الشارع وعمر فرهود فرح بجمله خائف عليه من الحسد ..

- ياللا السلامه .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

لكن ماخوفه عليه وقد صنعت له زوجته حجابا يعلقه فى

رقيبته حجابا مشغولا بالخيوط الملونة والخرز وقطع المرايا
والزجاج ..

الجمال يندفع فى سيره ، الثقيل والحمل يصر ضائقا بالحبال
الغليظة الوثيقة ، وعبد العزيز يهتز مع الاهتزاز الريب للصحاحير
ولكنه مسرور يرى عيون الناس العيال يعرفون مشوار الجمال الى
طنطا ويضحكون له وعمر فرهود فرح بحمل الزاد للمولد .

جميل أن ينظر عبد العزيز لما حوله من هذا المكان العالى بعدت
دور القرية وهى توغل فى الابتعاد الوثيد وهذه هى السكة السائرة
تأخذك من هنا الى طنطا دون ضلال .. تمر على القرية التوام ثم
على المحطة ثم تسرح بك بين الحقول تنحرف يمينا وشمالا أو
تسير صعدا لكنها فى النهاية تأخذك الى مشارف طنطا ،
يا للفرح ..

من كل القرى ناس ذاهبون الى المولد ، المسارب الصغيرة بين
الحقول كالعروق فى راحة ورقة الشجر ترفد السكة كل آن بارتال
من المسافرين ، الرجال فى الجلاليب المغسولة والبنات فى الشيلان
الحمراء والخضراء والليمونية والنساء حاملات السلام وصرر الزاد
على الرؤس زرافات لا تنقطع والغناء وصفق الأكف والزياط :

يابو عتبة خضرة ياسيد نادينا

ودبحنا البقرة ياسيد وجينا

والجمالة يذبون جمالهم التى تحمل الصحاحير لكن ليس فى
الجمال أبدا كجمال عمر فرهود وليس فى الصحاحير أضخم من
صحارتي الحاج كريم .. وليس فى واجهات القرى دوار كدواره
.. عبد العزيز من الانفعال يا بيه يكاد يصرخ فيهم متحديا ..

وئمة فى باخة أمام قرية كبيرة تقف عربات الأجرة ..
والريفيون أمم حولها والسائقون - يالهم - أشد شراسة من

الشياطين ، يلكرون الناس فى صدورهم ويدفعون النساء والأطفال
ويصرخون ويفالون فى الأجور ، ويصرون على قبض حق السفر قبل
الشروع فيها .. وعمر فرهود يصيح مخاطبا عبد العزيز :

- ولاد كلب كفرة .. بيقاطعوا على رزقهم .. يمكن ما يوصلوش
.. يبقوا خدو فلوس ظلم فى ظلم .. مدد يا سيد .

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن ، عربات الأتوبيس مائلة بالناس
تثير التراب زوابع وعربات الأجرة محملة على ظهورها وجنوبها
ومن خلف ومن أمام ، وعند نقطة المرور ينزلون وتمر العربة أمام
العسكري وليس فيها سوى بضعة ناس ، ثم تنتظر على البعد فتوق
بالناس من جديد والسائق كالشيطان يضرب فى الناس ويركل
لكنهم يلقون بأنفسهم على العربة حتى ماترى من حديدها
شيئا ..

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن واذا كان هكذا فانه يرى امتداد
الحقول على مسافات شاسعة ويرى القرى والعزب والكفور
والمسارب الدقيقة السارحة بين الزرع ، والناس يدبون كأسراب
التمل ، ناس يفضلون السير على ركوب هذه الآلات الجهنمية
وسائقها الشياطين يفضلون السير والحديث ، الكلام مسلاة
الطريق التى لا ينضب معينها ، شاب يكبس طاقيته فى رأسه
ويعدل طوق جلبابه ورفيقتة تسوى شالها وساعدها المحلى بغوايش
ملونة ، يسند صرة الزاد على رأسها وهما يتسلمان ويتكلمان ،
أحمد بدوى آخر ورفيقتة الى طنطا .. ما أحلى حديث أحمد بدوى
حينما كان يحكى عن سفرائه الى طنطا مع تلك التى كان يحبها ولكنه
لم يتزوجها وزوجت فى بلد بعيد .

وفروع السنط ترمى فى حجر عبد العزيز بنوارها الأصفر
المخملى والشوك فى الغصن يخشخش فى الخرقة التى يستر بها
رأسه وعمر فرهود يقتاد جملة ناحية السبيل ليستقيه الناس مزدحمون

حول السبيل يضحكون ويتعابثون ورجل يصيح بهم جادا .

- اشرب وصلى على النبي .

والسبيل عليه قبة صغيرة كأنه شيخ صغير ، قبة تستر زيرين باردين في الظل وهناك طلحة تضح الماء في حوض لسقيا الدواب واذا فرغ ماء الزير فان ابن الحلال سوف يملأ الزير الفارغ يملأ عمر فرهود الكوز ويعلقه في العصا ويرفعه الى عبد العزيز .

- اشرب وادعى للى عمل السبيل .. انت صغير ونفسك طاهر .

ويشرب عبد العزيز ويتفكر فمين أقام السبيل ربما هو رجل طيب مثل ابيه الحاج كريم الذى يطعم الناس الجوايين نى البلاد .

ويستخف عمر فرهود الفرح فيضرب الجمل - رفيقا به - بعصاه ويهتف .

- هيه .. هيه .. يالله يا جدد .. خلاص وصلنا .

وبعد قليل تظهر على البعد قبة السيد البدوى وحينما يراها عمر فرهود يزعم زعيقا يشق الفضاء ..

- مدد .. مدد .. مدد يا بو فراج مدد .

ويتأمل عبد العزيز قبة السيد البسدوى ونوع من الخوف يتمدد في قلبه ..

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجوربه وهو جالس على المصطبة أمام دكان على خليل وحوله الرجال المسافرون .

- عين المؤمن تشوف قبة السلطان وهيا بينها وبينها بلاد وبلاد .

يمصص الحاضرون الشفاء ويؤمن محمد كامل

- ايوه ياسيدى ايوه .

ويكون على خليل قد فرغ من ترتيب شأنه وهمس لامراته الواقفة خلفه فى الدكان بما يجب عمله أثناء غيابه فيخرج الى الناس ينهض الحاج كريم وينهض الباقون ويبدأ الموكب مرة أخرى مسيرته ..

وعلى البعد كانت رشيدة واقفة أمام باب دارها تنتظر ملهوفة وصول أبيها، تسرع لتقبله فى الطريق وهى تحمل ابنها على صدرها وجهها فرح وهى تنحنى تقبل يد والدها ويقبل الأب رأسها ويداعب ابنها والولد يكشر ويشرع فى البكاء ويبتسم الحاج كريم ..

- بتعيط يابن الكلب .. بدل ماتقول اتفضلوا قهوة وترد رشيدة

- عنيينا يابا .. قهوة ؟ ياريتك بس تشرب ميه من زيرنا .. يستبارك

ويمشى الحاج كريم وتمشى هى خطوات الى جواره ..

- البركة فيكى يابنتى بكره من بدرى يارشيدته .. عشان أكل الناس يا بنتى ..

ويكون الموكب قد جاوز الدار .. كم تفيض عيوناه على رشيدته بالحنان ، وكم هى له محبة ..

- ارجعى انت يابنتى ارجعى

وتسلم وتقف والموكب يبتعد عنها

- مع السلامة تروحوا وتيجوا بألف سلامة .. ربنا ما يحرمناش منكم أبدا .. نور البلد .. الدنيا من غيركم مالهش طعم .

لكن القطار لم يأت بعد
- ألف لك وحده ياعم الحاج
- لف يا عايق

أصابه ناصعة البياض لم تخشوشن بالعمل فى الحقل ماهرة
مدربة وجهة أكثر وجوه الحاضرين حيوية فيه شيء ما شبيه بالعالم
الذى هم مقبلون على خوض غماره، شيء وقع جسور الكل يراقب
وجهه وهو يلف السيجارة وكأنما يحس بهذه النظرات فيزداد وجهه
توهجا واستخفافا ..

- حاكم ولاد البندر دول ولاد قعجه

تصدم الكلمة البديئة احساس الدراويش ويفضى الحاج كريم
كانما لم يسمع لكن ثمة جو من التسليم ، ياما سافر العايق ، بناته
يعملن خادما فى بيوت أهل البندر ، يسافر لتحصيل أجورهن
وحمل ما سرقته البنات له من هذه البيوت المليئة بالأشياء اللطيفة ،
كثيرة يغفل عنها أصحابها أو يستغنون عنها ملابس وملاعق وجوارب
ومناديل هم مسافرون الى مدينة أولاد القعجه .. تشدهم بكل ما فيها
من ألم اليس فيها مقام السلطان ..

حينما يصعدون الى القطار سيكون ثمة دكتان متقابلتان وسوف
يجلس الحاج كريم فيما يلى النافذة، والى جواره احمد بدوى وفى
مقابلته محمد كامل وعلى خليل ويتناثر الرجال وبضعة النساء فى
المقاعد على جانبى العربيه .. وتحل لحظه دهش وغرابة والقطار
يهدر متحركا ثم يقبل الكمسارى من بعيد جهما صائحا يجتاح
العربة خابطا ظهور المقاعد يمقراضه ويلكز الأكتاف ويثور على
الارتباك التبلد والوجوه الشاحبة بالخوف ويرتدى وجه الحاج
كريم قناعا باسلا .. ويقتم من الغضب ويهب ليدافع عن رجاله

ويمضى الموكب مجاوزا القرية على الطريق الى المحطة ، على
البعد فلاحون يعملون فى الحقول يرفع الحاج كريم يده بالسلام ،
يترك الرجل عمله ويرد السلام بيده وصوته ، يبقى للحظات ينظر
للمسافرين ثم يعود الى فأسه مرة أخرى .. والرجال جالسون على
المصاطب امام أبواب الدور فى القرية التوام يقرئهم الحاج كريم
السلام فيهتفون بأعلى أصواتهم مجيبين السلام وهم وقوف
ويعزمون على الرجال والموكب يضحج والدعاء

المحطة رصيف مرشوق فيه عمود يحمل لافته عليها اسم القرية
يزدحم الآن بالرجال المسافرين وبضعة نساء ينزوين بجوار السلال
والصرر، الحاج كريم يضم عباءته الى صدره ويستند على عصاه
وينظر الى الأفق البعيد .. العايق يخرج ساعته من جيبه .

- يا جماعة لسه بدري عالقطار

يمد الحاج كريم يده فيستند على احمد بدوى حتى يجلس على
رمل الرصيف

- بارك الله فيمن جلس

ويتحلق الدراويش حوله ، يضع عباءته المطوية على فخذه
التربعين ويرتكن عليها بمرفقيه ويشرع بصرة ناحية الامام ، على
البعد تقع قبة السيد البدوى .. وعما ساعات قلائل يكون لقاء
الاخوان من البلاد البعيدة ..

عبد العزيز ينقل بصره بين الوجوه المتحلقة واحدا اثر واحد ،
الفرحة والخوف ، السفر تجربة خطيرة غريبة محوطة بالخوف ..
عشرات الحكايات الصغيرة تحكى فى المجالس من الآيبين من الاسفار
على الكيان وعلى المصاطب امام أبواب الدور تصنع خوف هذه
اللحظة ، غسلوا جلايبهم وحملوا زوايديهم فى السلال وها هم
سيركبون القطار ..

فما دامت الورقة فى يد الرجل فليس لأحد عنده شىء وما القطار
الا مركب موطأ لمن دفع أجرة الركوب ..

حينما كان عبد العزيز طفلا كان يبقى واجف القلب فى انتظار
اللحظة التى يلتحم فيها أبوه مع الكمسرى ويفرح فرحا عارما حينما
تنكسر حدة ذلك الأفندى على عناد أبيه الصلب وينصت لأبيه
مشدوها وهو يحكى عن وقائع كهذه مع ناس آخرين رفيعى القدر
.. فما كل الاسفار للسلطان وانما قد يدعى الأب لمقابلة مأمور
المركز .. ويحكى جهما يتفزز فى مكانه من الحنق ..

- قلت له على مهلك يامأمور المركز .. على مهلك توصل ..
احنا ضعاف ماالناس فى نفسنا حاجه ..

ويكاد قلب عبد العزيز أن يتوقف ويكاد المأمور أن يقفز من
مكانه وينقض على الحاج كريم ليعصف به لولا أن يدخل طبيب
الصحة ودون أن يعلم بما يجرى يسلم على الحاج كريم بحرارة ..

- سعادة البية ما يعرفش الحاج كريم .. ؟ دا راجل عظيم
يكتشف الطبيب انهما كانا يتعاركان يضحك .

- انتم لازم اختلفتم .. أنا برضه أول ماعرفت الحاج كريم
اتخانقت معاه .. وبعد كده بقينا أصحاب .. دا رجل عظيم
يا سعادة البية فى وباء الكوليرا كان بيثبيل الناس على كتفه ..
ويجلسون ثلاثتهم ويتحادثون ويتوادون ويرقد قلب عبد العزيز
فى صدره .

- المأمور صالحنى وجبر بخاطرى .. ووعد يجى يشرب قهوة
فى الخدمة ..

ويستخفهم الفرح الفامر أحمد بدوى ..
- نبقى نقول للسبت أم طلعت تخلى الكنتين عشان لو حد جه
ما يقعدش عالحصيره

ويرد الحاج كريم

- اللى عاجبه حصيرتنا يجينا .. واللى مش عاجبه .. يادار
ما داخلك شر .

ها هم فرحون برجلهم المسافر وهم مسافرون معه بارح
الكمسارى العربية ، زالت مشاعر التوتر واستراحت القلوب وبدأ
الناس يتبادلون الحديث فى المقاعد على الجانبين والقطار يمضى
صخابا بين الحقول ..

وفى كل محطة يقف القطار ويصعد ناس مسافرون ودرائش
حول رجلهم ، سلال الزاد والوجوه المليئة بالاهتمام والدهش وقليل
من الخوف، أحمد بدوى يتأمل الوجوه والطواقى وأطواق الجلابيب،
لكل ناس عاده وطريقه فى الزى والكلام .. ويتذكر الحاج كريم
صحاب له كانوا هنا أو هناك يحكى عن كرمهم وتفانيهم فى حب
أولياء الله ، ويحكى محمد كامل عن شيوخ لهم قباب فى هذه القرية
وتلك والقطار يمضى الى قطب الاقطاب .

أهل بعض القرى يبكرون بالزرع وتلك حكمة منهم ، ما أقبح
التأخر وفتور الهمة وبعض أهل القرى يخططون من الشمال الى
الجنوب ويضحك فلاح من قرية بعيدة ..

- أمال ياعم .. النباته مابتقباس فى الضل ، أول الشمس
ما تفتح من الشرق .. تشوفها .

والنساء مذهولات يسمعن طرائق نساء القرى الأخرى فى
الطبيخ والحلابورقى الأطفال ومن فى قراهن من العارفين بالكتب
والسحر وصنوف العمل ..

هكذا يكون السفر الى السلطان شوق ولقاء ، خوف ودهشه
واكتشاف ..

سعى وجهه ، أحس ملوححتها فى فمه ، قام متثاقلا كرجل عمره ألف عام .

- لازم أسافر

لكن الى أين ؟ شريط السكه الحديد يسير مستقيما ماضيا كالسكين وبحواره خط أعمده التليفون . ماشيان الى الأفق حتى يغيبا ، ربما فى آخر العالم ، الى أين يسافر لا يدري لكن لا بد من السفر فلا شئ يبيل هذه الحرقه الغريبه الا سفرة بعيدة . .

تذكر الرجل المسربل بالحديد ووجهه الرائق الطيب ، وسليمان العجوز والرجل أبو جريده المسافرين فى الزمان ما يكاد الرجل يجلس حتى تشتعل عيونه بالشوق وينهض للمسير . .

وتذكر الرجل الصالح سيد من محلة منوف . . ربما يعتصر الشوق قلبه فيحزم لفه الحصر ويحملها على خاصرته حتى اذا مالقى بها بين يدي الحاج كريم استراحت بلابله وآب رضى الفؤاد .

- أنا أحبهم . . أحبهم

وتدفقت دموعه حاره غزيره .

تحرك الذراع الفولاذى الهائل واربع الرصيف تحت أقدام عبد العزيز وتفجرت النار فى احشاء الونش الأسود وبدأ القطار يتحرك وجوههم فى الشبابيك تضحك له والقطار يتعد يأخذ شيئا معه كان يعمر القلب ، بدأ يخليه فى الفراغ والوحشة وقف مستسلما ينظر الى القطار وهو يتعد حتى صار شيئا صغيرا بعيدا .

تحدر عبد العزيز راجعا الى القرية ، تجنب الطريق الذى مشى فيه موكب أبيه منذ ساعه مشى فى درب صغير يتلوى بين الحقول وحيدا ، معهم كان جزءا من جسد كبير يمضى والأقدام زحام يصك الأرض والسيقان تخب فى الجلايب ، أوحشته الطمأنينة التى يحسها معهم لازال فى قلبه صوت القطار وهو يتضاءل موعلا فى السكون الأرض البنيه ممتده الى الأفق جرداء الا من اعواد شاحبه هزيلة جلس على شاطئ ترعة الماء ساكن فضى فى الشمس بنى فى الظل ، شجرة شعر البنت تغسل غدائرها فى ماء الترعة .

ازدحم خياله بصور وجوههم ، زيتونيه الجلد هزيلة شاحبه فى حياتهم افراح قليله اسفار قليله ، حينئذ تزد هي هذه الوجوه بالسرور . قبة السلطان على البعد فى مركز العالم والحاج كريم سمين ملئ الوجه بالصفاء والعيون بالتماعة الشوق وهم يتسمون فى المجالس عن اسنان صفراء وقلب عبد العزيز مريض توجهه علة غير معروفه .

فدفعته كرتبه الغريبة مرة الى دارها ، دفع الباب ، قلبه ملئ بالكلام حتى ليفيض من عيونه ، كانت جالسه تتناول الماء من وعاء امامها وتغسل وجهها نظرت اليه بعيون صافيه بالود واسعه بالسؤال لكنه لم يجد ما يقوله . كر راجعا وأغلق الباب وراءه .

تناول من الأرض عودا وبدأ يمضغه حتى يتخلص من انفعاله ، طعم العود المر ينداح فى فمه ويزحف على كيانه ، سحت الدموع

www.liilas.com
florist

الخدمة

يا عينى يا بحر طنطا عملوك سكه حديد

كان يتسول فى قطار يدور على قرى الاقليم يجمع المسافرين الى طنطا وخلفه اخته تسند الغناء بدفها الصغير .. ذكرى بعيدة كطائر شاهق فى السماء لا يبدو منه سوى نقطة سمراء ..

البنات فى الشرف ، الشعور المقصوفة والضحكات الرائقة والحدائق الصغيرة المسورة امام البيوت ، وأطفال فى الأراجيح ونسمة نظيفة تملأ صدره كقلع مرح يطير على النيل ، ووقع حوافر الحصان على الاسفلت اللامع ، وعجلات الحنطور تكرر كبريا منتظما .. وتصور ..! فى الشجر ورد احمر ، يراه للمرة الألف لكنه يحب لونه للمره الاف ، احمر فاقع الحمرة .

سار عبد العزيز وحيدا لكنه كلما أوغل سيرا نازلا نحو قلب المدينة بهت ذلك اللون الناصع النظيف وبدأت تشوبه شوائب رمادية وبدأت تنشط حركة المارة وتسرع الحناطير وتمضى السيارات صحابه تنفث الدخان والبخار من انوفها واذنابها وبدأت واجهات البيوت تغير وتظهر عليها اللافتات معلنه عن أطباء ومحامين ثم تظهر الدكاكين على الجانبين وعلى ابوابها اللافتة الهائله معلنه عن البقاله والسجائر وحتى ورش اصلاح السيارات وبدأت المنتزهات فى وسط الشارع تفقد اعتزازها بنفسها وتتهدم الأسوار اللطيفة المحيطه بها ، وتستنزفها اقدام المارة وتهرىء اخضرارها .. وبدأت الثياب تبدو أقل ازدهارا بل تبدو متسخة أحيانا والوجوه تشحب مرهقة وعنيدة .. الضحك المتدفق يعبر عن جلادة صخرية لا عن سرور عذب رقيق ..

ثم بدأ يرى وجوها ريفيه ، بدأت الطواقى والجلاليب ترى فى الشارع منتشره فى غير ما نظام ، جماعات متباعدة يمشون مذهولين مفتوحى العيون يتلفتون فى حذر ، عرف عبد العزيز فى عيونهم

فى المحلة الكبيرة ترعة تشق قلب المدينة ، تذكرها والناس على شاطئها كأفواج الذباب يفسلون الثياب وأوعية الطبخ .. ضجيج النسوة وعراكن واصطكاك حلق النحاس ، وتذكر حديث اخته بلهجتها المحلاوية والنساء حولها ، والأخوات مبهورات بها .. صارت طرية عذبة السمرة كنسوة البنادر ، تذكرها كيف تأخذ الثياب والأوعية الى هذه الترعة لتغسلهم ، فالبحر لا ينجس أبدا ولو القيت فيه الجيف ، أما ماء الأنايب فمن يصرّف مأتاه ؟ ! هؤلاء الناس وترعتهم راقده كبقرة قدره طيعة الضرع تخلق بين اخلافها وبين الحاليين .

ما المحلة الا قرية كبيرة بترابها وذبابها وترعتها ، لكن هذا شارع البحر فى طنطا، متنزهاته المهندسة وأشجاره المقصوفة الفروع ، وواجهات البيوت فى العمائر الكبيرة ، كان ثمة ترعة هنا ، دفنت وشيد فوقها ذلك النظام الرائع من اشجار مقصوفة وعمائر عاليه يحس هسيس الأصوات بعيدا تحت اقدامه ، النسوة المتعاركات على شاطئ ترعة طنطا ، ضحك فى نفسه ، بعيدات غائرات تحت الاسفلت الذباب والبعوض والبراغيث ، مقبرة الليل والنهار فى القرية ، ما ابهى النظافه والنظام ، طنين هذه الاصوات بعيد تحت اقدامه غائر مدفون تحت الاسفلت ..

كذلك ذكرى وجه ذلك الصبى ، يتعذب بالغناء ، ضحك فى نفسه مرة أخرى ، الولد كان ناحلا كالطيف ، لكنه كان ممتلئا بحياة تنفجر فى الغناء الحزين .

ما يحسه داخله من شوق للنظافة والبهاء والجسامه ، وعيهم يشرب ما حولهم من عجيب المشاهد وعصى الخيزران .. ؟ لماذا .. ربما هي العاده وربما الخوف ، الخوف الذى يصحب الرفي اذ يخوض المدينة فالعصا ان تحكم عليها قبضة اليد يتروى الداخل ببعض الطمانينه ..

ينتشرون بين أهل طنطا كالشوائب فى بيدر الغلال جماعات يتخطف اولاد البندر اطرافها سخرية ، جذبا للثياب وخطفا للطوافى ..

- زوارك ياسيد .. كل نطع واخوه ..

وهم كالحدادى المذعوره يخمشون وينفرون دفاعا عن أنفسهم لكن لا يكفون عن السير ولا عن التلفت ووامعان النظرات وشرب المشاهد العجيبه .

السيارات تمخر الشارع غرباء صاخبة مهدمة نافثة الدخان والبخار ، والحناطير تكرر وراء خيول مبرطعه تلهب ظهورها السياط ، ودراجات تمرق يميل بها بها أصحابها يمينا وشمالا ، مجموعات الريفيين تنفك وتتبدد من هذه الآلات الطائرة على اليمين وعلى الشمال، ولكنها سرعان ما تأتلف مرة أخرى فى حلقات صلبة تنظر للعالم القريب بعين واحدة مبهورة ، وأذهان متوقدة تجول الرؤى الى حكايات ، وعلى المصاطب والكيما يدير الكلام فى اللبائى ضاحكه تلك الحكايات لكن فى قيعان الكلمات آثار القهر .. وفيها السخرية تقلب البطن من الضحك فهؤلاء الناس لهم قدره هائله على السخرية وهذه العيون الفاحصة لاتعدم العيوب والمضحكات فيما ترى .

ميدان البلديه على واجهة السينما اللافتات مكتوبه بحروف فى حجم الاطفال وصور الممثلين فى أحجام مهوله عبر الميدان

الجموع مديرة ظهرها للشارع والأبصار معلقة بالمناظر المرسومة على الحائط وبين لحظة وأخرى يتجاسر واحد ويندفع نحو شبك التذاكر وهناك يتكدس زحام الراغبين فى دخول السينما ..

شارع الخان زحام من الناس والبضائع وضجيج مكبرات الصوت ، الباعة يعملون بأيديهم وأفواههم ، كتلة من الأعصاب النهمة للحركة والصراخ ، تسلل بين الناس يميل بكتفه يمينا وشمالا متحاشيا الاصطدام الباعة على الجانبين يناوشون أطراف الحشد ويستميلون حواشيه الى الشراء لكن الكتلة المتدفقة بين الشاطئين تنساب كالنهر .

سوق النحاسين ، الدكاكين الفسيحة الأبهاء حيث تباع جهازات العرائس الدواليب ذات المرايا الكبيرة الصناديق المكسوة بالصفيح الملون .. صفوف الأوانى النحاسية البراقة المجلوة الحشايا والألحفة فى ألوان من الحرير تخطف الالباب .. وبائع جهاز العرائس واقف فى وسط الدكان يتسم فى فرح .. بائع الأفراح دائما رائق النظرة صافى الملامح .. يبارك ويخفض الأسعار بسخاء .. ولا يبقى له من ربح فى النهاية سوى معرفة الناس الطيبين ..

ابن الحاج كريم ، كيف تتزوج عروس فى الدنيا دون أن يكون حاضرا ، البائع واقف بين يديه وأهل العريس وأهل العروس متحلقين حوله .. والتاجر يقسم انه خاسر والحاج كريم يضحك .

- اللى عند الله مايروحش .. وبلاش القهوه ياسيندى .

كيف .. ؟ تأتي اكواب الشاى النحيلة الخصور ، ذات المقابض والحواف الذهبية مرصوة كالعرائس على صينية نحاسية رقيقة لامعة .. والبناات من اخوات العريس والعروس يسترن بالشيلاان

الوجه فما يبقين الا عيوننا تحديق فيما حولهن .. ماذا تجدن في
بنات المدينة يا خبيثات ..؟ يطرن في خوف ويشهقن متغامزات ..

ينحدر الشارع متقارب الجوانب رطب بما يرشه اصحاب
المتاجر امام ابواب دكاكينهم من ماء مبارك ، البيوت القديمة المدخنة
المشربيات من الخشب المشيك ، او الشرف الحديثة ، النسوة
السمينات العاريات السواعد ، الرجال في الجلابيب البيضاء
الخفيفة وجورنال الأهرام وكوب الشاي الثقيل انحرف الى شارع
سيدي مرزوق بدأت المقاهي تنشط بزبائن الريف ، والارائك
تصف على الرصيف في انتظار أفواجهم القادمة .. وعلى الارصفة
بدأت تنبت حلقات صغيرة في مركز كل واحدة امرأة سميحة ذات
اسنان ذهبية امامها الواور وعدة الشاي ودلاء ملء بالجوز ..
ضحكات قليلة ورشقات شاي وبعض انفاس حشيش .. اول
الفيث ..

على الجوانب تصعد السلالم الحجرية الى باحات مربعة تقوم
حولها البيوت وهذا هو البيت الذي ستكون فيه الخدمة ..
الواجهات شبابيك مليئة بنساء طنطاويات ، المرأة الطنطاوية
لا تبارح الشباك ابدا في القرية تنحدر من الشارع الى قعر الدار
عن طريق الباب وفي قيعان الدور تجد نساء كالبقر ، اما هنا
فهن يتصايحن على بعضهن ويضحكن ضحكات طويلة مغنجة ..
طواق الثياب منحسرة عن انصاف الأثداء الثقيلة في الثياب
الرقاق .. الشعور لامعة تحت الترايبع المنحسرة المصقولة
بالترتير ..

– تخان ياختى من اكل الفول ابوزيت ..

هذا ما تقوله رشيدة – يضحك عبد العزيز في نفسه –
وتجاوبها الحاجة شوق :

– وماهاش حاملين للدنيا هم ..

وتدخل احدى اخوات رشيدة :

– تيجى وحده منهم تخبز اردب ولا تصلح الزريبه تحت
البهايم ، اما نشوفها هتبقى تخن ايه ..

وتكايدها رشيدة :

– دا من نارك بتقولى كده .. عشان ناشفه على عودك .

عبد العزيز يضحك وهو يتأمل النساء الثقال في الشبابيك .

ويتذكر الحاج كريم صاعدا هذا السلم الحجري ويبدأ يستند
على عصاه ويضم عباته الى صدره ، ويجول بصره بين الشبابيك .

– نهاركو سعيد يا ستات ..

لا يقول لهن (عواف) هذه يقولها لنسوان البلد ، اما هنا فانه
يكتسب لسانا جديدا رقيقا زلقا .. وتجاوبت الشبابيك
بالضحكات تصايحن ببعضهن ..

– يوه .. ياختى دا بينهم جماعه موالديه .. هىء ..

هىء .. شى الله ياسيد ..

وهو واقف يتتسم فى طمأنينة حتى تسفر ضجة التصايح
عن جواب ..

– احنا موالديه ياستات .. دراويش السلطان .. عاوزنكم
تساعونا مدة المولد ..

فهنا فى هذا الشارع تستاجر البيوت للموالديه ، العايق
يتقلق فى مكانه بعوده الدقيق ينظر للنسوان فى نهم دون أن يتخلى
عن مقبض سلاله ..

لقد داروا فى الشوارع وقرعوا كثيرا من البيبان .. وأطلت
وجوه ريبانه ..

— احنا موالديه ياست ..

— أهلا وسهلا ياخويا والنبي كان على عيني .. اتفضلوا
استريحوا شويه ..

الرجال فى شغل النهار ، تفتح الحجرات المتممة الرطبة
المفروشة بالكنبات العربية الوثيرة ، ويجلس الحاج كريم والى
جواره العايق ، وتقدم القهوة ويدور الكلام ، الحاج كريم صناعته
الحديث الطيب ، والمرأة تستريح على وسادة الصوت الودود ، لم
تعد متوترة تدارى الانفراجة بين ثدييها الثقيلين الناصعين ولا تضم
ساعديها وتدارى بياضهما الرهيف بكفيها ، أصبحت طلقة تسمع
وترد ، وينتظم عقد الكلام ، الزمان والناس ، القرى والمدائن ،
ما المدينة الا شجرة جذورها فى الريف ، ومن يدرى ربما قرابة
أو نسب المؤمنون اخوة وكلنا لآدم ..

— والنبي كان على عيني .. دانتوا باين عليكم ناس طيبين ..
صحيح لم يستأجروا البيت لكن .. جبل الوداد قد اتصل وخلال
مدة المولد سيأتى العايق كل حين عليه جلباب خفيف وطاقيه
وشبشب يطرق الباب ..

— ياست أم فلان ..

وتبرز فى ثياب البيت المنحسرة عن كثير ، ويضحك العايق
ويكرحك ويحمر وجهه وتبدو أسنان أهلكتها الكيوف ..

— عاوزين الوابور بتاعكم ياستى ينوبكم ثواب ..

— من عيني .. سلم عالحج كثير . وقوله ست أم فلان بتقولك
افتكرها فى القراقيش والدقه ..

— حايشين لك منابك .. هجيبه بنفسى ..

ويوم استجار هذا البيت مال الحاج كريم على العايق ..
وقال له :

— البيت ده يبقى حلو قوى يا عايق .. الوسعه اللى قدامه
دى تساع الذكر فى الليلة الكبيرة ..

العايق يتقلق فى مكانه والحاج كريم ينتظر أن يسفر تصابح
النسوان عن جواب ..

— ياست أم طلعت .. ياست أم طلعت .. عندها شقتها
ياخويا دور أرضى .. وكانت ناويه تأجرها للموالديه ..

وخزجت أم طلعت للحاج كريم عيونها سوداء واسعة غريبة .

— أهلا وسهلا .. مدد ياسيد .. اتفضل يا حج .. والنبي
انت باين عليك طيب .. عليك القيمه ..

طلقة متدققة غريبة العيون (عليه القيمه) حقا ، والا ماذا
يسمى ذلك الذى يتيه فى جوانب جسده المكين وعيونه الراقئة
الفرحانة وثيابه المكوية وعمامته الناصعة المشرعة على جبينه
الأسمر مشى تحسس عصاه طريقه على بلاط الصالة فى حذر
مطمئن ..

— يا ستار ..

والعايق يضحك من وراءه ..

— ربنا يجعل لنا نصيب عندك ياست ..

وصورة الزوج — هو الآن فى الشغل — معلقة على الحائط فى
الصالة ، يدخلون الى حجرة يزحم نصفها سرير نظيف ناصع الملاءة
وسائده منقوشه ترى العين طراوتوها السخيه .. الوسائد وصدر
أم طلعت الثرى ونعومة البساطة والكنبة الوثيرة والعتمة والرطوبة

العذبة .. الغرفة مفعمة بالليوننة .. والحر في الشارع لافح
تأتى ام طلعت حامله صنيه الشاي الصفراء اللامعه وعليها
الاكواب الخضراء من الزجاج الرخيص ، والابريق .. ابريق الشاي
وضعت الصينية على نمرقة بينها وبين الحاج كريم ، على وجهها
غشاء رقيقا متوردا ، كيانا مفعما بالشقاوة ، وتشرق الابتسامة
فتضىء الخدود وقمم الوسائد والفرجة بين الشدين الناصعين
وعيون الحاج كريم ..

– ولك شيخ برضه
– طبعاً

– هـى .. هـى .. شيخكو له كرامات
والعايق يسرسب الكلام

– هوا فيه يا ست شيخ من غير كرامه

لكن الحاج كريم وقور مكين يفيم وجهه بسحابة عابرة من عبثها
بالشيخ وتخرج من عبوسه المفاجيء وترتبك وتشيح بوجهها
وتنقل الكوب الملىء بالشاي الساخن من يد الى يد ، وتكه صغيره
ينشرخ الكوب ويسيل الشاي فى يدها وعلى حجرها وتهب واقفه
مذعورة ويصيح العايق ..

– الله حى

ويقف فى وسط الحجره يتقافز ملتاعا والحاج كريم يهمهم فى
رجاء

– بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى
السماء وهو السميع العليم ..
وهى تولول فى صوت باك .

– يادى الحوسه . شيخكو خلقه ضيق قوى .. ايدى اتحرقت
خالص ..

ونعرض فى تردد يدها على الحاج كريم يتناولها فى كفه
الاسمر السمين

– سليمه انشاء الله .. ما فيش حاجه .. الشيخ بس حب
يقرصك فى ودك .

وأغمض عينيه وبدأ يرتل .

– (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا ..

ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا .. »
تحدرت رموشها على وسائد خدودها الوردية ، ونظر العايق اليها
وهو يلحق دون وعى اطراف ورقة البفرة يلفها حول حبة دخان
الفرط .. وتسلل الولد عبد العزيز الى حضن أم طلعت وقبلها فى
خدها .. أحبها كما لم يحب أمه ، وضمته هى الى صدرها ورأسها
منكسه .. وسرسب العايق كلاما كثيرا ..

– الطريق كله خير .. كلنا على باب الله .. مش باقى غير
الطيب .. لولا الطريق علينا .. بوس خالتك باوله .. وماله .. والله
الحاج كريم احسن راجل ، شى فى كرم ربنا .. قاللى يا عايق ايه
رايك فى البيت ده قلت له خش يا شيخ ربنا يفتحها فى وشك ..
كلنا دراويش السلطان ..

صوت العايق خلفه متهدجه للصمت المفعم ، ضم الحاج كريم
عباته الى صدره وقام متمهلا مستندا على عصا ثم خرج يذب
وئيدا على بلاط الصالة نحو باب الخروج .

النسوان يتضحكون فى الشبايك .

– هـى .. هـى .. هـى .. اهم يبقوا يفقروا قدامنا .. هـى ..
هـى .. وناكل عيش ودقة من بتاع الموالديه ..

يسمين الذكر (تفقيرا) يالهن عبد العزيز بيتسم جانلا بعينيه
بين الشبايك ياله من شارع شارع سيدى مرزوق .. من يومها

ثلاثة أحكمت عليها الرقابة ، على كل باب بضعة موظفين وشلة من العساكر ، آلة بشرية لبث الرعب فى الأرتال المنسابة ينقضون على الناس بلا رحمة كالحدادى ينهالون بالمصى كينفما انفق وتخلق كل هجمة حلقة من عيون مذعورة وصرخات عالية ويفلتون الى الناحية الأخرى مشتتون مشعتون طائرى الطوافى لتتجمع الزرافات مرة أخرى بعد الباب بقليل ، تلم نفسها وتلتقط انفاسها ، يضحكون للخلاص ثم ينطلقون الى الشوارع مفتوحين لتلقى المدينة بكاملها ..

— مدد يا سيد مدد .. جينا يا ابو فراج

صيححات قرحه وزغاريد نساء وحتى بكاء الاطفال يتحول الى شىء دهشى مبهور ..

تقدم عبد العزيز ويبدأ كل انتباهه فى عيونه واذنيه يده مشرعة باشتراك السكة الحديد دفعه الموظف الى الداخل والتفت لغيره تلقى الدفعة حاقدًا صموتا ومضى مائًا قلبه كبرياء وازدراء نحو المحطة .. وهناك أبصرهم فى الفناء الحاج كريم يتقدمهم ضامًا عباءته على صدره ومستندًا على عصاه .. وتلك المصفاة الرهيبة عند باب السور ..

مضى نحوهم ، العايق فى الخلفية يبهده السبت ، والعراقى الاطرش ، ما جدوى اللحية والعمامة الحمراء الآن ينظر حواليه بسرعة كعصفور مطارذ .. أحمد بدوى ومحمد كامل وعلى خليل والشركسى ، النجار وغيرهم كثير والنساء فى الخلفية ينظرون اليه بلهفة .. تقدم الى الحاج كريم وقبل يده فى حسان غريب كالخوف الذى يكاد يقتله .. والرجل يقبل ابنه فى جبينه ، رأى شيئًا منكسرا فى عيون أبيه ففز ذابحا احساسه تتلقفه صدور الرجال ، يضمونه بقوة رجل بعد رجل وهو غارق فى ود لم يجرب

لم يستأجر الحاج كريم غير هذا البيت .. أم طلعت امرأة طيبة بل ثمة قرابه بعيده ، الارحام ، بالقدرتها على وصل أحبال الموده بين الناس .. سيكون لهم فى المدينة بيت يملكونه يملأونه خبزًا وجبنة ، وقراقيشا .. سوف ينصب الزير فى الركن ، صنابير ..؟ من له صبر على سيل الماء من الصنابير .. انما الماء ان يغرف غرفا ويعب عبا ، سيمتلئ البيت بالرجال والنساء والاطفال من كل القرى .. يدخلون فيه ويخرجون منه .. الى اين ..؟ الى البيت من اين ..؟ من البيت ، الطنطاويون جيران لهم لا خوف بل سلام ومساء خير وصباح نور .. وكعوب الرجال لامعه فى الشباشب الخفيفه فلا تراب فى الشارع ولا وحل فى الحقل والعايق رسول الخدمة الى كل النساء «هات سكينه .. هات بصله» .. أبيض ناصع زلق هذا العايق ، من لهذه المراسيل غيره .. وسوف تكون النساء قراريات هامسات ، والرجال يتسسمون ويقولون نعم بحنان .. وحتى سوف يغسلون الاطباق بأنفسهم أحيانا ..

ربما كان هذا من عادات الطفولة التى بقيت معه ان يمشى شاردًا يقرأ اللافتات ويتفرج ويترك للشوارع ان تقوده دون ان يدرى بها .. هكذا كان يمشى وهو صغير يسلم يده لابيّه يتولى قياده سارحا يتفرج ، انتهى شارع سيد مرزوق الى شارع السكة الجديدة الى ميدان المحطة .. انقبض قلبه ، ادرك كل شىء فى لحظه ، نصو على الابواب من حيث يتدفق الريفيون القادمون من البلاد آلات العساكر الرهيبة على ظهور الخيل وعلى الاقدام فى ايديهم العصى وفى وجوههم الشراسة .. (كل هذا من أجل ان يتأكدوا من أن كل واحد يحمل تذكره .. يا الهى .. من يصدق هذا ..؟)

انقبض قلب عبد العزيز واخنتق حلقه ، تقدم ثابتا نحو المحطة السور العالى المحيط بالباحة امام المحطة اغلقت كل ابوابه ماعدا

فى حىاته أعمق منه ، هؤلاء الناس كان معهم بالأمس فى ردهة
الدوار تحت الفانوس .

– ازىك يا عبده ..

أحمد بدوى متوهج الوجه بالسرور قصير مكين الجسد دفاق
العاطفة .. يتسم على خليل فى تردد ، شاحب الوجه يحمل علامة
صلاة كبيرة فى وجهه ..

– أهلا وسهلا سى عبده

يحبس بهجته خلف سكينه وجهه الليمه ..

– الله يفتح عليك يابنى

محمد كامل عميق الصوت عميق الملامح عميق العيون ابتسامته
حزينه، حزنها جزء من تكوينها تشرق منه وتغرب فيه .. والعراقى
يتقافز كقرود فى يده سلة .. والعاقب يسرسب الكلام .

– دا خلق إيه .. أمم .. مدد يا سلطان آى نعم .. بس حتى
بدل القطر ما يدور يتطلع فى المحطات ، يجرى جرى يجيب من
الخلق دى كمان دور ولا اثنين .. انما تقول لمن ..؟! ..

وعيناه تظرفان ناحية البوابة ..

هؤلاء الرجال فى ثيابهم الرخيصة وطواقيمهم الصوفية الحمراء
ووجوههم النحيلة المدبوجة بالشمس المبقعة بسوء التغذية هؤلاء
الناس المستطارون خوفا هى اباء عبد العزيز قلبه وعيونه يتحلقون
حوله وينظرون له .. لكنه يتمنى لو كانوا أكثر نظافة أكثر جساره
ليسو هكذا فقراء جاهلين خائفين ، فى المدرسه يباهى بانه فلاح
أمام ابناء البندر يباهى بذلك بقوة ووضوح لكن شيئا فى داخله
ناقم ساخط ... لو كانوا غير ذلك ..

وكانما يحسون بما فى داخله من صراع نظروا له متوجسين
وتكلم أحمد بدوى .

– لوحد من زملائك يا سى عبد شافك مع ناس فلاحين زى
حالانا .. من باب الاستحراس برضه خليك بعيد عننا .. وآدى
أحنا شايفينك وانت شايفنا ..

عروا داخله بعيونهم الذكيه اكتسته لحظة خجل حاده كلذمة
برد ..

– ايه الكلام اللى بتقوله ده .. أنا ما بهمنيش حاجة .

ثم سرعه افكر فيما قاله ، فى رده اعتراف بحقيقة احساسه
نحوهم ، اراد أن يهتف قائلا « انتوا أحسن ناس فى الدنيا » لكنه
لم يفعل ربما شعر مقدما فيما سيكون فى قوله من خور وماسيكون
فى صوته من زيف لكن رده – على أى حال – بعث فى وجوههم
بعض السرور ، وعينا الحاج كريم تتأملان ابنه فى سكينه عاتبة ..
كلما التقت العيون تبعد بينهما المسافة . انه يحب اياه يحبهم جميعا
لكن .. ماذا يفعل ، لو كان يستطيع لو طالهم هذه المدينة لأبدلهم
ثيابا غير ثيابهم ، هم حوله ينظرون له كل فلاح يرسل ابنه الى
المدرسة ينظر له هذه النظرة المفعمة بالأمل والخوف لكنها
المدينة الكبيرة عبد العزيز يحب هذه المدينة ويحبهم أيضا لكنهم
ينظرون له هكذا ..

– ربنا يصلح حالك يا سى عبد .. وآدى احنا نبقى نمشى
ننز أكامنا على حسك ..

لكنه فى داخله لا يعتقد انه سيكون يوما شيئا خطيرا فى هذه
المدينة انه يحب ضجيجها ونظافتها وفتياتها يحب السينما والكتب
يفرق فيها ازمته يخضع لها ويسلمها قلبه بكل خلوص لم يرغب

ابدا في السيطرة عليها كل ما يريد ان تنفذ الى مسام تكوينه
وتستاصل ذلك الالم المعض الكامن فيها كالسرطان ..

انه يعرف كم هي قاسيه هذه المدينة يعرف هذا بخاصة حينما
يتأمل هؤلاء العساكر هذه الوجوه الريفية التي تصب غضبها على
الارتال من الريفيين - يعرف قسوة المدينة - لكنه يفض الطرف عنها
ويحاول ان ينساها لكن خاطرا يهاجمه بقسوة احيانا ترى هل
تشده هذه المدينة يوما حتى تحوله الى عسكري يحمل وجها ريفيا
وخيزرانه وسباب بلغه البندر .. بار ب كل شيء .. ياله من خاطر
مفزع ..

اشرع الحاج كريم عصاه الى الامام ، اشرع وجها حزينا وسار
عيناه البنية تطفو على تلك الالة العصبية الهائجة المنصوبة عند
البوابة يحاول ان يتحسسها نظراته دون ان يراها كالمجوسى المقبل
على اقتحام النار .. توقع للابداء وصبر على ما سيقع منه لا بد
من المكارة فى الطريق .. آه يا أبى .

الحاج كريم فى المقدمة والرجال وراه عيونهم تطرف فى
خوف لكنهم يمشون خطوهم ثابت قدما وصوت محمد كامل
العميق ..

- يارب يا ستار .. الهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك
ولا يرحمنا يارب العالمين ..

اختطف الرجل تذكرة الحاج كريم ودفعه فى كتفه .. ربما
كان الحاج كريم قد سار خطوة للامام فلم تصبه الدفعة ..
او ربما هى كرامة الاولياء .. الهم ان خطوة الاكيد لم يضطرب
تضامت الجماعة من خلفه وطاشت النظرات فى كل اتجاه واصفرت
الوجوه وارتفعت غابة صفيرة من الايدى جاملة التذاكر ومن
الايدى تختطفها ومن الايدى حامله العصى تريد ان تهوى بها

اضطربت الاجساد وتزاحمت مذعورة لاتدرى أين تهرب ، عبد
العزیز تجمله الوجه العشوائيه حتى خلصوا الى الناحية الأخرى
من السور حبات العرق تلمع على الجباه وتشرق الابتسامات
العراقى استخفه سرور مجنون .. كان الحاج كريم قد استدار
ووقف تجاههم ينتظرهم عيناه عليهم خارجين .. تبرقان برقا
خافتا كنجمة أخيره ..

الغضب يعصف بعبد العزيز والعرشه تهزه .. ادار وجهه
بعيدا جسده يفقد تناغمه مع كتلة الرجال ويتخذ لحركته مسارا
نافرا مترترا الرجال ينظرون اليه وهم يسوون جلاليتهم ويعدلون
طواقيتهم حيارى وخزيانين قليلا ..

- معلىش ياسى عبد العزيز .. احنا يا فلاحين كده .. مخلوقين
للهدله ..

والعايق يسرب الكلام السبب يملخ ذراعه من كتفه .

- لو كنا بنخدم غازيه كانت حفصت لنا كرامتنا شويه ..
مدد يا سيد .. آدى احنا جاين لك يا أقرع ..

والناس فى الميدان كانهم سرب كثيف من الحمام واقع على
حقل والعرياب الهادره تشق سبلها بينهم تتكون الدوامات
والتجمعات والتشققات بفعل الذعر والصوت الهادر ..

- يا ستار سترك .. ولاد كلب بتوع كبابه .. سواقين ولاد
قحبه يخرمو فى لحم طرى .. ما فيش حكومه .. يا جابه النبى .

عبد العزيز يود لو خنق هذا المافون المذعور كل يوم مسافر
الى مكان ما من انحاء الدنيا فى زيارة بنت من بناته اللائى يخدمن
فى بيوت البنادر وكل يوم يعود بحكايات وحكايات عن اسفاره ،
وها هو طائر اللب تتخاطفه ضجة العربات المارقة ..

ويكنسن مقامه بالطرح السوداء .. وربما كان عبد العال شيئاً مثل
العايق هكذا ولوعا بالنساء .. حتى بعد أن مات انغمس فى القضاء
بينهن وفض مشاكلهن ..

حينما كان عبد العزيز صغيراً معلقاً كالدمية فى يد ابيه يتطلع
الى وجوه الاخوان الخاشعين قبالة قبة السلطان .. ضغط
الحاج كريم على معصم ابنه .

– الصالحين يشوفوا القبه دى وبينهم وبينها بلاد وبلاد

وفى القريه يصعد عبد العزيز على السطوح محاولاً رؤية القبه
لو قد رآها مرة واحدة ..!! عيونه تتسكع بلا معنى حول القبه
والهلال ، ثمة خروق وتهتكات فى كساء القبة الذى كان أخضر يوماً
من الايام الاولاد الطنطاوية يمرقون بمجلاتهم كالسهام على رؤوسهم
الواح الارغفة أو فى ايديهم بوابير الجاز والكلوبات ..

– اوعى الجاز .. يا باب النفس يا سيد .. زوارك يا سيد
كل باف وأخوه ..

السياط تمزق الكبرياء الخاشع .. يود لو يشنق هؤلاء
الاوغاد ، الحاج كريم يلتفت نحو ابنه ربما كان يريد ان يقول له

– يا ولدى احنا محاسبى السلطان

لكنه لا يقول .. يشرع عصاه ووجهه ويمشى

ساروا فى شارع السكة الجديدة ، الدكاكين والدكك امامها
محملة بتلال الحمص النوافذ الزجاجيه مزدحمه بالحلوى بيضاء
وحمرء العلاقات محمله بلعب الاطفال وتبرق من وراء الواح الزجاج
الاساور والخواتم والاقراط بريق المعادن والوان قطع الزجاج تخطف
الابصار تتارجع مع الهواء شيلان البنات وملافح الرجال من الحرير
واولقطن ضجه الميكروفونات الملقه على الجانبيين ونشاط الباعه

جسد عبد العزيز متصلب من سورة غضبه يتخذ مساراً غير
متساق مع جماعة الرجال تباعد عنهم لكنهم ينظرون اليه بعيون
حذره الحاج كريم يسير بخطوه الوثيد كأنه سائر الى شرفة الدوار
لكن شيئاً فى تربع اكنافه .. انكسار .. ميل للانحناء .. لماذا
تحالفت المخاوف والغضب والمشاعر الغريبه على عبد العزيز فى
هذا اليوم .. ؟

اول شارع السكة الجديدة المنازل القديمه الفبراء على الجانبين
الظلل الممدودة على الدكاكين من الواجهة الى الواجهة ، سقفيه
كاملة من الخيش ، سرداب معتم قديم يدمت نظرات العيون فما
تستطلع المشهد البدوى الا بعد أن تهذا بلابلها بالرواء الطيب ..
الآن المقام .. عبد العزيز يعرف الريث فى خطوة ابيه عندما تتجلى
قبة السلطان ، يحزره قبل أن يقع ، وقلوب الرجال موصولة بقلب
الحاج كريم .. ذهلوا عن كل شئ وتعلقت الابصار بمشهد
البدوى .

اما عبد العزيز فهو وحيد بينهم ذرات الحديد جميعاً
افجذبت فى نظام نحو قطب المغناطيس اما هو فمن معدن غريب
غير متجانس ..

– السلام عليكم يا سيدى احمد يا بدوى .. السلام عليك
يا سلطان .

يهمس كأنما لصديق اوحشه

– جيتناك باحماننا يا جمل المحامل يا ابوفراج

لكنه لا يحى عبد العال ومجاهد الا متأخراً قبتاهما على جانبى
قبة السيد البدوى الحاج كريم لا يعنى بهما كثيراً ويضحك عبد
العزيز فى نفسه فان نساء قريته مشغوفان بعبد العال تستعين
به كل ضرة على ضرته وكل حماه على امرأة ابنها ينذر له الندور

الهائل فى العرض والاغراء .. ابتسامات ميكانيكية من وجوهه
عصبيه مجهده محمره يسيل منها العرق ونهر الفلاحين السائر
يتلفت فى حذر ..

الحاج كريم يتأمل ما حوله فى ابتهاج يدفع الاكتاف فى هواده
تلك هى طنطا المزينة الصخابه النظيفه القوية ..

- ياولاد .. عاوز اميل اسلم عالحاجة ..

وتضحك الوجوه ويترك العايق سلاله لمحمد كامل ويترك احمد
بدوى سلاله لامراته ، ويميلان مع الحاج كريم ويمضى الباقون الى
بيت الخدمه ..

الضحكه توشوش فى صدر عبد العزيز خطوات الحاج كريم
خفيفه نحو دكان تاجرة الخردوات .

- سلامو عليكم يا حاجه

تنهض من على مكتبها ضخمه لحيمه بيضاء تعضب المنديل
الاسود يشف عن نضاعة جبينها وتضحك عن صف من الاسنان
الذهبية ، بالجساره عيونها كيف يستطيع رجل أن يركبها ...؟
الحاج كريم فى جسده مروة غريبة ، يتفزز كجواد ، وهى تميد فى
ليونة ..

- سلامو عليكم يا حج كريم .. ما بيحبكش الا العزيز الفالى
يلوح بيديه كانه ممثل على خشبة مسرح

- آى والله .. شوفنا للسلطان جاينا على وشنا .

ويجلس قبالتها ، يدها بيضاء منمقة ومعصمها زاخر بالاساور
الذهبية والدكان رفوف مرصوصه مليئه بالوان الحلى والمناديل
وقنانى العطر .. وضحكات الحاجة المجلجلة العايق متوتر على
كرسيه مفتوح العيون تلعق شفثاه بلاوعى ورقة البقرة واحمدبدوى

يبتسم كطفل فرح كانما خرجت الابطال من كتب السيره وانتصبت
امامه يتبارزون ..

- تعالى يا حج كريم افتح لك دكان هنا جنبى

- التجارة مش شغلتي .. انا شغلتي الزراعه .. احرت ..
واروى .. الارض السوده اخضرها ..

وتفرق فى الضحك جرس ضحكتها ووسوسة الاساور ياما
عشقت يا عايق ابدأ ليس كهذه ، الحاج كريم فارس خيل وهذه
فرسه المدله .. النار العارمه فى قلب عبد العزيز لم تسقط عليه
من السماء تسلت من هذا الاب لا يكلمها كما يكلم النساء فى البلد
له معها لسان بندرى معوج ..

- هيا الفلاحين تتسكن يا حج كريم .. هنا الزينه والابهه

- تتسكن .. الفلاحين تتسكن .. البندر للزياره نزور ونرجعه
لارضنا ..

وجاء الولد خجولا يخبط صينيه بمعلقه الشاى جمع اكواب
المشاريب الفارغة ومضى ..

ومشى الحاج كريم فى شارع السكة الجديدة ووراء أصحابه
الثلاثة ثم انصرفوا جميعا الى شارع سيدى مرزوق ..

- نقول سلامو عليكم لحامولى يا رجاله

سكتو موافقين

من بعيد كان الحمولى يفرش الرده لكتاكتيت خضراء على الأرض
امام باب الدكان والحاج كريم ينظر اليه مبتسما ويتقدم نحوه ويبدأ
اقام الحمولى قامته ، طويلا نحيلاً متدلى الذراعين ضخم الكفين
يبربش عيوناً محمره الجفون .. ابصر الحاج كريم

— أهلا .. أهلا .. أهلا

وقامته تهتز على ايقاع الترحيب

— دا نور ايه ده .. دا نور ايه ده

— نورك يا حمولى .. السلام عليكم ورحمة الله

ويسلم على ضيوفه ويجرى يقلب صناديق زجاجات الكوكاكولا الخشبية ليهىء لهم مجلسا وتنهض امرأة الحمامولى قصيرة سمينه بيضاء عيونها هى الأخرى محمره ملتعبة الجفون ربما من كثرة ركوب الحمولى فوقها .. كانت قد اعدت من قدميها مجلسا لطفلها يخرب على الأرض فى استمتاع والأخر غير بعيد — يعجن التراب فى بوله ..

— يا تلتمت مرجبه .. رجالة السيد عليهم نور

أراح الحاج كريم ذقنه على عصاه .. وطفق يتأمل الحمولى الجالس أمامه يخبط ركبتيه بكفيه الكبيرتين ويحكى وهو ينصت له بكليته .. كان الحمولى فلاحا يعيش حياة الريف البائسه الكئيبه كم كوته الشمس الظهيره ومتمزق باطن كفه من القبض على يد الفاس كم عاش اياما على الخبز الجاف وجبن الجرار القديم كم اخلفته السنين وساء المحصول ومر العام يجرجر الايام ثقيلة فقيرة على صدره عاش حمولى حياة القرية حتى خنقه الضيق .. وذات يوم حمل امراته وبعاله الى طنطا .. كيف اجترا هذا الريفى على اقتحام المدينة .. لكن ها هو ذا له دكان وبعال يخربون على الاسفلت فى استمتاع عيونهم هاتان البورتان المحمرتان كاستنى حمامه قادران رغم هذا على أن تمكسا الاحساس بالانتصار امام هؤلاء الزائرين العابرين للمدينة ..

— القهوه يا بت

المرأة تطرف فى رضى .. وعبد العزيز متوجس من محنة القهوه

١٣٤

القادمه .. ستكون شابا وسيكون الشاى طعمه جاز او لبان ذكر او شىء من محتويات هذا الدكان القذر ..

الحاج كريم الأنوف الذى تصنع قهوته بحذر كالعبادة .

— بابا هو دا شاى يتشرب .. ؟

— معمول باخلاص يا بنى .. تتلحس الكبايه كمان

ويلم بدكان الحامولى كلما تعب من الخدمة ومن الوقوف على قدميه طول النهار يطعم الناس ويستقبل القادمين ويودع العائدين يقرب له صندوق الكوكاكولا ويجلس قبالة حمولى يخبط ركبتيه بكفيه الكبيرين ويحكى والحاج كريم ينصت باستمتاع والمرأة جالسه على الأرض تطرف عيونها فى رضى ..

شارع سيدى مرزوق مرة اخرى ، الجماعات حول صانعات الشاى على الأرصفة، المقاهى والناس، أصوات المذياع وميكروفونات تحمل اصوات المغنيين المشروحه وتشرها فى جو الشارع ، عشرات الريفيين — زحمو بالحياة الشارع الذى كان مواتا قبل يومين لقد بدأ المولد ..

الحاج كريم يتقدم عصاه تخبط الأرض فى وقع نشيط ..

— افراح السلطان يا ولاد

صعد الحاج كريم درجات السلم الحجرى وضعفوا وراءه ، وقف وسط الباحة التى تقوم البيوت القديمة العالية على اضلاعها الثلاثة مزدهمه بالطنطاويات ..

— نهاركو سعيد يا ستات

الزمن والغبار والوهن والتدانى خلفوا من هذه الواجهات العالية شيئا غاية فى التأثير ، جلايب النسوة الزاهية الالوان ، الترابيع ذات الترتر المعصوبة على شعور سوداء مفروقة لامعة بالدهان

١٣٥

الوجه المزهية بالفرح مربعات الشبابيك الزاخرة بالحياة متقاربة
على اللوحه المعتمه الحاج كريم ينقل بصره بين الشبابيك بأناة
والعائق قلق تستفزه فرحة تتوهج فى داخله وعبد العزيز يرقب
النحور والفرجات بين الانداء الصافية اللون فى شبق ، كم خلف
هذه الوجها من سراديب ، سلالم معتمة وغرف خلفية لا ترى
الضوء وهو يتسلل كالقط ويصطاد الفتيلت ، وفى لحظات ضبابيه
مرتجفه بالتوتر عميقة الى آخر كيانه خاطفه كالبرق يحظى بالقبيل
واللثام ويخرج الى هذه الباخه الى مهرجان الزحام والدفوف والعرق
والصياح ليفرق انفعاله فى الضجيج اللاغب ..

انهالت التحيات على الحاج كريم من الشبابيك

أهلا ياخويا .. والنبي ست أم طلعت مستنياكو مالصبح ..

يوه .. هى هى ..

والنبي ياختى عليهم نور .. ناس طيبين وبتوع ربنا ..

ويبتسم الحاج كريم فى رضى قرير

كل سنه وأنتم طيبين

غارق فى هذا الاهتمام الناعم .. ويستدير ليجد أم طلعت
واقفة عند الباب ، الذراع اللحيم تهدل قليلا ، لكن العيون هى
هى ، من يوم الفنجان المكسور وعبد العزيز لا ينسى .. استجمع
من غفلاتها صوراً لاندائها وبطنها وأوراها ، يراها فى نومه يعجز
عن انتزاعها من خياله .. مشى الحاج كريم نحوها ، دمه كأنثى ،
دمته فى كل ذرة من كيانه الناعم لينه فى عيونها لينه فى يدها التى
تمدها للمصافحه ، لينه فى رأسها الذى يميل كأنما يتقل على
رقبتها والحاج كريم روى الوجه بالابتسام تقبل يده ويقبل رأسها ،
عبد العزيز ليس حزينا لكنه رقيق طيب الى حد البكاء ..

طنطا نورت يا حج ..

– نوركم ياست .. نوركم والله

وتسير امامه فى ارجاء البيت الخالى تنقل قدميها الخمريتين
على البلاط المهشم وعصاه تنقر ارض الصالة هنا وهنا حيثما
تسير ..

– خليت لكم البيت .. لكن كل حاجه بتاعتكم .. أى فرش ..
كنبه .. مراتب أى حاجه بس أطلب يا حج ..

الرجل قائمون اطار من الابتسام حول لقاء أم طلعت والحاج
كريم وينظر لهم ويضحك فى وجوههم ..

– السلام عليكم

– عليكم السلام ورحمة الله

ويحل الصمت لثانية مفعمة .. ثم تنفجر ضحكات تلقائية ..
فيض من قلوب حافله بالرضى ..

ويخبط الحاج بعصاه على الأرض

– هيه

ويتنهذ محمد كامل

– خلاص وصلنا

وتغمض عيون الحاج كريم ويصبح وجهه شفيفا

– الحمد لله .. اللهم لاتقطع لنا عادة .. اللهم لاتحرمنا من
الوقوف على بابك .. يا سيدى أحمد يا بدوى .. احنا فى رحابك
يا سلطان

يقولون فى خفوت

– آمين

أم طلعت لا ترفع عيونها عن الحاج كريم ، تسأل فى خجل

- ما يلزمكوش حاجه .. أى حاجه

ويضحك لها الحاج كريم راضيا

- ربنا يجازيك خير .. ومايحرمناش منك

ثم لن يراها مرة أخرى الا يوم السفر يصافحها الحاج كريم وهو ماضى الى المحطه ..

فرش الحصر الأبيض على أرض الغرفة ، حيطان مبقة حائلة اللون، مسامير معلق فيها آيات قرآنية على ورق رخيص ، رسوم اطفال وصور لناس يقفون في بلاهة كأنهم محنطون .. خلع الرجال جلابيب السفر، بقى من بقى بالسروال الطويل حتى الكعب والصدار والطاقيه الصوفيه الحمراء وبقى من بقى - بجلبات خفيف ، خلع الحاج كريم عمامته، فرشوا لها جزءا من جريدة فى أرضية الشباك، خلع جلابيه الكشميرى الكبير وقفطانه الشامى وعلق الكل على مسمار فى الحائط لبس جلابيا كتانيا خفيفا كالتاوس اذا خلع عنه ريشه لكنه فى هذه الملابس بدأ بسطا طيبا اليفا تربع على الحصر وتربعوا حواليه خلع عبد العزيز بذلته وعلقها الى مسمار فى الحائط لبس جلابيا افرنكيا مخططا وضع كتبه بجوار عمامة أبيه وجلس معهم ..

فى الغرفة الأخرى النساء ربما تخفن الآن من الطرح والثياب السوداء وبقن بالملايس التحتيه الملونه وربما العيال حولهن يضحكن فى دهشه ومرح ولا بد أن سميرة جالسه بينهم تبتسم ستقضى أيام المولد هنا فى بيت الخدمه تكفى نفسها عناء السفر اليومى ومعاناة الزحام .. ستكون معه فى بيت واحد لمدة سبعة أيام .. لكنها لاتحرك فيه شيئا يحسن ناحيتها بفتور غريب ، ليس فيها حرافة بنات طنطا وتأثيرهن ، تجلس ساكنة هكذا واسعة العيون والبرود يضحف على قبله الى درجة الكراهيه .

من غد سوف يأتى الشيخ ورهطه سيخرجون لاستقبالهم على المحطه ويكون العناق والأشواق .

وهنا فى هذا المكان ستفرش الحشيه للشيخ ، وسوف يتخفف من عمامته الخضراء فتوضع فى الشباك بجوار عمامة الحاج كريم ، وسوف يكون الحديث ، منذ متى لم يلتقو ..؟ الضحك والحديث الطيب وفرحة اللقاء فى مدينة السلطان ..

وها هنا سيجلس المستكاوى وبجواره العايق ركة لركة وسوف يخرج من جيب صدره قطعة من الحشيش ويلقى بها فى حجر العايق الذى يضحك مبهورا يتلمظ .

- خد لف سيجارة ياوله ..

ويتلقف العايق قطعة الحشيش يقلبها بأصابعه الخبيرة ويكرم بالضحك ويقطع حسن أفندى وعلى خليل حديثهما الودود الهامس وينظران ناحية العايق ويقول حسن أفندى ..

لو تبطلوا الهباب ده .. ولو مدة المولد بس .. أكراما للسلطان

ويرد المستكاوى جهما

- أنا أكراما للسلطان مضيع فلوسى عالمذعوق .. لما ببقى مسطول بيتهيا لى أنه أجدع لى من أولياء الله ويكرم العايق بالضحك حتى تكاد تبرز عيناه .. ثم يقول وهو يضحك ..

- اسالوا الشيخ عباس حتى .

ويمد الشيخ عباس رقبة كرقبة الزرافه ويقول

- ما سمعناش حد من المتقدمين ولا من المتأخرين حرم الحشيش الخمر حرام صحيح .. أنما الحشيش .. نبات .. زى أى نبات ..

ويموت المستكاوى والعايق من الضحك ويصفر وجه على خليل
ويلوى حسن أفندى وجهه بعيد ويضحك أحمد بدوى كطفل ويبتسم
الشيخ والحاج كريم فى سكون وينطلق المستكاوى يحلف بإيمان
مغلظه

- والله العظيم لو أنا الملك لا عملك مفتى الديار المصريه ...
دانت ورده ياشيخ عباس

ويضيق العايق من ضحكه ويمد يده بسيجاره الحشيش للشيخ
عباس

- خد يا شيخ خد .. وقول لنا شوية فى مناقب الحشاشيين
لكن الحاج كريم لا يدع المساله تفلت منه يصفق بيده جادا
فيسكتون وبعد صلاة العشاء ستكون حضرة مباركه كل ليلة من
ليالى المولد حضره وذكر .. القلب يتخفف بالضحك لكن العوده
للجد محتومه ..

وأمام هذه الغرفه سيجلس صانع القهوة سيخلق لنفسه بقعة
ساكنة وسط الضجيج ، فى الليلة الكبيرة حينما يضر البيت زحاما
وطعاما وضجيجا يكون صانع القهوة ملجأ من يبحثون عن لحظة
سكون ، حالما تجلس يمد لك يده بالقهوة باسم طيب الوجه ..
وبجواره الشيخ سوف يجلس صانع الرقى ، تدخل المرأة على
الشيخ بطفلها فتشير له فيكتب حجبا ياخذه الشيخ بباركة ويعلقه
فى رقبة الطفل وعبد العزيز فى الركن يبتسم فى خبث ..

وسوف يكون للرجال فى بيتهم هذا مهمام توكل لكل واحد منهم
دائما دون اخلال ، سيتولى على خليل نقود المصاريف وسوف
تأتيه رشيدة .

- عاوزين بصل يابا على

- بايه .. بقرش

- لا مايكفيش .. بخمسة ساغ ..

- على مهلك شوية يا رشيدة .. هجيب لك بقرشين .. آهو
يبقى كفاية

ولا تعارضه رشيدة ، عليها أن تطبخ بما هو متاح ، وهى تعرف
أن الحاج كريم سيقول

- شوفى أبوكى على .. واللى يقوله اسمعيه

فتذهب الى المطبخ طائعه وهناك تنولى قيادة النساء تجلس فى
المطبخ المعتم حازمه والحلل الكبار على البوابير الصخابه والجو
مخنوق بالدخان ورائحة الطبخ ..

ويموت العايق لكن سيبقى فيه بعد الموت هوى التحرش بالنساء
كل آن يمر على المطبخ ..

- البوابير حلوه يا جماعه

- حلوين يابا محمد .. تسلم ايدك

والا فمرسال البيت هو الى كل النساء

- يا عايق .. روح لجيبه هات منها حصيرة ومخدتين

- على عينى ياعم

ثم ياتى يلقي حمله أحمر الوجه من المجهود

- بتسلم عليك كثير السلام .. هواها تشوفك وتظمن عليك

ويبتسم الحاج كريم فى حنان

- الله يجازيها خير

لكن الشركسى النجار سيحلب الماء صفيحة اثر صفيحة هذا
العمل يبعده عن الاحتكاك بالآخرين فانه عصاى سريع الغضب أما

محمد كامل وأحمد بدوى فهم عند ذراعى الحاج كريم وسط الناس
يبتسمون ويرحبون ويطعمون ويهيئون المجالس والمراقد .. الى أن
تصلى العشاء جماعه بعدها تقام حضرة المساء ..

بدأ العايق يلف لنفسه سيجاره اصابعه الناصعة الرقيقة تسوى
حبة الدخان فى ورقة البفرة ثم يعلق أطرافها بشفتيه ويجبکہما
بمهارة .. لكنه شارد اللب بعيدا عن الجالسین ..

– عاوز أقوم بقى ..

ويسأل أحمد بدوى مصطنعا براءة طفلية ..

– على فين ؟ ..

ويشوب صوت العايق قلق ..

– أصلح البواير ..

يتلفت حوالبه متشككا ويواصل حديثه ..

– أصلحهم الليلة وإحنا فاضين .. بكره مانضمنش ظروفنا

الرجال سارحون نظامنو فى مجلسهم يمدون أجسادا اتعبها
المشوار لكن أحمد بدوى يبتسم فى مكر .. وعبد العزيز يبادلہ
الابتسام يعلم سائر الرجال أن العايق ذاهب للقاء الجازيه،
حالما يصل الى طنطا تكون قد سبقته واقامت عند أقارب لها ، ويظل
يتحين كل فرصة للقاءها .. يبتسم عبد العزيز فى نفسه غريب
أمر هاتان المرأتان .. رويح والجازيه .. تتعاركان على العايق
ذلك الطفل النزق المدلل كل واحد منهن تريد أن تملكه لنفسها
وهو منقسم بينهما صباح اليوم أوصلته رويح الى المحطة وهنا
تتلقفه الجازيه يتأمل عبد العزيز وجهه المحمر بالأنفعال وتلملمه فى
مجلس ويبتسم لنفسه تدور على وجوه الرجال ابتسامات عارفه
ويكشر الشركسى التجار

– أقعد يا عايق ماتقباش ناقص ..

ويحمر وجه العايق ..

– دا شغلى وأنا عارفه ..

وابتسامة الحاج كريم أكثر تعباً ..

– الصباح رياح يا عايق .. النهار له عينين ..

لكن رغبة العايق فى الانطلاق لا تقاوم كطفل ضاق بالقعود فى

الدار ، أحمد بدوى يتدخل ضاحكا ..

– قلبه مش حيقعد فى بطنه الا اذا أصلح البواير .. سييوه

ويضحكون جميعا ويضك العراقى معهم بلا فهم وينفجر العايق

– البواير مالهاش أمان وأن وقفت كلكو حتقولو يا عايق

ويطرق الباب وتسمع منه ضجه وهيصه وضحكات عيال وصوت

طفله عابته ..

– والنبي ياعم تدينى قرقوشتين وحة دقة ..

ويجرى العايق ناحية الباب ويسمع صوته محاورا البنت الشقيه

– بالعجل جيتو تقولو دقه وقرقيش هو احتا لسه ارتاحنا

مالمشوار .. عالم نهابة ..

ويهش الصغار بعيدا يفرون من وجهه متصنعين الذعر زائطين

تاركين وراءهم الشتائم ..

– يا فلاحين يا بهاييم ..

– أمشى .. جك مشش فى ركبك صاف صايح ..

وتغميم الوجوه بسحابات معتمة من شتائم البنت ... صمت

يقطعه أحمد بدوى ..

- احنا بهاييم ياعم محمد يا كامل

وينكس الرجل وجهه مستنكرا السؤال فى حياء

- ربنا بيقول « ولقد كرمنا بنى آدم .. »

ويزداد وجه على خليل المرهف شحوبا

- لا حول ولا قوة الا بالله

ويغضب الشركسى النجار .

- بهاييم ازاي ياخى .

ويكن احمد بدوى سارحا ينتبع حكاية فى دماغه .

- مادام بنام مع البهايم فى حته .. ومن بدرى سوا فى الغيظ

فى الوحلة والتراب يبقى حكمننا حكم البهايم .

ويبتسم الرجال أو يمصصون الشفاه .

- كنت نوية راكب للقطار .. وقاعد قبالي واحد افندى والست

بتاعته .. اللفندى بيقول الفلاحين كلها خير ، قشطة وزبدة قلت

ياعم دا كلام .. دا حنا بنقضى السنة ناكل عيش وجينة وسريس ..

الست ميلت على اللفندى وقالت له « سريس يا حمدى .. دا اللي

بنرميه للوز .. اللي بيطلعوه من برسيم البهايم ..؟ » قلت لها

ايوه ياستى بناخده من قدام البهايم ونأكله احنا .. حكمننا

حكم البهايم .. !!

وكل الرجال ساكتون ، القهر يمشى فى عروق عبد العزيز

تفيليا كالزئبق ، هو يحب المدينة لماذا لاتحب المدينة آله ، القهر يكاد

يخنقه هؤلاء ناسه رغم كل شىء ، ذلك الذى يتوهج فى عيونهم ولا

ينظفء يحمله فى روحه :

- احنا احسن ناس فى الدنيا

وتلمع ابتسامات فى العيون وترف على اطراف الشفاه ربما لانه

يتكلم عنهم يضع نفسه بينهم ..

- ايوه احنا احسن ناس فى الدنيا ..

ويريحه قليلا هذا التباهى .

هاهم قد اقاموا بيتا فى المدينة سيفرضون انفسهم ..

وانفاسهم سيفرضون جرجرة نعالهم على هذه المدينة اسبوعا ،

استراح اذ يفكر هكذا وضحك على العايق ينفجر فى سيل من الكلام

مقلدا سيدة القطار ..

- « سريس يا حمدى » .. آى ياختى سريس .. مرة قحبه

.. تلاقى اشداقها محروقه من أكل البصل .. ومش عارفه السريس

.. فلاحه لب اللب .. بس تلاقى ربنا رزقها بواحد افندى الشمس

لظشاه .. خدها ورقاها ..

يتدخل النجار بطريقته العصبية ..

- بنى آدم لما ربنا بيكرمه .. ببقى جبار ..

ويعود طرق الباب وضحكات العيال والشتائم المقدعة ، عنف

الهجوم وقال العايق ..

- امشى يابت جك سلاية فى كوعك .. الله الواحد يجرجرهم

عالبندر ..

ويتذكر عبد العزيز عساكر الشرطه عند المحطه ويبتسم فى

مرارة .. العايق يروح ويجيء فى الشقه حببسا فجاه يجمع البوابير

ويمضى خارجا .. ويتبادل الرجال فيما بينهم تفاهما ويتنهى محمد

كامل ..

- كل ميسر لما خلق له ..

ويقول احمد بدوى مغفرا الموضوع ..

- ما فيش فيلم حلو كده فى السينما يا سى عبد العزيز

ويدور احمد بدوى بعينيه فى وجوه الرجال كانما يرى اثر
سؤاله عليهم أو كانما يرجو أن يتحسوا لاقتراحه ويتريث عند
الحاج كريم .

– ولا ايه يا عم الحاج

هاش ياسم يهز رأسه هزات رتيبه كانه على الأريكة فى صالة
الدوار يشرع فى حكاية وعبد العزيز يضحك فى نفسه تلك هى
ليلة السينما منذ ماوعت الذاكره مولد السيد البدوى والسفر
الى طنطا وتلك الليلة تكرر لمشاهدة رواية فى دار العرض
الوحيدى فى طنطا (سينما مصر) ومنذ ما وعى عبد العزيز والصور
فى ذهنه متخالطه امراه جميله الوجه تغنى حركة شفقتها تسبق
مخارج الحروف أو تتأخر عنها رجل قاسى له شوارب يصرخ
ويهدد شاب نحيل الوجه طويل السوالف تعذبه الوحده وقسوة
الناس ، والحاج كريم على مكانه من الأريكة يحكى والاخوان ساهمو
الوجوه فى ضوء الفانوس ويكون عبد العزيز قد رأى الرواية مع
ابيه لكنه يراها من جديد فى حكايته ينهر ربما أكثر من انبهار
الذين لم يشاهدوا الرواية اصلا ويعيش احدائها ويعايش
شخصياتها من جديد وهكذا فى كل مرة حكاية فى كل زيارة لطنطا
بعد قضاء الحاجات وزيارة السلطان يتطلع احمد بدوى الى الحاج
كريم ..

– الواحد نفسه هفاه عالسينما يا عم الحاج

وفى المساء فى مجتمع الاخوان يحكى الحاج كريم ويضحك
احمد بدوى مراقبا الحكاية اما عبد العزيز فان شيئاً ما غريب
يحيزه ، هؤلاء الناس يرون من الأشياء غير ما يرى أو أبعد
مما يرى ..

– لكن هيا حبته يا عم احمد يا بدوى

– لا يا سى عبد

ويتجاهم كاسيا وجهه قناع جد
– هيا ما حبتوش .. انما عاوز تاخده بعد ماصح وبقي كويس
ويختار عبد العزيز ويتنهد محمد كامل

– بن خولى الزراعه خش البرلمان .. سبحان الله

ويقول الحاج كريم باسلوب فخم

– يوسف وهبى راغل عظيم .. رواياته فى الصميم

ويقول احمد بدوى شامتا

– وبن باشا طلع خايب

ويضحك الرجال ويلح عبد العزيز

– بس بنت الباشا حبته فعلا

ويعاند احمد بدوى

– دى بنت كلب طمعت فيه بعد ماصح .. لو كان بيعزق بالفاس

كانت اتجوزته ؟

وينجح منطق احمد بدوى فى مجلس الرجال ويدهش
عبد العزيز بكيف يرون الأشياء هكذا .. انه يذهب الى طنطا كثيرا
لكنه يجلس معهم فى المساء اذ يؤوبون من زيارتها وينصت الى
حكاياتهم دهشا ، كيف راوا كل هذا كيف ملاتهم المدينة بكل
هذا الانفعال ..

يبتسم عبد العزيز ..

– فيه رواية حلوة فعلا ..

ويفرح احمد بدوى وابتسم على خليل فى رقة وعدوبه

ويوجه له عبد العزيز الكلام

– رواية محزنة ..

وتتوجه الوجوه كلها الى الحاج كريم ويضحك الرجل لهم

وهو يتهياً للنهوض .

– مادام كلكم عاوزين .. ما اجتمعت امتى على ضلال .

وطرفات العيال على الباب لا تؤرق سرورهم ، محمد كامل
يقول ..

- نفرج عن نفسنا شوية .. آهي عادة اتعودنا عليها .. ربنا
ما يقطع لناش عادة .. مدد ياسيدي احمد يابدوى ..

وعاون احمد بدوى الحاج كريم على النهوض

- مش جاي معانا يا سي عبد

- لا والله ياعم احمد شفت الفيلم ده مع اصحابي امبارح
ويقول على خليل مخافتنا

- ما تقطعش عادتك معانا ياسي عبد

ويخجل عبد العزيز لكنه لا يحب ان يرى فيلما راه بالامس ..
تلقت العراقى حوالياه دون ان يفهم شيئا اشار احمد بدوى لامراته
فخرجت تدارى نص وجهها بطرحتها خجلا انه يدلل امراته ذلك
الانسان الودود .. لكن صديقة الحزينة لا تاتى ..

خرج الحاج كريم وخرجوا وراه ، سمع عبد العزيز وقع
اقدامهم على السلم الحجرى ، نظر العراقى الى وجهه متسائلا ،
طفق يشير له شارحا تملل العراقى ودار فى البيت يهمهم بكلام
غير مفهوم ، وأخيرا دخل الغرفة طوى جلباته تحت رأسه ونام ،
نظر الشركسى النجار الى عبد العزيز ..

- ما تقعد ياسي عبد العزيز .. قلقان ليه

احسن عبد العزيز ان الشركسى النجار يريد ان يكلمه .. هذا
الرجل الذى لا يجد ناسا كثيرين لذه فى الاستماع له .. لكنه
يريد ان يتحدث الآن .. يريد ان يكلم عبد العزيز احسن عبد العزيز
بالرغبة فى ان يجلس وينصت اليه لكن طنطا كانت فى الخارج
اضواء النيون والبسات المقاهى ودكاكين الحلوى والمرطبات
الصغيرة .. ربما بعد ان يسكن البيت تاتى سميرة تساله ان
يشرح لها شيئا فيه حنين نحوها لكن عاديتها وسكونها يثيرانه ،
يريد شيئا آخر ان يفرق فى اضواء المدينة ..

الليلة الكبيرة

الكلوبات بإبرته وينزل من كلوب الى آخر ويدور في الصلاة يتلمص بين المتزاحمين غاضبا ..

- اسمعوا كده وصلوا عا النبي .. خلونا نشوف شغلنا

ويتأمل الكلوبات بجديه وقد تدفق منها الضوء والطنين وتفتحت عيونها في السقف على الاخر .

نبتت اللحيه في وجه محمد كامل الاسمر والعرق يسيل على وجهه المروق ضاحك العيون يسير في كل اتجاه متحررا من جلبابه، قميصه متسخ عند اكتافه وظهره مبلول بالعرق متحن ، في يديه حلة كبيرة يغرف الماء من الزير ويدلقه فيها ثم يسير بها ناحية المطبخ .. وعلى خليل يرص الاطباق في الشباك يحص عدد الملاعق ، معزول عن كل هذا الضجيج كأنما هو نحت ناقوس زجاجي حتى لا يفقد واحد منها .. جلبابه متسخ كأنه يعمل في سرجة ، العايق يصبح به ..

- تسلموني لصحن دى تمام زى ما سلمتها لكم تمام .. انسا شاحتها من كل ست صحن

صياح العايق لا يؤرق عكوفه على احصاء الاطباق الحاج كريم يصيح

- شوف شغلك يا عايق بلاش غلبه

احمد بدوى يضحك ويفرق في الضحك

- خايف على زعل الستات

الشركسى النجار يدخل من الباب حاملا دلاء الماء ويصرخ غاضبا - الزحمة على طرمبه الميه بضرب الخناق .. ينعل ابو دى بلد

يضحكون في سرور ، حتى فى صياحهم الغاضب انما هم يضحكون فى هذا الزحام الغريب يروحون ويجيئون بسهولة ..

اكداس من الاحدية والبلخ والشباشب والقباقيب ، شوهاء متقلصه الجلد متزاحمه متراكبه تتلوى ملامحها فى تعب متقوسه النعال ، اكداس بلا نظام وهو جالس القرفصاء - عبد العزيز - يحتضن ساقيه ويريح خده على ركبتيه ، البلاط ممتد تحت عشرات الاقدام التى تتحرك فى نشاط متحررة من اى مداس، أو فى اشكال غريبه من النعال البلاط ممتد تحت هذه الاقدام مكسسو بالتراب والدهن ، طراز اصيل من القذاره ، البلاطات متخلعه من الارضيه طافية تميد تحت دوس الاقدام ، رجا تحتها الان صراصير وخنافس تبرق عيونها فى الظلمه الحالكه وتتحرك شواربها فى تحسس خائف متربص .. متى تبدأ جولتها الليلية .. ؟ مملكتها تتعرض للغزو .. والاقدام تدوس ثقيله مصممه .. فى اقصى الصاله يقبع المرحاض بؤرة بلل وبتانه الريح تهب منه أرتال وئيده تفعم الرئه بالعفن يكاد يخنقه الريح العطن والانفاس والزحام والصياح .

الصاله مزدحمه كتف لكتف والحاج كريم وجهه لامع بالعرق وضوء الكلوب ، طاقيته الصوفيه الحمراء تقلصت حتى استقرت على مؤخرة رأسه طوق جلبابه متشنى الاطراف وسنخ عند اكتافه من العرق والغبار يخذب انفاسا من عقب سيجارة بين أصبعيه ، يتلفت هنا وهناك بسرعه ويصدر الاوامر .

- يا عايق .. الكلوبات نامت خالص يا عايق

وصيح العايق ملييا ، خلع جلبابه وبقي بسروال قصير ينكشف ساقيه المشعرين الأبيضين الوسخين ، يقفز فوق كرسى ويمالج

العراقى يتلفت بسرعة يريد ان ينطلق زاعقا بالمدد لكن الزحام والضجيج والانصراف التام عنه يخنقه يدور يتلفت متربصا منتظرا حزمة اهتمام حتى ينطلق ..

فى المطبخ البوابير واقفه واحدا وراء الاخر يحملون على رؤوسهم حلل الطبخ السوداء .. رائحة الطبخ والدسامه ، يكاد عبد العزيز ان يقىء ، البوابير تنز فى صبر كانما يقرأون دلائل الخيرات لكن بلا حياة ولانهم .. البوابير تحمل الحلل على رؤسها كانما اخترعت على شاكلة النساء السود فى القرية .. منحنيات على الحلل يكشفنها ويدسسن وجوههن فى البخار ، وتولج المغارف فى الحلل وتخرج وفيها المرق وقطع اللحم السوداء فى اطرافها براويز من الدهن .. العرفة المعتمه ، البوابير والسخونة وحركة النسوة الغامضة كأنهن يتحركن فى رحم ، امرأة محمد كامل التى طلقها فى العام الماضى تسبح فى بخار الطبخ الدسم ودخان المصاييح والبوابير لقد التاث عقلها قليلا، تلقى بالكلام وتصلى على النبى دون مناسبة وتنادى السلطان ، وامرأة احمد بدوى تقلب السائل فى الحلة وعينها على صديقة خائفة ورائية .. وامرأة الشركسى انترشت الارض واكبت بسكينها على البصل ودموعها سائلة من رذاذه .. وبنات الحاج كريم تخفى ابتساماتهن كثافة الدخان والبخار والعتامة

نظر عبد العزيز الى وجه رشيد المظل على الحلله والمحوط بالبخار ، لهذا جاءت من القرية لتبقى حبيسة المطبخ ثم الى القطار مباشرة هكذا كل سرورها .. ؟ التفتت ، همست له عيونها الذابلة همسا خونا دست المغرفة فى الحلة وخرجت بها عارضة عليه قطعة من اللحم مدهنة رفض مشمئزا اعادت القطعة الى الحلة بيد باكية .. النساء ينظرن اليها وهى لا تتكلم يتحرك جسمها وتلتفت فيفهمون ، حزم أشد من حزم أم عبد العزيز ، السخونة مفروشة

على أرض المطبخ ، سخونة مبلولة قدرة ، لا فسحة لسير أقدام النساء الحافية ، تشوى على الأرضية وهى مفروشة عليها فى صبر ، الدخان الأسود يصنع قبة فوق مشهد الحلل والنساء المضاء بضوء خافت وفى الحيطان مسامير معلق عليها قفف وأقفاص ، وحزم بصل وتوم ، الدخان يرتكز على الأشياء المعلقة بأقدام غير مرئية .

ظهر وجه الحاج كريم على باب المطبخ عرضت عليه رشيدة مغرفة طبخ ..

– دوق كده يابا .

– حلو قوى يابنتى .

صوته يسمع ولو كان يكلم نفسه .. عبد العزيز يعرف كيف يسرى صوته فى الجمع الحاشد ، الجالسون على الحصر فى الغرف تحت أضواء الكلوبات التى تون فى بلاده ، كل الأشداق الآن تتحلب الخمائر فى جدران المعدات تنشط نشاطا مريبا ، أيام الشقاء على مدار العام ، العناء تحت الشمس المحرقة ، الطعام الخشن لآيام طوال ، المعدات تتلوى فى انتظار شيء دسم ناعم طرى .

– أفتت يابا .. ؟

– فتى وكترى يابنتى .. احنا لنا غير الفتة .. حطو الصوانى تتفرع كلماته الى فروع تدق وتتكاثر حتى تملأ المطبخ تتحرك الأيدي تحت بصر رشيدة وتوضع الصوانى .. ولا تدرى كيف وجدوا لها مكانا .

وتزرع شبرا بعد شبر بأشكال من الأطباق وألوان من السوائل أحمر وأخضر وأبيض وعيون الدهن تسبح على وجه الأطباق .

الحاج كريم يتحاشى النظر الى عبد العزيز كذلك الاخوان الوجوه تبتسم ثم تقص الابتسامة قبل نهايتها .. الوجوه المدبوغة

- لا ٠٠ -

الغرف المفروشة بالحصر مكدسة بناس جالسين لكنهم قائمون في داخلهم مشرثيون متشدقون بلا قداسة ، المعدة محرقة التاريخ ، تاريخ هذه الكائنات التي ولدت في الوحل كميات من الهلام لزجة رجراجة ظلت ترتجف وتستطيل وتلتهم وتنتفخ وتختمر بلايين بلايين من الأفواه الميكروسكوبية ، ملحمة التهام شره بشع ذلك هو تاريخ البشر المخلوقات الهلامية التي ظلت تتخلق على مدى الحقب حتى صارت ناسا يتسمون لكنهم يحتفظون في داخلهم بهذه المعدات الوجوه المدبوجة الجلد مرايا تظهر التواء الأعضاء المؤلم ، زحام من الجوع المرصوص والكلمات المبتورة نهاياتها يتزاحمون بالأفخاذ وعلى الأبواب أكداس من الأحذية كأنها أطراف أجساد هؤلاء الجالسين بترت وألقيت في اهمال ٠٠

- الفتنة رئيسة النصبية ٠

- والرز شاويش الطعام ٠

- مدد يا سلطان ٠

سقيم ثقيل في داخله يتأمل وجوه غرفة الشيخ ، أكثر هرما وأكثر امتلاء ، صانع الرقى يبيع الحروف المقلوبة في وريقات هزيلة للمافونين الذين يحملون على الأذرع أطفالا معلولين ، ناعس العين يتفزز كل حين ليرى هل وصلت صينية الطعام ، يود لو يخنقه ، يخنقه بشال عمامة الشيخ عباس الكذاب ٠

- أتردوا ففي الثريد بركة ٠٠ هكذا علمنا الأوائل رضوان الله عليهم ٠٠ الفتنة مبروكة ٠٠

والمستكاوي ممتلىء جحظت عيونهم يسعل بلا انقطاع ويصق بلا انقطاع وبين سعلاته يسأل الشيخ عباس ٠

الجلد من وقدة الشمس في الحقول ، اذ ينتشرون على وجه الأرض يعملون فرادى متباعدين ، ها هم قد تسربوا من الطرق في تصميم وجاءوا زحاما رهيبا الى المدينة ٠٠ ها هم ، ماذا أتى بهم أى معنى لما يفعلون ؟ ٠

- كل سنة وانت طيب يا عم ٠

أصوات ضحكات وعبد العزيز يريد لو توقفوا ثانية واحدة وقالوا له كلاما يفهمه لكنهم يتجاوزونه ابتسامات مجزوة عند نهاياتها ، ويتجاوزونه ، وتتفجر ضحكات هنا وهناك كقطرات العرق على ظاهر اليد ساخنة ولزجة ، والأصداء تملأ المسافات البينية سرور ساخن لافح ٠

- مدد يا سلطان ٠

متواصلون بأسلاك كهربائية هؤلاء ، وهو في داخلهم قطعة عازلة ، لو يمسك أباه من ذراعيه ويوقفه ويسأله ٠٠

- ما معنى هذا ٠٠

لكن لا يوجد مكان خال على المسرح لمشهد كهذا الحركة الطاحنة تجرف كل شيء ٠

- من فاته اللحم يشرب مرق ٠

- كله في حب السلطان ٠

عبد العزيز يبحث عن بقعة هادئة في هذه الخلية ، صانع القهوة ٠٠ ؟ غارق في وش الوابور الذى أمامه عبد العزيز يتأمل اناء القهوة ويتصور انه مثله تماما داخله ملىء بشى أسود مر ، وجه صانع القهوة مضاء بظلال غريبة جلس بجواره للحظة ٠

- فنجان قهوة ٠٠ ؟

- مافيش حديث كده عن اللحمة أم صلصة يا شيخ عباس .
والشيخ بؤرة الزحام ، اله صغير ، الوسامة والطمأنينة والعبث
الرتيب بحجاب المسبحة ، الصفاء المتكىء على حشية ، سليل رسول
الله ، يتغل فى أفواه الأطفال ويمسح جباههم ، أى مهزلة ..

الكلوبات اقمار ساخنة تمد شوارب ملتبهة كصراير مضيئة
تنوش الوجوه ، الصور المعلقة فى مسامير الحيطان عيون باهتة
المقل تطل فى تساؤل أبله أخرس .. يتصور أنهم سوف يدقونه
بمسار فى الحائط ويرقصون تحته هذه الرقصة رقصة المضع
الهمجية ..

فى غرفة قصية كدس العيال والبنات ، يتعاشون بضحكون
يقرصون بعضهم بعضا .. وهى هناك ، سميرة ، نفس العينين ،
واسعة بنوع من السكون بارد مقيت .. ها هو قلبى حطى فيه
شيئا ما ، لكن سميرة تنظر له بعينين غير مدركتين كرهها بشدة ..
يود لو تذهب بعيدا بعيدا فانه يحس بالاختناق .

الجوابون ، انعطاط الجرياء الظهور الدائرة فى الريف ، اللحي
والشعور المرسله والعيون البراقة ، سراويل الحديد ، المسابح
الهائلة ، اشكال العمائم المزينة بكل شىء حتى بأخذية الأطفال
الصغيرة صنوف الهراوات والسيوف الخشبية يملكون ضحكات
كالخناجر ، سحن وأردية غريبة .. هذا هو الاجتماع العظيم
للجوابيين ، وجوه صنعت لتبث الخوف سفن خبيرة بشق الموج
ملاح تشق لنفسها سبلا بين المشاعر .

هذا هو .. رجل عبد العزيز السربل بالحديد الطائر بين
صفى الذاكرين كهريج يخرج عن نمه رغاء مقرفا .

- يا أهل الخدمة .. على باب الله .. فى حب السلطان .

ويقبل الحاج كريم عليه مرحبا باسطا ذراعيه .

- أهلا أهلا أهلا يا عمى .

ويحاول أن يأخذه الى الغرفة لكنه يرفض ويتخذ لنفسه مكانا
فى الركن .

- لقمتى وقهوتى وامشى .. ما أقدرش أقعد .. الدرج بتاعى
ماأسيبوش أبدا ..

وتوضع الصفحة امامه يلوث فمه ولحيته وثيابه .. ثم فنجال
القهوة المرثم يمضى متجشأ .

الصوانى قادمه ، لتخلى الافواه من كل شىء حتى الدعوات
الصالحات

- وسع يا جدع .. اوعى يا خويا .. حاسب ..

المعدات كائنات هلامية مقبلة من قاع التاريخ ، امبيات مصممة
فاتكه ميده لم تتطور منذ وجدت فقط نبت تحتها رجلان يحملانها
وبدأن يناولانها الطعام أغمض عبد العزيز عينيه واحس بذات الرجفه
التي أحسها فى ذلك الصباح المبكر حينما وقف حزينا وسط حقل
القطن ويده آلة الرش الهرمه يسمع قرص الديدان فى النورات
الفضه .. تأمل ذلك البساط البشرى القارض .

الديناصورات حكمت العالم مليون عام ، أجساد هائلة بامخاخ
صغيره وافواه قارضة يتزاحمون هكذا دون تدبير ، عبد العزيز يكاد
ييكى حزينا انه ابن هؤلاء المنقضون على الطعام فى بهيميه غريبه
يود أن يقف ويصرخ فيهم أن يكفوا وان يتعقلوا العالم يقسموه الى
مربعات صغيره ويتاملوه ذلك التزاحم الرهيب ينفى الفكر ، ينبذه
ويدوسه ..

بقايا السجارة فى يد الحاج كريم ملوث بالدهن يقف وسط الصالة يتأمل المأكلة الرهيبة فى فرح مبهم غريب ، نظر الى عبد العزيز ..

– أقعد كل ..

– ماليش نفس ..

– كل مع الناس ..

– لا ..

فهو ليس معهم أبدا بل يود لو وقف امامهم باسطة ذراعيه ليمنعهم ..

فرغت الاطباق على الصواني فتات الخبز وبقايا الطيخ والعظام اللامعه بقايا الموقه التلمظ والضحك وصحيات الانتصار .. ثم مدت الايدي وأحاطت بحافة الصينيه قبضة بجوار قبضة رفعت السواعد الصينيه لأعلى وانطلقت الحناجر معا فى كورس جماعى

اللهم هنى من اكل .. واخلف على من بذل
بسر النبي .. والفاتحه

ثم تقرأ الفاتحة بصوت عال مدو شبع متجشئ .. وفى المطبخ السنة النار تعلق قيعان الحلل السوداء والنساء قابعات فى الأركان كأنهن راقدات تحت هذا الصوت الوحشى فى استسلام .

انطلق عبد العزيز خارجا من باب بيت الخدمه .. البيوت القائمه على اضلاع الباحة منقطة بأضواء الشبايبك ضحكات النسوه وتناديهن فى العتمه هسهسه حليهن وذبول ضحكتهن المغناجه .. لمح طرف رداء الفتاه الطنطاويه التى يعرفها يبرق تحت شرخة ضوء تشق عتامة بئر السلم فى المنزل المقابل ..

البننت تتنفس فى الركن ، تنفسها المسموع يشده بقوة ذراعاها يتقدمان جسده كقرنى استشعار ، ارتطم كفاه بالحائط الخشن ضغط بجسده وسادة جسدها المكونة على الحائط ، دس فمه فى فمها المفتوح ، أسنانه تصطك بأسنانها ، شفتاها وسادتان من نار صغيرتان طريتان ترقصان فى فمه كأفعولين يمرغ وجهه فى وجهها وقد تلوثت الشفاه الاربع باللعب يكاد يقتلع شعرها من رأسها وهو يشدها اليه يريد ان يحتوى جسدها الخاطيء الساخن بالاثم .. لكنها انفلتت من تحت هاربه .

تبرطشت جبهته بالدم كانت قد ارتطمت بالحائط حين انفلتت الفتاه مسح الدم بكفه ، كفاه ايضا دميئا من خسونة الحائط .. عيناه اعتادتا الرؤيه فى الظلام .. هناك تحت السلم رجل وامرأة يشد شعرها ويدفن وجهه فى رقبته ، عبد العزيز يتأمل ذاهلا ، العايق والجازيه .. كنتم صرخه كادت تخرج من صدره قام العايق يسوى هدومه ، جرى قبل ان يدركه العايق يمارسون الجنس فى جماعه كقطع الارانب .. انطلق يجرى الى الباحة هسهسات الغوايش وذبول الضحكات وتنادى الطنطاويات من الشبايبك ، مربعات الضوء المعلقه على الحيطان فى العتمه ومن شباك بيت الخدمه يأتى ذلك الصوت .

اللهم هنى من اكل
واخلف على من بذل
سر النبي والفاتحه
بسم الله الرحمن الرحيم ..

أى زواج بين هسهسات الحلى المرتجفه والتنادى المغناج وهذا الزعيق .. قفز درجات السلم هاربا .. ومشى فى شارع سيدى مرزوق ، عشرات من بيوت الخدمه الشبايبك فى الأدوار الأرضية

مفتوحة على ردهات مزدحمة بالناس الوجوه والطواقى الأيدي
والاكتاف طقطقات التمطوق وصفق الملاعق فى الصحنون وضحكات
الأمعاء الفرحانة ..

مشى عبد العزيز مسرعا .. والأرصفة على الجانبين مزدحمة
بحلقات الجالسين حول نويات من نساء لحيمات ثقيلات المعاصم
بدمانج الذهب يضحكن عن اسنان ذهبية تاجرات الحشيش ، أمام
المرأة الوابور وعدة الشاى ودلاء الماء مليئة بالجوز .

الناس نهر يسيرين دفتى الشارع الآف الأقدام تصك الأسفلت
فى اضطراد ، حفيف مصمم عنيد يسير ثقيسل الوطاء بلا تردد
والوجوه مشقوقة بالضحكات .

– الى أين يا ناس .. يا قومي .. الى أين

كانما حيوان خرافى الحجم غريب الشكل يستطيل جسده فى
شوارع المدينة ، يسير لا يلوى على شىء ، واسع العيون بالبلاهة
لايسأل ، خواره يصدر من أعماق مجهولة يهز الأرجاء فى رتابة وهو
يمشى يسعى نحو هدف غير معروف ..

البيوت العالية على الجانبين واجهاتها معتمة تتقسمها مربعات
الشبابيك المضائة حيث تتكدس النساء .

الضحكات الناضجة بالجنس يود لو يعتصر الرقاب الناعمة حتى
الاختناق المدينة الماكرة الناعمة بالفنج والزواق ..

الشارع مسقوف بقبة من الغبار المضاء ، مشى ضائعا فى غابة
من الأجساد ، الرجال والنساء والعيال ، التجار على الجانبين
أذرعتهن ممدودة أمامهم على البنوك فى قنوط ، لا احد يشترى
فقط يمشون فى الشوارع وينظرون اشتروا أمس مساء ، وقد
يشترون غدا لكن تلك هى الليلة الكبيرة .. أسطح البضائع الملونة

اللامعة تناضل بآلاف العيون البراقة ضد ذرات التراب التى تتساقط
عليها فى اصرار والجمع يسح فى الشوارع كرزاذ لا ينقطع خفيف
الأقدام متصل بلا هواده .. وهو يمشى ..

دخل مع الجموع تحت قنطرة سمنود نفق طويل مظلم من فوقه
تمر القطر كالزلازل أصبح المسار ضيقا فتكاتف الزحام ، أولاد طنطا
يطلقون الصفافير .. فترن فى جنبات النفق تثرز ازيرا ، العساكر
على ظهور الخيل ينوشون أطراف الحشد بخيزرانات مذعوره ..
زلازل القطر العابرة .. لكن خفيف الأقدام لا ينقطع ، الحشد
السائر يملك جلال النهر لا تعوقه خبطات تهز سطحه .. انتهى النفق
ليبدأ مهرجان الضوء والغبار وضجيج الميكروفونات .. مساحات
شاسعة من الأرض الزراعية كانت مزوعة قمحا ، أخليت من أجل
المولد وامتلا الامداد الشاسع خياما .. كل شيخ طريقة نصب خيمه
لا تباعه وأقام على واجهتها لافتة كبير تحمل اسم الشيخ وطريقة
ومن أى القرى جاء ، وفى كل خيمة مقرئ أو مطرب أو قارئ سيرة
أو شاعر شعبي والميكروفونات المنصوبة على ظهور الخيام كأنها
خطباء خرافيون .. يتصايحون بأصوات هائلة فى البرية ..

دخل عبد العزيز الخيمة .. البنت واقفة على نصب عال وجهها
كقمر معتم ملفوف بطرحه بيضاء وأعضاء التخت جالسون عند
أقدامها والآلات تثرز فى أيديهم كذناير حمراء مسمومة ، شيوخ
يلعبون حواجبهم ووجوههم تضحك فى خبث ، عيونهم منفصلة
عن الأيدي التى تعبت بالآلات .. والبنت تغنى بصوت مبجوح
حزين .

– يا ظلمنى .

والحشود الواقفين أمامها يصرخون .

– آى والله .. يا ظلمنى .

الميكروفون يزعق يريد أن يمزق سحابة الغبار المضيء المحلقة
فى السماء .

- لو جتنى فى منامى يوم يا ظالمنى .

وصدرت عن الخلق الواقفين صيحات اعجاب مدوية .. والبنت
أغمضت عيونها فى استسلام ، ود عبد العزيز لو ينتزع ثوبها ،
يعرى نهودها يتشبث بخصلات شعرها وينظر فى عيونها بامعان ..
وقارئ السيرة مجنون على الدكة يرقص ويقفز يصارع خصما
وهميا .

السيف يقول للنبي ..

يا زين ودينى ..

وبلحم كافر يا زين ..

هيا غدينى ..

والحشود الجالسة أمامه على الأرض تتفزز من الجنون .

- آه يا نبي .. يا نبي ..

والمطرب الشعبى مفتون بذاته .. أمال طربوشه ووضع كفه
فى طوق جلبانه وهو يهز أكتافه تيهيا ..

عيون حبيبي عسل والكحل رباني

وآلاف الحناجر ..

- يا حبيبي .. الله يطول عمرك يا شيخ تانى ..

والرجل يميل رأسه محييا فى كبرياء ..

وسط حقل الخيام الشاسع يمر طريق كبير على جانبيه نصبت
السركتات والمراقص والملاهي ، النصابون ولاعبى الثلاث ورقات
والرجل العجيب الذى يدور بموتوسيكله الطائر داخل كرة هائلة

من الحديد ، العجل الذى له رأسان .. الرجل الذى بلا رأس على
الاطلاق .. الفتاة الكهربائية .. الست صفية الاسكندرانية
وفرقتها .. أحمد الكسار المنولوجست العجيب .. خيام هائلة من
الخيش والخشب ودكك عالية منصوب أمام هذه الخيام يعرض
عليها عينات مما يجرى فى الداخل الطبل والزمر والراقصات فى
الفساتين الصارخة الألوان والوجوه الغازقة فى الطلاء .. والمعلمة
السوداء اللحيمة جالسة الى بنك عال تصرف التذاكر وأمامها درج
متخم بالنقود تنظر الى فتاة واقفة أمامها تترقص ..

- اطلعي يابت فوق .. خدى خمسة وعشرين قرش أهم ..
جمعة مولد اكسبى لك قرشين .. اطلعي عالدكة هزى نفسك
ساعتين وخالصين ..

والنداءات تنصب على الناس من الميكروفونات ..

- حود يا راجل شوف يا جدد .. هنا مروض الوحوش
المرعب ..

الضجيج والمشاهد الصارخة تنجح فى اجتذاب أطراف الحشد
السائر ، يقفون أمام الدكة الشاهقة ينظرون ويتجمعون ويتجمعون
وتمتلئ بهم الخيام الضخمة وفى الداخل على خشبات هذه المسارح
تنقافز أمامهم هؤلاء الناس فى ملابس من كل شكل حركات زرية
ووجوه ممسوخة « وتخور » أسود جبانة كالبقر ويخرجون من هذه
الخيام قانطين ليواصلوا السير ، السير الذى لا يكف ولا ينقطع
والعساكر على ظهور جياد الحكومة أو راجلين يقفون على الجانبين
وجوه ريفية فى حلق من الكاكي كأنما يودون لو خلغوا هذه الثياب
وساروا مع الحشد لكنهم مشدودون بخيوط لاترى كالدمنى الى
خيمة القيادة .. ضباط مسنون جاهمون ينظرون يأسين الى
الكتل التى تستحيل السيطرة عليها ، قد تصدر الأوامر وتنهال

العصى ويصنع الذعر دوامات ، لكن الفتوق التي احدثت في ذلك الجسد الانساني تلتحم ويبقى العساكر مهتاجي الوجوه حائرون .. كيف يمكن السيطرة على مارد خرافي ممدد على الأرض يتلوى في حركة دودية ..

ومرة أخرى عبر النفق المظلم عائدا الى شارع السكة الجديدة ، موكب أبناء المحلة الكبيرة ، غابة من الكلوبات ، كلوبات هائلة الحجم يتفرع الواحد منها الى شعلتين أو ثلاث الرجال يحملون الكلوبات الضخمة ويسرون لا يلوون شيئا ولا يهتزون بالاذكار فقط يحملون هذه الكلوبات ويسرون ..

دخل وسطهم دون التفات ، وش الكلوبات والضوء الابيض الباهر والأجساد النحيلة في الجلايب الحريرية اللامعة والرؤوس في اللاسات التي تتدلى عذباتها وتسرح على الزهور .. عمال الغزل لا يخرجون بموكبهم في النهار ، يعملون في غمار معتمة بغبار القطن ومضأة ليلا ونهارا فهم لا يعرفون ضوء الشمس في وجوههم الشاحبة شراسة وتصميم ، ينفثون سجائر الحشيش ويخبون في الجلايب وسط غابة الكلوبات والطنين زحمت رائحة الحشيش خيشوم عبد العزيز .. رجلاه ثقيلتان مشى مسلما نفسه للاشياء تجاوزه الموكب ومشى أمامه كحزمة أثمار ساخنة وهو ينظر غارقا في الزحام حوله ..

لكنه غرق في موكب آخر ، صفان من الراقصين في يد كل طيلة صغيرة يجلبها بلسان جلدي ، أصوات حادة قاطعة على بحات صوت الراقصين المجنونة صفان من الفلاحين يرقصون بجنون صفان عرقانان والشيوخ راكب على فرس هزيلة ماكر الوجه يحوطه البيارق الشاهقة الملونة في أيدي الرجال .. الخبطات المسعورة في رأس عبد العزيز ، يكاد يقيء تعلقت ثمالات وعيه بذلك الشيخ المستعلى على الفرس المسكينة يا لله .. كأنما لكل كيان شامخ مطية ذليلة ،

هذه الفرس أو حمارة الواعظ المعجزة القميئة نفس العيون البهيمية الذليلة ، تكاد رأس عبد العزيز أن تنفجر ، وعيه يتخدر وينسحب مع هذا الصخب العارم السائر في المدينة ..

غدا صباح الجمعة زفة الخليفة اجتماع كل الخلق وكل البيارق وكل الطبول تندفق الجموع تحت الظهيرة وفي مقدمتها (الخليفة) يرتدى طيلصانة ويمسك عمامته بيده أن تطير ، يضيق شوارع السكة الجديدة المسقوف بالظلل بهذا الحشد تكاد البيوت أن تميد على الجانبين من الزحام والشبابيك والشرفات مثقلة بالنساء المتفرجات تلقين حبات الفراولة وحصى الملح، الخلق كأنه يوم القيامة الجسد الخرافي الممدد في المدينة يحرك عضلاته الهائلة ويمد خرطومه ليدهس في مقام السلطان ..

في الصدر، عند منتهى النهر البشري المتدفق مزروع الجنبات بمصابيح الكهرباء-وجه العروس الباهر الغارق في الزواق، عروس هذه الرغبة العارمة الممددة في شوارع المدينة .. دقات من جسد الريف الأسمر تندفع ارتالا متساوقة الى هذا القلب المضىء، تستطيع عين المؤمن أن تراه على بعد آلاف الفراسخ بهذه الكمية من الأضواء .. الريف الغارق في الظلام المشتاق لليل مضاء ، أى قلب ميكانيكى خرافي القوة يضع هذا البهاء على صدر المسجد الشامخ ..

انجذب بقوة خارقة الى مقام السلطان .. غارق في الضوء الأبيض تحوطه الحشود جالسون حوله من كل جانب في تراص لا يدع موقعا لقدم التصق بالنهر المتدفق ، اندفع مع الإرادة السائرة التي تصنعها آلاف الأجساد الماضية نحو مقام السلطان .. لكن تساؤلا قويا ملحاحا داخل عبد العزيز الى أين هو ذاهب ..؟ لماذا ..؟ أهى عيون الحاج كريم البنية المحلقة

بالشوق...؟ أهى التى خلقت فيه التوق لأن يرى مقام السلطان...؟
أهى التى خلقت فيه العجز عن أن يرفض رفضا تاما ويقف قائلا
(لا) حقيقة قوية وينطلق بعيدا عن هذا الجموع ..

انحشر الناس فى باب المسجد ، أيدى خدم المسجد تعمل
بالمقارع فى الناس .. الناس يتملصون وجوه متراصة ، وجوه ،
وجوه ، تكاد تلتصق الخدود والأنفاس والتأوهات والصرخات
لا يمكن أن يفلت ، الجمع يأخذه الى المقام .. الكتلة الزاخرة
بالقوة المترينة بفعل هذه القوة التى تحتويها وتكاد تنفجر بها لحد
باب المقصورة .. ومقام السلطان ..

كيان نحاس هائل لامع ، آلاف انعكاسات الضوء الساقط من
ثريات السقف تتحوى حول المقام كتلة الخلق ، آلاف القلوب آلاف
العيون آلاف التنهيدات والآهات وصرخات العذاب والهيام ، طاقات
الزهور المشنوقة على شبك النحاس خنقت رثات وريقاتها بالأنفاس
الزاحمة .. الناس متلاصقون تماما كأنهم كتلة لحم واحدة بالآلاف
الرؤوس تلتف حول المقام من شبك النحاس اللامع ، جسد واحد
يزخر بكل ما يزخر به الجسد من وسوسات غريبة يلتقطها جسد
عبد العزيز المرهف .. فذلك الضوء الباهر عاجز عن الفوص بين
الناس وخلق المسام بين كتل اللحم المتراصة .. هناك تقبع وتتحرك
وتتململ كدودة وسوسات وهمسات لا يمكن السيطرة عليها ..
تسمى وتتحسس وتلتحم وتفرق فى الإبهام
- مدد يا سلطان ..

هنا البؤرة المحمومة بأشواق تمتد فى دائرة قطرها عشرات
الأميال ، من هنا تخرج دقات الوجد تتفرغ وتنقسم وتدق تسبح
وتسرى وتمشى فى عروق الريف فى السكك والحارات ومن قيعان
البيوت فى المنادر المضاءة بالفوانيس ، عبد العزيز فى ذلك القرن
الساخن دائخ يكاد يقى .. جفونه ثقال الحاج كريم واقف فى ردهة

بيت الخدمة قرير السرور يشير فتنحرك الصوانى وينطلق طوفان
الشبق والتمطق اللند ..

خرج الجمع بعيد العزيز محمول على أكتاف قوية متزاحمة ،
طول عمره محمول على هذه الأكتاف تأخذه فى مسارها الذى تدقه
فى الأيام بملايين الأقدام المتشقة والأحذية المتهرثة عاجز تماما عن
المقاومة ..

أمام باب المقصورة نصب الذكر ، صفان لا آخر لهما المسجد كله
يهتز من جذوره من دق الأقدام وصوت بحات الحلق ، وقع مدوى
هادر ساخق لا يناقش ، لاتردد ازاءه ، يستلب كل رجوع مخالف ،
يطارد الهمسات والهسهسات بحات قلوب جاءت من أقطار الأرض
وتجمعت فى شلال هادر من الأصوات الانسانية يجتاح الصخور
ويحفر بيد فولاذية هائلة ..

الصفان يقفزان ويدقان الأرض بأقدامهما ، قلب طنطا ذبيح
تحت هذه الأقدام العريانة ، جسدها المصنوع من آلاف المنازل
القديمة والحارات المتوية والشوارع المزوقة ينسحق تحت الكيان
اللحمى المدمم ، لا مهرب من هذا الرعد الذى يمد أذرعته فى كل
الجنبات ويمشى فى أرجاء المسجد فى كل اتجاه .

بلاط الرخام مفروش بالناس جالسون جسد بجانب جسد
تنزع رجلك من بين جسدين لتحشرها بين جسدين آخرين وتظل
تخوض رمال الناس متجمعين دوائر حول وابور جاز يوش وانا
قهوه ضخم وقراقيش ودقه ورجال معمون بأشكال من العمائم
حمراء وخضراء وبيضاء ، يبذل الطعام والقهوة بسخاء ، ملايين الافواه
تأكل وتشرب وتدخن بلا انقطاع أشكال عن الوجوه تحت العمائم
الهائلة سراويل الحديد وسيوف الخشب والمسابع الكبيرة والصرخات

الحشيش تبرق في الاركان ، زار نوى الضربات يذبح القلوب ،
وعشرات القلوب تتقلم للذبح والبنت شاحبه تحت الطلاء الثقيل
الصناجات تطير في محبس صندوق الخيش كعصافير ، الترتير
والبرق على جبينها يخطف البصر ، ثنيات جسدها في ثوب الحرير
الأصفر ..

- مدد يا سلطان

خرج الى الحارات المعتمة الساكنة اطراف المدينة المظلمة التي
تقصر عنها وقدة الكهرباء المتلاثة في القلب ، الكلاب والومسات
ومخبرى البديس ، امتلا خيله بصورة الحاج كريم مشوق العينين
على الطريق الى المحطة ، تلك هي المدينة التي يطير نحوها قلب الحاج
كريم وعيونه البنية الهائمة ..

- أنت هناك

صيحة تسق الظلام كقرعة السوط ، تساؤل صارم قاطع
كالاتهام الحاسم الذي لا يدفع ، أحس - عبد العزيز بأحاساس
الفريسة يريد أن يهرب يلتئم بالجسد الهائل السائر باقدام ثقلا
ترج المدينة شوارب الصراصير المخبؤه تحت البلاطات رفعت رؤوسها
من العفن واقبلت عليه تهاجمه يكاد يختنق ابله زجاجي العينين
كالخروف الذي ذبح أمام باب الخدمة .. جرى بأسرع ما يستطيع
حتى لا تفترسه الخيزرانان المشرعة لأعلى جرى حتى انتفخ كبده
وعميت عيناه بالمجهود ..

بدأ يصعد درجات السلم الى الباحة أمام بيت الخدمة مهدهما
مسحوقا ، والحاج كريم واقف في الصدر عباءته سابعة على جسده
المكين .. يستند على عصاه وعيناه جليلتان بالصفاء والرضى وشفتهاه
تهينمان بالتراتيل المبهمة والرجال على الحصر مجهدون اثر جولات
الذكر في الليلة الكبيرة ، زحام هائل من الذاكرين المجهدين يمسخون

والتراتيل والادعية لكن بحة صوت صفى الذاكرين شاملة مسيطرة
شامخة فوق الرؤوس .. وعبد العزيز يبذل كل ما في طوق اراده
انسانيه لكي ينفصل ويعلو ويقول (لا) لكن لا جدوى ..

مقرعة خفيفة على كتفه ، ضربه هيئه ، التفت ليجد ازامه وجها
مشرئب الأنف لامع العينين يضحك في تحد ساخر شامخ حنون ويمد
يده بحركة مسرحية ..

- ولع لي

لم يكن معه سيجارة ليشعلها ناوله عبد العزيز سيجارته كالمنوم
ضحك الرجل منتصرا ضحكه تدعو قلب عبد العزيز ليحلق
- الله يولع قلبك بمحبة السلطان

وانطلق ضحكه مجلجلا وهو يشق طريقه بين الجموع وعبد
العزيز يتأمل اكتافه التي تساق حركة اقدامه الماهره الخفيفه حتى
غاب ..

تذكر سميرة بقوة رنت في داخله ضحكتها الرائفة النقيه
وثناياها اللامعه الصحيحه وعيونها المشرقة دائما .. لكن قلبه ثقيل ..
مشى خارجا من المسجد دلف الى الشارع من باب جانبي ..

حتى في الحوارى الضيقة المظلمة كان يرى اشباح الريفيين ،
يسرحون في دورة المدينة الدموية حتى الشعيرات الدقيقة وحلمات
الأعصاب ، الريف آلاف لف الأزرع حول جسد المدينة واحتضنه
وسرب انفاسه الى رثتها في لثم متواصل اكيد .. مشى .. مشى ..

في الاركان المعتمة نصبت اخبية الخيش، صناديق يتفجر الضوء
من خروقتها ايضا باهرا ، في الداخل يتكدس الريفيون وينحس
ضوء الكلوبات الباهر والدفوف والطبول والسباسب اكواب الشاي
السوداء عواصف دخان الجوز تنطلق من بين الشفاء ، عيون تجار

المرق في المناديل وذبول الجلايب صوت محمد كامل يجلبلج يقترح
الفواتح للاخوان والصحاب والشبابيك مزدحمة بالنساء المتفرجات
وضحكتهن الطائره .. وجاءت الصواني محملة باكواب القرفة
الصغيرة ودارت على الناس ودار السرور والزياط .

والحاج كريم واقف في مكانه شامخا يتأمل ما حوله في سرور،
عبد العزيز يتطلع الى ابيه لكنه لا يدري لماذا يذكره مكان الحاج
كريم بموقف عنتره العبسي في كتب السيرة اذ نصب جدته الميت
على فرسة قبالة الاعداء ، فظل هيكله المنصوب يلقي الرعب في
قلوبهم اياما .. حتى استفتزت الفرس وقفزت وانهار الهيكل
الجليل ..

رجال الخدمة كلهم يتكلمون في نفس واحد ويضحكون الكل
متكلم ومستمتع وضاحك في نفس واحد والشيخ جالس على حشيشته
يبتسم في رضى صانع القهوة يسلم سمعه لوش الوابور العايق
يكرحك بالضحك ويكشف من اسنان اهلكتها الكيوف والعراقي
يتلفت حوالياه ويضحك بلا معنى واحمد بدوى يسأله عما يضحكه
ويشتمه ومحمد كامل يبتسم في رضى ..

والنسوة بجوار البوابير الهامدة والحلل الفارغة رشيدته تبتسم
وتحكى عن الطبخ وكيف شرب هؤلاء الناس ترعة من الملوخية وامرأة
محمد كامل أو مطلقه محمد كامل واسعة العيون بنوع من البله
لا تكف عن الثرثرة بالوان التسابيح والصلوات على النبي .

وفي الغرفة الأخرى العيال والبسات و « سمره » بينهم
ضاحكة تعابت البسات الربفيات وتضحك من قلة معرفتهن ..

والحاج كريم جالس على خشبة وسط الصالة وحوله الناس

- كل سنة وأنتم طيبين ياولاد

فرح طيب دمت وهم يحيطونه باطار الابتسام والوجوه القريرة
.. لكن كيف ينامون هذه الليلة ..

- حصر الصيف واسع ياولاد .. كل واحد يعيل مطرحة

هو أيضا سينام حيث ينتهي به المكان يطوى ذراعه تحت راسه
وينام عبد العزيز يتأمله وهو يجذب آخر أنفاس سيجارته .

ودون مقدمات حتى أحد الناس عبد العزيز من ركن قصي
- كل سنة وانت طيب يا سى عبد لعزيز

وعبد العزيز لا يعرف ما الذي فجر في صدره سخطا عارما
مفاجئا ، ربما أرتال الرائحة النتنة من المرحاض ربما جموع
الحشرات وقد بدأت تشرئب شواربها من الشقوق بعد أن هدأت
حركة الناس لم يكن يدري سر سورته المفاجئه لكنه أحكم السيطرة
.. على نفسه متصابرا وصوت الرجل يسر سب الكلام كالنعيق ..

- كل سنة وانت طيب ياسى عبد العزيز .. المولد السنه دى
كان ماشاء الله .. حاجه عمرها ما حصلت .. مدد يا سلطان ..
والخلق ايه أمم .. أمم

لم يعرف عبد العزيز كيف انفجر ، لكنه كان أعمى بغضب
.. عارم ..

- أمم من غير عقل .. من غير تفكير .. أمم بتدوس زى البهايم
.. مش عارفين رايعين فين .. مش عارفين جاين منين ..

كل كيانه يصرخ صرخات ترن في بيت الخدمه شدهت الوجوه
خرست كل الألسنة تعلقت به الابصار والأفواه مقفوره وفي
العيون ذلك الذعر الذى تصنعه كلمات الواعظ حين يصرخ في
الناس ، انتابه الخوف وبردت اطرافه لكنه استمر فى الصراخ ..

وعيون محمد كامل تسبح بالدموع .. يرفع يديه ومن خلال
دموعه ..

– الفاتحه يا رجاله .. الفاتحه ان ربنا يهدى عبد العزيز ابننا
ويبعد عنه الشياطين ..

اغمضت العيون وبدأت هسهسه القراءة ، الحاج كريم يقرأ
رافعا يديه في ابتهاج ، انهمرت دموع عبد العزيز بلا حساب مشى
يجرجر نفسه مبتعدا ..

بدأوا يتساقطون يفرش كل واحد لفاعه ويطوى ساعده تحت
راسه وينام رجال ونساء واطفال بلا تمييز وبدأت الضجة تخبو
رويدا رويدا .. عيون قليلة ساهرة وثمالات احاديث متباعدة في
الأركان والحاج كريم يدور بسوى مراقد النائمين ويقضى الحاجات
ويرشد السائل ثم يجلس متهاككا يمتص آخر انفاس سيجارته ..

دخل عبد العزيز غرفة العيال، ابعده جسدين ونام بينهما ، طوى
ساعده وأراح رأسه .. ثمالات الحديد في أرجاء بيت الخدمه حزينه،
لانوم .. دموعه تسح .. تساقطت الكلوبات واحدا وراء الآخر حتى
ساد الظلام انفاس الخلق الرتيبه دبب حشرات الليل .. وهولا ينام
كأنما هذه الحشرات تمشي داخل دماغه لا نهايه لهذا العذاب لا نوم
مع الوخزات في داخله ، جسده مجهد لكن رأسه يقظه بشكل
كامل .

بدأت الغرفة تستضيء بضوء باهت خابى ياتى من شقوق
الشباك رأى وجه سميرة بجوار وجهه ، تبتسم في نومها . حلوة ،
طفلية الوجه ، احبها من شفاف قلبه ، تحدرت دموعه ساخنة ،
قلبا بشفتين مرتجفتين ، قلبها في فمها ، أنفاسها رتيبه ساجيه ،
تأمل صفاء وجهها ، .. لقد عرت نفسها من حرارة الغرفة أول مره
يرى جسدها عاريا هكذا ، خمري ساج اللون في هذا الضوء

– بتعملوا ايه .. رايعين فين .. جاينين منين .. يا عباد
الأصنام

ارتجف صوته لكن بقوه خارقه منح دموعه من الانهمار وجه
الحاج كريم قائم السمره ينظر اليه بثبات ويتكلم بقوة عارمة .

– ناسك .. أهلك .. بهائم يا عبد العزيز .. خلق الله اللى
جايه من آخر الدنيا فرحانه .. خطوتهم ينهز لها العرش .. يا جاهل
.. وسع من طريقنا .. ابعده عننا يا بولباس نجس .. ابعده
لا تدوسك الرجلين وتسويك بالأرض يا كافر ..

انتهى عبد العزيز تماما كأنما هو راقد وملايين الأقدام تدوس
صدره ووجهه وتسحق مخه واحشاه وتخلطها بالتراب ، هو ميت
قاعد .. وصوت الحاج كريم متهدج الى درجة البكاء ..

– عباد اصنام .. ؟ !! الله يلعنك .. احنا قلوبنا مليانه بمحبة
أولياء الله ..

وانتشرت الهمهمات ومصمصات الشفاء في الأركان

– لا حول ولا قوة الا بالله

– اسكت يا حج كريم .. اسكت

– استغفر الله يا راجل .. ما تلعنش ابنك

– لا اله الا الله .. لعنة الوالد وحشه .. غضب الوالدين من

غضب الله ..

– ساعة غضب .. اللهم لا تسمع

– ولد طيب .. لكن الشيطان شاطر

وعلى خليل في الركن القصي أصفر كالموتى والعمايق ذليل

الوجه ككلب واحمد بدوى ينظر الى عبد العزيز دون تصديق ..

الكأبي ، جسده متميز ممتلئ متناسق رقيق ، ضمها اليه
طاوعه جسدها النائم ، وضع رأسها على ذراعه وضمها اليه أكثر ،
ملتصقة به تماما بشغف عميق مد كفه تحسس بطنها العسارى
طرى ناعم دقات قلبه تسرع قرب وجهه من وجهها ليقبلها ، ثم فجأة
فتح عينيه كانت تنظر اليه بثبات والدموع تنهمر من عيونها ..
انتهى كل شيء .. سقطت يده ، تحول الى لوح ثلج ، قام متناقلا ينقل
رجليه بين الاجساد النائمة حتى خرج من باب بيت الخدمة ، رؤوس
تفزح تنهض تنظر اليه بعيون مستفهمه يتجاهلها فتعود الى النوم ..
الشارع ناعس مصابيح متباعدة مومسات يتمسكن في الأركان مخبرو
بوليس يسيرون بنشاط كنسمات فجائية عساكر الدرك يتمشون
في عناء ..

وفجأ اندفع سكير طويل متقوس يسير متخبطا ويصرخ بأعلى
صوته

- يا داهيه دقى .. حوشونى يا خلق هوه

وخلفه بضعة عيال مشعتى الشعوى يلبسون اثملا غريبة ،
لصوص وجامعو اعقاب سجائر يطاردونه بالحجارة تتساقط عليه
كالطر .. وهو يصرخ مستغيثا بأعلى صوته فى لمحات انقض عليه
المخبرون والعساكر بالعصى وكعوب البنادق حتى سقط فى مكانه .

الوداع

المادة لا تغني ولا تخلق من عدم لكن اذا مات الحاج كريم فانه
سوف يفنى فانه ليس حالة من حالات المادة انه جوهر فرد ،
انه الحاج كريم . عبد العزيز يحبه كما لم يحبه ابدا .

لكنه يا للأسى ، الحقيقة العلمية خالية من الشعر ، بسيطة
وقاسية عرف عبد العزيز كثيرا .. تعذب أكثر ليؤمن بما يعرف
لكنه لا يستطيع أن يجلس على الدكة في ردهة الدوار وحوله الرجال
منصتون .. وجوههم مضاءة بضوء الفانوس وهو يصفق باطن قدمه
ببساطة كفه ، يحكى والرجال حوله مشدوهون .

فرغ الحاج كريم من فنجال القهوة وما عاد الا السلام والوداع
- ابقى تعالى يا حاج كريم .. كل ما تزور السلطان ميل على
- ان كان في العمر بقية يا حبيبه
- لو كان بايدي كنت جيت لك كل يوم
- طول عمرك وداده يا حبيبه

كان الحاج كريم حكى لعبد العزيز كيف كان طفلا صغيرا يجلس
خائفا على مصطبة الكتاب يتلو قصار السور مع كورس الاطفال
الخائفين من عصا الشيخ الطائفة في الهواء الواقعة على اجسادهم
تستحشهم على مزيد من الصراخ .. وحكى ان عينيه دائما كانت
على باب الكتاب تترقب مجيء حبيبه ابنة خالته ، تأتيه كل يوم
في جلبابها الموردة وشالها الأزرق والصرّة الصغيرة في يدها ،
تستأذن الشيخ وتأخذ كريما في ناحية ، تفرد صرة الطعام امامه
تطعمه وتذهب خوفه ، تحادثه قليلا ثم تتركه راجعة ..

كانت تأتيه كل يوم الى ان زوجها ، ويوم زواجها راح الى
هناك ، احتضنته الى صدرها وهي في ثياب العرس ، لازال
يحس حريرها على وجهه ، بكت وضمته الى صدرها ، انفلت من
ذراعها مخنوقا بالدموع وعاد الى قريته ، الى دار ابيه دار كبيرة

أصبح الشرود جزءا من طبيعة عبد العزيز ، ينزل عما حوله
يفرق في تصوراته ، لكنه يفيق كل آن على حديث أبيه مع ابنة
خالته حبيبه .

- سوق اتنصب .. اللي كسب كسب .. واللي خسر خسر ..
ربنا يطلعنا منها على خير .
- بدرى يا حج كريم
- جوار ربنا أحسن يا حبيبه
- بس الفراق صعب

الموت هو النتيجة النهائية للصراع بين عوامل البقاء وعوامل
الفناء .. حقيقة صغيرة وثابتة واكيدة .. فلماذا الالم ؟ لازال في
صدر عبد العزيز قلب ذلك الطفل الصغير الخائف والعيال متكومون
على ظهر القرن حول اختهم الكبيرة والمصباح عين ساجية مرسومة
على الحائط وكلاب القرية جميعها تقيم مناخة هائلة في جوف الليل
وتقول الأخت الكبيرة هامسة

- الكلاب ماسكة .. لازم حد حيموت الليله دي
فان عزرائيل اذا الم بالقرية لا يراه الأدميون وما تبصره الاعيون
الحيوانات .. وبيتسم عبد العزيز للذكريات القديمة

الحاج كريم يتأمل ما حوله بامعان شديد ، الكنبات التي بليت
أكسيتها ، البساط الباهت ، الآية القرآنية .. ينظر للأشياء
في الحجرة القديمة محققا كأنما يراها للمرة الأخيرة ..

مأجحة بالعيال والنساء والبهائم لا يالف فيها أحدا ولا يأبه له فيها أحد .. ماتت أمه يوم ولادته .

هكذا تكون الزيارة ، قصيرة دائما لكنها أبدا مشحونة ، نزلا على السلم المعتم المتاكل الدرجات يستندان على السياج ، لحبيبه هذا البيت القديم فى طنطا ، ولها اولاد كبار يطيفون بها أحيانا للزيارة والسلام .. عبد العزيز يسند الحاج كريم من تحت ابطه كم سعد هذا السلم جريا وهو بعد صبي وكم سار خلف ابيه مؤدبا والاب يدك الدرجات بخطوة المكين .

فى ضوء الشارع ابصر عبد العزيز وجه ابيه مذبوحا بخطين من الدموع خجل الرجل لما احس بنظرات عبد العزيز ، مسح دموعه بكفه وشفتاه ترتجفان بما يشبه الابتسام .

- أنا بعيط يا بنى زى العيال الصغيرة

أرضع كريم الصغير من اثناء نساء كثيرات لكن لبان الغريبات لا تبل حرقة الرضيع ربما كان يبكى حرقة التي لم تبل أبدا .. ربما كان يبكى العبرات التي كتتها يوم عرس حبيبه .. لكن عبد العزيز يحبه كما لم يحبه أبدا ..

مشيا يصعدان فى حارة رطبة ، يتجنبان الحفر التي تكونت امام البيوت من القاء الماء القذر اصول الجدران متآكلة تماما حتى لتكاد البيوت ان تسقط من علوها ، لكنها هكذا دائما ، تبهظ القلوب باحتمال انهيارها ولا تسقط أبدا ..

شارع سيدى مرزوق خال الا من بقايا ريفيين مسرعون بسلالهم وعيالهم ونسائهم الى المحطة وعلى ابواب الدكاكين التجار ينظرون ناحيتهم فى تعب وخوف والعيال يلاحقونهم بالشتائم .

- وسختوا البلد يا بهائم

جمل عمر فرهود الهائل بارك عند اسفل السلم الحجري انفه الطويل الضخم المتكبر وعيناه الواسعتان وشفتاه المتهدلتان على فكه الأسفل فى لا مبالاة وازدراء .. وفى أعلى الشارع جمال أخرى حملت صحاحير أخرى ومشت تنقل كلاكلا ثقالا وتمضى راحة .

عمر فرهود يدور حول الجمل البارك يعدل العدة على ظهره ويفرد الحيال ويستوثق من الاربطة واذ يرى الحاج كريم يشرق وجهه ويقبل مسلما .

- كل سنه وأنت طيب يا فرهود .. تعود له بخير

- وأنت طيب يا عم الحاج

ويصعد الحاج كريم درجات السلم الحجري وييدا مستندا على عصاه فى الواجحات الثلاثة النسوه اللآتى بقين هنا سنين وسنين تهدلت الصدور تترجرج خلف شيت الثياب لم تعد الضحكات مجلجلة مفناجه .

- نهاركو سعيد يا سات

- سعيد مبارك يا خويا .. النبي عليك نور يا حج .. مدد يا سيد .. البنات الصغيرات كبرت كثيرات منهن تزوجن وتفرقن والباقيات قلقات لم يعد لهن مكان هنا .. لم تعد هذه بيوتهن يردن ان يطرن يخلينها لزوجات الاخوه .. ريح الرحيل تهب على كل شىء الرحيل عن الأماكن العزيزه والحاج كريم فى وجهه أسى الفراق يخالطه الأمل فى الرجوع مع دورة العام .

- العوده بخير يا أهل الله

- ألف عوده يا حج

وصعدت السلم فتاة سمراء فتيه تضرب على دف فى يدها أبوها العجوز ينفخ فى سبب

العاده يا رسول الله
العاده زى عمول

ويقف الحاج كريم هنيهه يتأمل فى المغنيه الصغيره وأبيها
المجوز منذ سنين وهذا الرجل يأتى فى هذا اليوم بالذات ليطلب
العاده تأملهما الحاج كريم مبتسما متفائلا ونادى على العايق
- اديلهم يا عايق .. اديلهم .. ربنا ما يقطعناش

ويملأ العايق حجره كسرا وقراقيشا ويعطى الرجل العجوز
والاطفال من عيال الحارة يتقافزون ويطلبون الخبز والقراقيش
والحاج كريم يبتسم
- اديلهم يا عايق اديلهم

ويوزع العايق لقما صفارا فى الاكف الصغيره وهو يسرسب
الكلام

- خدوا .. خدوا كام مره .. مش نخلى حبه للناس اللى طول
مدة المسولد مغليينهم .. هاتى حلتك .. هاتى برادك .. هاتى
وابورك ..

العايق يرتدى نظارة سوداء رخيصة بصره يستلب رويدا رويدا
ولا احد من الذين يدور عليهم يسألهم دواء أو وصفه عرفو لذلك
سببا عيونهم تظلمان بعض الناس يقول : لموت الجازيه .. من يوم
ماتت لم تقم له قائمة وبعض آخر يقول بما أكل من حرام .. لكن
عبد العزيز يرقب فناء نور عينيه بحزن

- حملوا يا عمر ، حملوا يابنى .

وانطلق عمر فرهود داخلا الى بيت الخدمة ووقف الحاج كريم
وسط الباحة مستندا على عصاه ضاما عباته الى صدره وخرجت

أم طلعت من الباب تحمل كرسيًا ناولته لعبد العزيز قدمه لآبيه الذى
نظر ناحيتها شاكرًا دون أن يتكلم وجلس على الكرسي واضعًا
عباءته على حجرة وكفيه على عقفة عصاه ناظرًا الى الأمام وعبد
العزيز واقف خلفه .. وأم طلعت جالسة على درجة السلم الأولى
فيما يلى باب البيت مباشرة والنساء فى الشبايبك .. أصوات
تنادى أو صرخات عيال لكن ثمة صمت جاثم خلف الاصوات المتقاطعة
صمت مكين لا يناقش كإرضية سوداء قائمة تحبل نقوشًا ملونة
متباعدة .

خرج الرجال من باب الخدمة يحملون بينهم الصحارة الكبيرة
مشوا بها ويثيدين ثقيلى الاقدام على الأرض ونزلوا بها على السلم
الحجرى ووضعوها على أرض الشارع بجوار الجمل البارك ، وعادوا
صاعدين ساكتين ليأتوا بالصحارة الأخرى وعراقى الأطرش يتبعهم
نازلين صاعدين لا يحمل معهم نقط وجهه غارق فى الاهتمام وشفته
تتحركان بكلمات لا تسمع وعيناه تكادان تقفزان قلقًا .

كدست اشياء بيت الخدمة حول الجمل ثم حملت عليه واوثق
الحمل بالحبال وبعد الرجال متحلقين حول الجمل العظيم أطلقه
عمر فرهود من عقاله وصرخ فيه والرجال يهتفون باسم الله والسلطان
ويدلون الجمل بألقاب الاعزاز والتمجيد والجمل لم يخيب رجاءهم
المهوف فى عيونهم فنهض بالحمل نهضتين ثم قام شامخا رافعا
راسه الى الاماك وفرك الرجال ايديهم مبتسمين وسلم عمس
فرهود على الحاج كريم وقبله بين عينيه .. تندتا بدمعة صغيرة
أجهش عمر فرهود بالبكاء ورفع ذراعاها داعيا .

- يارب انت الرب واحنا العباد .. الطف بنا

وأبى عبد العزيز أن يسلم عليه من مكانه نزل معه السلم
الحجرى ومشى معه قليلا ..

ذلك الانسان الطيب امراته مريضة من زمان على فراش صغير
على مضطبة وسط الدار ناحلة المعصم تهش الذباب عن وجهها بحزمه
من خوص النخيل وابنهما الوحيد ازهرى فاشل يرهقها بالعراك
والمطالب .. الرجل يلزم جملة طوال النهار .. لو كان يتكلم لربما
كان استغنى عن الناس أجمعين .

رجع عبدالعزیز يصعد السلم الحجري الرجال يخرجون من بيت
الخدمة في يد الرجل سلالة وطفلة وخلفه امراته يسلمون على الحاج
كريم ..

- كل سنة وانت طيب يا عم الحاج .. ألف عوده

ويتأمل الحاج كريم وجوهم المتحلقة حوله ويتنهد

- أنا خلصت يا ولاد

وتغميم الوجوه بسحابات الحزن

- يا عم الحاج ما تقولش الكلام ده .. الدنيا من غبرك

ماتسكن

- يا عبيط طول ما فيها ناس .. فيها خير

يسلمون ويمضون يتحدرون على السلم الحجري نازلين .

ها هم آييون في السلال بعض الحلوى ولعبة للطفل لقلوبهم
ثقيلة يتاملون على الجانبين وجوها معادية وفي أدمغتهم التساؤلات
اترى خدعوا فيما اشترؤا أم لا ..؟ وسوف يظل التساؤل بلا جواب،
لا شفاء لهذه المخاوف انها هذه المدينة الغربية تتركهم دائري الرؤوس
منذ فجر غد سيكونون على رؤوس الغيطان اقدمهم غارقة في الطين
وايديهم ملتجة بواطن اكفها من القبض على الفاس والعرق يندى
الجين من جديد دوامة الكدح والعناء لكن لبضعة أيام آتية ستكون
ثمة حكايات وضحكات، جلسات على اكوام التراب وعلى المصاطب
أمام الدور وحديث عما جرى وكان في أيام المولد ومنذ هذه الجلسات

ستولد بذرة الشوق الى سفر جديد .. بذرة تنميتها أيام الكد
والشقاء تحت وطأة الظهيرة حتى يدور العام وينادي المنادي لمولد
السلطان ..

اتت رشيدته ووقف كسيرة بين يدي والدها

- أنت مروحه يا بنتي

- كل سنه وأنت طيب يا بابا .. ألف عوده .. أطبخ لرجالتك

ألف عام

- بنت أبوكي يا رشيدته .. الله يبارك فيك

ويخرج من جيبه ورقة مالية

- هاتي حاجة من السكة لولادك .. أبوكي محمد العايق

هيوصلك انتي واخوانك لحد المحطة ... ركبها يا عايق .

- حاضر يا سيدي

العايق يحتاج من يقوده لكن تلك هي العادة .. العادة التي لا

يريد احد ان يخل بناموسها ولو في تفصيل دقيق .. تسلم رشيدته

على أبيها وتقبل يده مرات كثيرة ويعرف عبد العزيز انها ستقضى

الطريق سائحه الدموع ..

الحاج كريم ينظر ناحية المسافرين ساهما عيناه مسافرتان

وراءهم لكنه التفت الى يمينه ونظر مليا حتى ادرك أخيرا أن هناك

محمد كامل واقفا يحمل سلالة وفي يده طفلة صغيرة .. ليس هو

محمد كامل الذي طالما وقف بين صفى الذاكرين طائر الذراعين تتدلى

أكمامه كنبى ليس هذا هو محمد كامل المنصت لحكايات الحاج كريم

ووجهه غارق في ضوء الفانوس شخص آخر ضائق حتى بمراسيم

السلام يريد أن يخطف المصافحة ويجرى .. تأمله الحاج كريم

مذهولا هذه أول مرة يسافر فيها قبل الاخوان .. يسافر دون

زيارة الوداع للسلطان ..

- حنودع السلطان الليله يا محمد يا كامل
- سألناكم الدعاء .. ما ليش نصيب
- مستعجل ليه
- الميه جايه الليله .. عاوز أروى
- خليك ليكره .. كل تأخيريه وفيها خيره
- ارادة ربنا

لا محالة مد له يدا يضافها أقبل محمد كامل على اليد الممدودة
وفى هذه اللحظة فجأة اصفر وجهه كوجه ميت وزاغت عيناه ثم
اندفع ناحية السلم جاريا لا يلقى على شيء .. لا بد أن دموعه تجري
الآن على وجهه تفكر عبد العزيز ، ألم يكن من حق الحاج كريم ان
يرى هذه الدموع ؟ .. ثم صغير لايام العمر ، للسهرات والاسفار
والكلام الطيب ... ؟

وكانت مقبوض عليهما يدفان من ظهورهما تقديما الى الحاج كريم
وخلفهما ابنتهما الشحات ، الشركسى النجار عجوزا ناحلا كئيبا
زيتونى الوجه يستند على عصاه وامراته طويلة فحلة جهمة الوجه
وجه الشحات وجه مجنون حاجبه الأيسر يميل على عينه حتى
يطمسها فكه الأسفل هائل مندفع الى الأمام شفتاه رقيقتان مزومتان
وجده متقع غريب تذكر عبد العزيز كل ما يقال عن الشراكسة هذا
الشباب بؤرة جمعت كل اشعاعات الخيال .. كلمة عبد العزيز .

- مستعجل ليه يا شحات

- كده

- طب سافر انت وخليهم

- لا

ثم استدار لعبد العزيز كفاه متقابضان خلف ظهره وفوق كتفه
تجتمع عضلات عظيمة تكون ما يشبه الحدبة .

مد الحاج كريم يده للمسافرين دون كلام ، كان وجهه قائما
نهض داخلا الى بيت الخلدمة أسندته عبد العزيز
من تحت ابطه احس انه مختنق لا يتنفس بسهولة مخضب مسموم
عتمر قلب عبد العزيز منذ متى والرجل مريض لكنه لا يستشير
ليبيا فقط يسأل الاخوان والحكماء ..

- يابا روح للدكتور

- يابنى ما تشغلس بالك .. حاجه بسيطه

البيت خال مربعان كبيران من القداره التراكمه مكان الصحارتين
اللتين كانتا مركز هذا البيت تخرج منهما اوغفة الخبز واحفنة
القراقيش دون انقطاع للناس ..

جدران الصاله وسخه متقاربة يسمع وقع اقدامهما فى
السكون كأنما يمشيان فى فراغ سحيق .. قبالتما احمد بدوى
ووراءه امراته ، صار بها حفيافى الفترة الأخيرة بعد ان تركهما ابنتهما
الى القاهرة سيوصلها بنفسه الى المحطة ساكن الوجه يمر بالحاج
كريم دون كلام يشير له الرجل براسه ويمضى .

بجوار الحائط يجلس على خليل عيناه بؤرتا حزن
وجهه شاحب شحوب الموتى ، طول عمره يكابد
العله ، شيء فى داخله ينمو ليهدم هذا السكبان ربما كان ثمة
ادراك غريزى وراء انطلاق كورس الدراويش عقب كل حضرة ..
« اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت انك على ما تشاء

قدير .. »

ادراك غريزى لهذه الكائنات الدقيقة التى هى جزء من حياتهم
والتي تلتهم هذه الحياة يعزمون على حيواتهم المزمائم لكن
لا راد للمصير ..

- قاعد لوحدك ليه يا على .. ؟

قام على متسندا مشيا معا الى غرفة الشيخ جلسا على الحشية بجواره ، جلس عبد العزيز عن كئيب ..

طول عمر الحاج كريم وسط هؤلاء الرجال وسط خشيش القماش الخشن .. هاهم حزاني بأئسون المستكاوي يسعل حتى يكاد يلفظ روحه ..

- آه ياني .. رحمتك يارب .. جوارك احسن .

وعباس لا يفتى في امور السدين يخرج من جيوبه صنوف الزجاجات الصغيرة ويتأملها ويحدق فيها ثم يستخرج منها بلاييع صغيرة ويزدرددها، أما صناع الرقي فهو تمثال شاحب لا يريم، وصانع القهوة يخرج من جيبه منديلا محللوايا ويمسح عيونه التي تسح منها الدموع بلا انقطاع ..

- الحمد لله قضينا ايامنا على الأعتاب ..

وخط الشيب رأس الشيخ متكئ على حشيته سارحا صوت حبات مسبحته يعمق الصمت ..

سمع صوت صديقه المخبول ..

- مالناش في نفسنا حابه .. نعمل ايه .. نعمل ايه ..

حل الصمت تلفتوا الى بعضهم صامتين أخرج صانع الرقي قلمه وورقة صغيرة وكتب رقيه مديد بها للشيخ باركها وناولها للحاج كريم ربما هذه أول رقيه مجانية يصنعها هذا الرجل في عمره .. أخذها على خليل الذي لا يكاد يقوى على القيام .. أخذها من يد الحاج كريم وقام الى صديقه أخذها من معصمها ، وخرج بها ربما يطيف بها حول مقام السلطان ثم يركبها قطار الى البلد .. كانوا ساكنين ودموع حسن أفندي تسح بلا حساب ..

اجتمع شملهم جميعا بعد أن أب احمد بدوى وعلى خليل، جلسوا جميعا ساكنين التلة الحبيبة .. تطلع الحاج كريم بعينه البنية المشتاقة ..

- آن الاوان يا عمى .. تقوم تودع السلطان .

- ايوه يا حجاج كريم .. انشاء الله ..

قام الشيخ سوى جلبابه واخذ عمامته الخضراء من الشباك وحبكها على جبينه ومشى وتيدا خارجا من الغرفة الى الردهة الى الباب وخلفه الحاج كريم وباقي الاخوان في الباحة التي امام البيت .. وقف الجميع هنيهة وتبادلوا نظرات ساكنة ثم بدا الشيخ ينزل درجات السلم الحجري والجميع وراءه .

لم يعرف عبد العزيز بعد لماذا تنقل هذه الساعة من النهار قلبه بالسكابة حينما تشحب الشمس وتمتد رقائقا الذهبية على الاشياء ، جماعة الرجال متكسرة الظلال على أرض الشارع تذكره بظلال النخيل امام شرفة الدوار ساعة الاصيل .. يومها وآههم آتين بها من طنطا كان الكل يعرف ماعدا هي .. الكل يعرف أن اليوم سيتزوج سميره من شاب من الفلاحين .. وفي المساء كانت تصرخ كلبوة حبيسة بين جميع النساء في غرفة دارهم رافضة أن تصرح لوكيل يزوجها لهذا الرجل الذي يريدون يومها بقى ينظر ناحيتها حينما قال لها :

- وكلى ياسميره .. وكلى ماتوقفيش الرجاله .. بلاش فضيحه ..

لم يكن يدري مايقول ، كان فاطر النفس ثقيلنا نظرت اليه من خلال دموعها ..

- طيب وكلت خالى ..

ثم لم تبك بعد ذلك ابدا .. الى اليوم وعرف بعد ذلك انه كان
بوسمها ان تقول طول عمرها لا .. من اجله ..

ظلال الرجال على أرض الشارع طويله متكسره كانهم يشيعون
ميتا تقدم اليه احمد بدوى محاذرا ..

- سرحانه الغزاله اوى ياسى عبد

.. -

- قلل لى ياسى عيد .. لو متنا .. فتفكر تقرا لنا الفاتحه

- كل يوم

- الله يرضى عليك

اختزنت الارض حرارة اليوم والان تبوح بها انفاسا زخيه
بالوساخه والماء المرشوش امام الدكاكين التجار قاعدون فى كسل
او متنادون عبر الشارع، جرسون المقهى يزعق بالمطاليب القليلة
المتباعده امرأة تنادى من الشباك على بائع او ننشر ثوبا مبلولا
او تدس يدها فى سلة تاخذ بصلا لطبيخ العشاء فتاة تسرح عيونها
بعيدا لا تقعان على شيء واجهات لبيوت قديمه فقيرة بالحياة ..

ترى أسعيد محمد كامل الآن أم تعييس ، غارق السيقان فى
الطين ملتهب الكف بالفاس وحيد دون الاخوان .. ظهر القرن ملئ
بالعيال بعد سنين من الصمت لكن عيون امراته خاليه من الحنان
والمحبه مهمومه بالعيش .. هل يذكر صديقه .. هل يحن الى مباحج
الطريق التى يجافيهما الان الانسان .. الدم واللحم والعظام
واخلاط العصارات كيف تفرز كل هذه الحيره والالم هل بجهل
كل شيء ام تعرف كل الأشياء ام ان علينا ان نكدح ايام الحياة
كلها لكى نعرف اقل القليل ..

انحرفت الجماعه فى درب الحمام طويل معروش معتم

ملئ بصانمى الدفوف ، اكداس من اشلاء الجلد والخشب من
هذه الاكوام تصنع الدفوف خالقة الحياة فى الليالى ، الصناع
متكاسلون يتحداثون ويضحكون قليلا ..

من الدرب تتفرع سكه صغيره تقود الى باب الحمام الواجه
مزينه بتهاويل تمت الى العصر الفاطمى والباب كتله صاده من
الخشب مزينه برؤوس غلاظ المسامر كم فتنت هذه الواجه
والباب عبد العزيز وحكايات النساء العواقر وزيارتهم للحمام
بحثا عن الخصوبه وعن الرجال موجوعى الظهور وعن بركة الماء
اللهاب السخونه ..

ثمة قبالة الباب الغربى لمسجد السيد البدوى بناء آخر، تحفة من
الرخام يقولون كانت ساقيه تمد الجامع بالماء وكان تدور فيها
ثيران النذور ليلانهارا، المسجد والساقية والحمام، ماذا كانت جغرافية
الكان فى الزمن القديم وكيف كان الناس والكلام والبيع ربما تلك
الثلة من الرجال يمثنون بأرواحهم الى العصر الفاطمى اكثر مما
يمثنون الى اليوم .. لكن هذه العمائر السخيفه زحمت الميدان
وضيقت رواده ..

انفتح الزقاق الضيق على رحابه الميدان ، المقام ، المصابيح
فى صدره بدأت تنبثق فى لمة الفسق ..

وجه الحاج كريم طائر كحمامة برية سمراء مشتاقه الجمع
يهتز بالمهمات والتحية والدعاء .. وعبد العزيز حائر وحيد وهو
معهم لا شيء يهز قلبه بارد هامد يتلفت مكسوبا .

احس العايق انهم بازاء المقام هتف مولولا

- يا سيد .. طول عمرى انور ليالك .. نور عينيا يابو فراج

الميدان هادئ، خال تقريبا حجم المسجد المضاء الجوانب بمصابيح
الكهرباء له جلال، وسيطرة ونفاذ شيء فى صلادة الجدران ولمة

الضوء على شبابيك النحاس الهائلة وهم يمشون وثيدين نحو المقام
وجه العراقى منصب على الجامع .. مخبولا يهينهم بفئات حروف
لا يكون معنى كأنما لبست جسده روح مارده فهو يرتجف بعنف
خارق رغبة خرافية فى الالتحام بهذا البناء الضخم المكهرب .. كان
وراء الانسانية الخرساء رغبات كهذه جعلتها تمد المدائن على وجه
الأرض .

كان عبد العزيز طفلا صغيرا حينما رأى لأول مرة فى حياته
رجلا يطأ بساط الجامع لابساً حذاءه، حينئذ أصابه الفزع وسأل أباه
وعلمه الأب أنه طالما كان الحذاء نظيفا فلا بأس فى أن تداس به بسط
المسجد يومها كان هذا الرد مسكنا لكن المسألة ظلت كما هى ثمة
من يدوس بسط الجامع لابساً حذاء البللور الشفاف الذى صيغ منه
عالم عبد العزيز شابه شرح طفيف كبير واتسعت عيونه أصبح يرى
عددا أكبر من التعلات تطرد صفاء روحه توقعه فى الشك والألم
أصبح يستنكف من الدوس حافيا على بلاط مسجد
السلطان الذى توسخ من عشرات الآلاف من الفلاحين ..
لكنه استبقى حبه لهؤلاء ويقوا دائما هنا ينظرون بطيبة وحب الى
كل الأشياء .

خلع حذاءه وحمله فى يده ومشى وراءهم صامتا يرفع قدما بعد
أخرى من البلاط اللزج بالوساخة .

لعله سر الإبهاء الشاسعة والعمد القائمة والسقف العالى انها
تحيل الهمهمات والفظم والتنادى والتشاحن والترتيل والصحاح تحيل
فوضى الأصوات هذه الى شىء آخر . تخلطه كله وتجعله له اصدااء
وابعادا وتردادا .. تخلق منه صوتا واحدا جليلا مهيبا يصيب القلب
.. إبهاء مسجد السيد البدوى أول ما يملك القلب بعد أن يخلص
الداخل من المشى الصغير الذى يلي الباب .. والذى يصطف على
جنبه حراس الاحذية وصناديقهم ذات الخانات .. مشوا جميعا

عبد العزيز يعرف ما يهز هذه القلوب من الأعماق فلکم ذاب قلبه
من جلال الاصداء فى المساجد الكبيرة .. شىء فى مؤخرة دماغه
يبتسم فى حزن ، وداعا لسرات الطفولة المسرات العميقة ..

هؤلاء الشيوخ على الجانبين يقارعهم خدم المسجد حراس الإبهاء
الجليلة العالمون بما يحرسون يخطون الناس بالمقارع خبطات هينة
يقصدون القلوب يريدون تسليما تامالا يريدون نظرة شاردة اوزائفة
أو فيها جسارة ..

— أذكر الله ياراجل ما تغفلش

ويضيق عبد العزيز بهم يراهم لزجين اكسبهم الطعام الكثير
والظل سمانه مرضية مقرزة ويراهم قلقين ويرى فى عيونهم شراة
وربما كراهية عميقة لهؤلاء المتدفقين على المقام الكهان ثمنهم هذه
القروش التى تودع فى ايديهم فيسرعون بها الى جيوبهم ..

لكن الرجال لا يلتفتون ، لا يعانون ما يعانيه عبد العزيز
بعضون الى إبهاء المسجد .. هؤلاء الذين عاشوا لآلاف السنين
فى أكواخ الطين ممتلئين حيننا لروعة الإبهاء وروائها .

بهذه اللفهة والاقبال والخلوص بهذه الأبدى
الخشنة سيدت القناب والعمد والابهاء نحتت المعابد فى
صميم الصخر ، خلق الظل الطرى فى حميم الصحراء .. وقفوا
هنيهة ساكنين قلوبهم تهر هريرا بالتساييح والدعوات تبادلوا معا
نظرات وابتسامات مسروره ..

— ما شاء الله العظيم

استخفت أحمد بدوى فرحة طفوليه

— الخورنق كان ميه وتلاتين طابق كلها من عمدان الرخام

نظروا له ساكتين الفرحة تزدهى فى وجهه كطفل لم يرد عباس
ان تفوته المناسبة ..

- المساجد جنة الله على الارض

وعاجله المستكاوى

- دا حديث ولا قرآن ده يا عباس

لكن الشيخ والحاج كريم مضيا فقطرا وراءهما باقى الرجال .

المصراعان مركونان على الجانبين والباب مفتوح على آخره عن
هيكل النحاس البراق المتلالي، فى ضوء الثريات الهائلة المحملة
بمئات العيون الباهرة الضوء وقفوا فى فتحة الباب هنيهة خاشعين
ساروا دائرين حول المقام بمسكون بشبك النحاس ويمرغون الوجوه
ويبتهلون بالدعوات كان عبد العزيز هنا فى الليلة الكبيرة كادت
جموع الفلاحين أن تخلع المقصورة من مكانها أما الآن فان أشباحا
قليلة تمر متكسرة حولها وهى فى الوسط شامخة مسيطرة متألثة

مال أحمد بدوى على الركن ثمة صحرة عليها رسم قدمان
هانلان هنا وقف النبي حافيا فلان الصخر له كرامة وقفزت الى ذهن
عبد العزيز بشدة صور الاقدام الغليظة الخرافية للجوابين فى الريف
هذه الاقدام التى تمثل تحدى للمسافة وسخرية من العناء والمشقة
هل يلين لها الطريق وتنسحق تحت وطئها الحصباء، أحمد بدوى
يبحث عن عالمه فيما يرى حوله ذلك العالم الذى اصطنعه لنفسه
من صحائف الكتب الصفراء وكلما وجد شيئا استخفه الفرح يلثم
الحجر وينظر لعبد العزيز ، لا يدري ماذا فى راسه لكن شيئا فيه
يجذبه ويجيره

جلسو بجوار الحائط فالمغرب وشيك وهم عازمون على الصلاة
فى المقام بهاء المقصورة مسيطر على الحاضرين تماما مصطفون بجوار

الحائط معلقى الابصار بها ، كل يرتل هامسا بلاذعية والتسابيح
لو كان محمد كامل هنا أكان يستطيع أن يجمع اراداتهم على رغبة
واحدة يجهرن بها امام المقام، أكان يقترح الفانحة لعة على خليل
الأكيدة العاتية التى تبدو ضراوتها فى التماعه عينيه تمسكهما
المستमित بالحياة .. أم بصر العايق السليب أم لمرض الحاج كريم
أكان يجلس بجوار الحائط يهمهم وحده بالدعاء .

اصطفوا حول الامام لصلاة المغرب تحت القبة الكبيرة وحينما مد
جار عبد العزيز له يدا للمصافحة بعد انتهاء الصلاة
كان سارحا ، خجل من شروده لكنه سلم على الرجل
فى سكون وحينما بارحو المقام كانت روح الحاج كريم
مازالت هناك وكانت عيناه نديتان بالدموع ..

جمعهم قليل يسرون على أرض المسجد يتلفتون يحملون نعالمهم
فى ايديهم ويديون واهنين غادت عيون الحاج كريم تحديق فيما
حولها بامعان نظرة يعرفها الحكماء من أهل القرية فى عيون الرجل
الميت اعتصر الألم قلب عبد العزيز .

خلصوا الى معشى صغير معتم، طرقتوا بابا فتح الباب شاب صغير
أمرد يطل الأدب والرقه من عيونه ، غرفة شاشعة مفروشة بالحصير
فى الصدر اريكة هائلة يجلس عليها رجل عار الرأس
مرسل اللحية والشعر كأنما هو من أهل الكهف عليه
جلباب وحيد فقير متسخ حالما رأى ضيوفه قام مرحبا
- أهلا بالافاضل

واصر على تقبيل يد الشيخ

- بضعه من رسول الله .. بضعه من السلطان

وكلما ذكر اسم السلطان قمص وتثنى كأنما برزعود من الحائط
من ناحية المقام وغمزه فى جنبه، كان شيئا فى المعهد الدينى الثانوى

فى طنطا ثم استغرقه حب السلطان وحرفه عن عمله وبيته وانتهى به لان يفتكف هنا .. يجرى عليه من اوقاف السيدرزق قليل ويخدمه فى عزلته هذا الشاب الأمر الرقيق ..

فيه جلافة وخشونة وطلاقة أسرته أقبل عبد العزيز على حديثه بشفف، شخصية خرافية انطلقت من جوف الكتب الصفراء، فصيح البيان واضح العبارة كنبى مسيطر ينبش ويهيل عليك تلالا من لون خاص من المعرفة يبهرك عمقه وذواقه وعاطفته وصفاءه .. أحمد بدوى يكاد يطير فرحا لكن عبد العزيز بدأ ينصرف من حديثه رويدا رويدا ويراقب هذه القمصنة ينتظرها ويضحك منها فى نفسه لولا هؤلاء الرجال لكرحك بالضحك لكن كيف وهم حول الرجل غارقين فى الانبهار ..

خرجوا الى الميدان مرة أخرى رحب قليل العابرين والمقاهى من حوله مشحونة من داخلها بالضوء وبعض الرواد مشوا ينظرون ساكتين .. ماذا صنعوا بشارع السكة الجديدة .. هدموه - وانشاوا مكانه شارعاً واسعاً، بقروا بطن الرواء القديم ، لازال يذكر صفى الدكاكين القديمين وسقيفة الظلل الممدودة من الجانبين على واجهات الدكاكين للشارع عتامه وانفلاق حميمين هدموا كل هذا أصبح مفضوحاً للشمس بنيت على الجانب المهدوم عمائر صغيرة سخيفة قميئة .

كانوا يدرجون من الحطة الى المقام فى شارع مسقوف له عبر يرقق النفس .. الآن يتلفتون فى عراء غرباء عن الشوارع تجار جدد أو بعض القدامى فى دكاكين جديد لم يالفوها .. بعد يرتبون اشياءهم مرتبكين .

متى يعتاد الناس هذا الشارع الجديد وبالفوه ويحبوه وأى ناس سيكونون ليس هؤلاء الرجال على أى

حال تلك الثلثة غريبة عن هذا الشارع انما هم عيون تبحث عن شىء كان لهم فيه مسره قديمة ..

ذاهبون لزيارة الصارى تحذروا ليجتازوا النفق تحت كوبرى سمنود فى عنفوان المولد يرتج هذا النفق بالآف الاقدام وصفير الشباب وصرخات العساكر والباعة اما الآن فان الظلام يسود وقله من العابرين ومتسولون يرددون القرآن بآليه وترداد .. وهم يسرون صدى اصوات اقدمهم يرن رنيناً كثيباً فى الجدران ..

انكشف النفق عن الخلا الشاسع الذى يكون فيه مهرجان المولد عملية هدم شاملة تثير الفزع الرجال يتقافزون كالقروء على النصب التى كانت شامخة يلمون اجبال لمبات الكهرباء والمناديل والاعلام واللافتات التى كانت تحمل عبارات صارخة وصوراً غريبة تجمع الآن وتكوم على الأرض اجزاء الخيام وخشب الاكشاك السرقات تفك مفاصلها وتكس اشلاها الرجال والنساء الراقصات المهرجين الذين كانوا مزركشون فى الحرير الملونه يلعبون على اراتك العرض .. الآن يرتدون أى شىء ويشتغلون كفعلة خشنون كثييون متوترون ساخطون يشتمون ضائقون بالعيون القليلة التى تتاملهم فى دهشه وفضول .

- سوق قام ثم انفض .. آمال با عم .. زى الدنيا

يسمون هذا الشارع (شارع الفرجه) من هنا مر مئات الالوف (يتفرجون) والنصب الشامخة الصخانية على على الجانبين ابن هؤلاء الآن ليروا الهدم الشامل هم الآن فى القرى على المصاطب امام الدور أو على الكيمان فى ضوء القمر يحكون عن المولد فجأة ومرة وحده يرجعون يتركون المولد فى عنفوانه لا ينتظرون ليروا هذا الهدم ربما يريدون أن تبقى فى اذهانهم صورة وقده المولد فى أوج ونفعالها يظنون يحكون عنها على مدار العام وفى الشوارع

يتقابلون الذين لم يذهبوا في عيونهم نظرة استطلاع واستفهام
والذين ذهبوا في عيونهم فرحة من رأى وشاف وعلى الأرض المتربة
في قيعان الحارات تتناثر أوراق الحلوى الملونة وقشر الحمص وفي
أيدي بعض العيال زمامير وشخاشيخ والآخرين ينظرون في حسرة ..

أصبح الطريق سائرا في مهمه من الظلام مصابيح مخدوله متباعده

سقيفة النجوم متلاثة باهرة الخلا الشاسع تنفس فيه نسمات
رهيفة لكنك تدرك انها عملاقية جبارة .. سائرون الى الصارى .

ربما الصارى هذا شيء من الزمن القديم حيث كان قائد الجيش

يرشق حربته أمام خبائه أو عصا طويلة وسط المعسكر يعلق فيها
رايته أما الآن فقد اختص الشيوخ بالصواري لكل شيخ صار ..
عود طويل من الخشب يرشق في الرحبه من الأرض التي يقام عليها
المولد ويختلف الصارى ضخامة وقماعة حسب مقام الشيخ في
الأولياء ..

دبح الحبيب قلب محبوبه بدمع العين
وعند كل مقطع كان ثمة كورس هائل من الجوابين يصرخ بقوة

حسى

ثم انخرط السربل في بكاء حارق

- آه يا سلطان .. يا حبيبي

ككيف يكون صارى السلطان ..؟ عملاق هائل من الخشب
مرشوق في قاعدة مكيئة من الاسمنت يصعد نحو السماء حوله
حشد من الجالسين متحلقين حوله أو الطائفين به في استمرار
لا يشوبه كلال ..

كلوبات خافتة ، باعه ناعسون .. ثم حشد من الجوابين لا
يقرلهم قرار يرقصون حول الصاوى رقصة غريبة تطير هراواتهم
وصرخاتهم في السماء ، الأهازيج والصيحات فرحة وغضب و ثورة
دموع وآلم الصارى عمود مولد السلطان وروح سره ..

وقفت ثلة الرجال ساكنون يبسملون بالدعوات ويرفعون أيديهم
وعيونهم نحو السماء حيث يشمخ الصارى بعيدا .. ها هنا في
قلب الليل في عزلة عن الدنيا يقف هذا التصب وتلك الكلوبات
القليلة والرقصات والأهازيج القريبة .. انبثق الرجل المسربل
وطلع عليهم في هيئة مرعبه شاخ وجهه لكن عيونه في الليل والاضواء

www.liilas.com
florist

الطريق

الأكوخ وقمم النخيل والأشجار أكثر عتمة في الليل الأدهم ، القرية
الأخت .. توأم قريتهم رابضة في الظلام تنضح ريحا دائمة منتنة
تخالط ريح الليل البارد ..

نحن قليلون ويعرف بعضنا بعضا أو يحس بعضنا ببعض وحينما
يتميز شبح القادم قليلا وتخلص حدوده من قلب الظلام فانت تعرف
من القادم وهو يعرفك ..
- السلام عليكم

- عليكم السلام ورحمة الله

وبين السلامين تحكي الحكاية ويتقلص القلبان .. ويختنق
عبد العزيز ما يستطيع استخلاص الهواء لرتثيه وتتفجر الدموع في
مأقيه ويسرع كأنما يهرب ومن ورائه ممصصة الشفاه تأتي وتخرز
القلب كأبرة مسمومة مسلطه .. ابصر النجوم للمره الأولى بيضاء
لامعه طائره في جو رقيق من ضوء شفيف يالجمال وتحدرت الدموع
نهر ساخن يغسل خدوده لم يمسحها .. تركها تسح تنزل على
قلبه تواسيه ليس ما هو أكثر حنانا من الدموع ..

الدب الأكبر ترك ذنبه على الدار والنجم القطبي رائع البريق ..
لقد مات الحاج كريم ، وتسمع .. الليل الأخرس ذو الأنفاس
الرتيبه ألم يستحضروا ميكروفونا ومقرنا .. أعمامه السبعة ..؟
والرجال ؟ الأخوان والصحاب رفاق عمره .. اذن ماذا ؟

كان الوقت ضحى حينما جاء ذلك الرجل ، دق جرس الباب
ودخل صامتا يرتدى بذلة وقميصا متسخا دون ربطه عنق ، عليه
صدار ريفي يضع على رأسه طاقيه صوفية وعلى وجهه قناعا
كثيفا من الحديد ، بين شفته السفلى وصف ثناياه فجوة مليئة
بدخان المصنفة ..

- قوم سافر

من المحطة الى الدار ، سكة في القلب كم قطعت ذهابا وأوبه في
زحام الرجال وخشيش الثياب المسولة والضحك والوجوه المزدهية
بالسرور ، وكم قطعت ذهابا وأوبه في الوحدة والسكون ..

وحينما نزل عبد العزيز من باب القطار الى عتبة الرصيف
اختنق قلبه واستدار ليرى القطار ينسحب متهللا ، مربعات الضوء
تجرجر على حصباء الأرض والقطار يمضي ، العربات مكنونه على
الضوء وحديث الركاب وصمتهم اختنق قلب عبد العزيز حينما بعد
القطار وماتت ضجته .. وبدأ يلقي بنفسه في قلب الظلام ..

مهمه عميق من الظلام مرقط على البعد بنقط صفراء ، الللمبات
ذات الشعل تتحرك متباعدة ، الظلام الثقيل يتنفس .. جرجرة
النعال المتعبه نخرات أنوف البهائم الآيبه من الحقول شبعي ..
تقيق ذكر من الضفادع مهجور أو جندب كسير الجناح ..

ألقى بنفسه في قلب الظلام فهو لا يخافه ، يشرع وجهه للأمام
ويفتح عيونه التي لا ترى ويمشى ، يعرف الطريق وقع أقدامه فيدق
المسارب وينحى الحصباء وحينما يرتفع الطريق فوق تل صغير أو
ينزل الى وهدة غير عميقة فانه يبصر ذلك في قلبه وينزل أو يصعد
عارفا مطمئنا .. ثقيل القلب .

انفرش له الطريق ، اذاذا عرضا واستواء ! وأسرعت قدماه
تنتقلان في خطوة تكاد تكون ركضا وعلى جانب الطريق ازدادت
الرقطات الصفراء في الظلام تشق مساراتها وثيدة وبدت هياكل

- ليه

حاجباه كثيفان بارزان كقرد وعيونه مستديرة ، يعرفه ، طيب
الى حد البله لا بد أن يقول له ماذا هناك

- ليه

- ما فيش

- أبويا مات

- لا .. بس تعبان شويه

لكنه لا يصدق .. أسرع يكاد يجرى ، ماذا ياربي ..

الشارع بين صفى البيوت مفتوح كذراعى أم عجوز نحيله عمياء،
القي بنفسه فى العتمة اليبين مفتوحه ظلت مفتوحه ابدأ فى تجاويرف
الأكواخ الضوء الشاحب للمبات ذات الشعل، فى الصدرالفرنهامد
كرته معطله وعلى المسطبه كومه العيال وفى السقف عند عريشه
الحطب الحمام فى البناني راقده تبرق عيونها محاذره وعلى البيبان
جماعات النساء ..

- مساء الخير

- مساء الخير يا خويا

يعرفنه فى الظلام

- يا عقلى يا خويا .. يا ضنايا يا بنى .. ياروحى .. شمد
حيلك .. يجملك خلف خير .
ومصمصة الشفاه .. يجرى كالمطارد .. يوغل فى الطريق .
ماذا ؟ ماذا جرى .. ؟

وفجأة ينتصب أمامه من العتمة رجل يمد له يده ويشمد على
كف بيد خشنه قوية ووجه صارم حانى العيون

- أنت جيت ، الحمد لله على سلامتک .. مين اللى قالك ؟ ..

- سليم

- ربنا كبير يا سى عيد

- الحمد لله

ويخلص جاريا .. ومن بعيد يحسها واقفه على باب دارها
وقبل أن ينحرف تجاهها يجيئه صوتها يشق طيات الظلام اليه

- عبد العزيز .. أخويا

ويأخذها الى صدره ، رأسها تحت ذقنه ويضمها اليه ، هذه
الانسانه الدقيقه الحجم الراجفه بالحنان كالقلب يود لو يستوعبها
داخل كيانه ويلجأ الى صدرها كطفل خائف ..

- أبوكى مات .. ؟ ماله يا رشيدده .. ؟

- ما فيش حاجه يا روحى .. ما فيش حاجه يا ضنايا .. أبوك
جرى له آيه .. ؟ ولا حاجه أبدا .. حلو يا خويا .. حلو .. هيا
الناس ما بتعيش .. ؟

وانهمرت دموعها وبدأ جسدها ينتفض بالنشيج وتضاماً مرة
أخرى وكلاهما ينشج بقوة ومن حولهما فى عتمة الليه المصمصات
والتأوهات وكلمات الرثاء ..

خلص عبد العزيز من عناقها وانطلق جاريا

- على مهلك يا عبد العزيز .. حاسب .. أنا جايه وراك جرى
حنايا البيوت المضاه بالضوء الشاحب النساء والرجال المصمصات
وكلمات المؤاساه ، يمشى فى غابه من القلوب الحبيبة ودموع قلبه
تجرى ويمد له عمر فرهود يده

- ألف حمد الله على السلامه يا سى عيد .. ألف حمد الله على
السلامه

– احنا مش باعتين لك عشان كده .. احنا بعنا لك علشان تشوف حالك

وها هو الآن « يشوف حاله » .. أى حال .. ؟ كلما خلا الى نفسه من الهموم المتزاحمه تذكر ذلك المساء حينما خلاه القطار على الرصيف ومضى .. وخاض هو الظلام الى ذلك البيت حيث انهيار كل شيء ، يمتلىء قلبه بظلام ذلك المساء واللمبات ذات الشعل تتحرك فى مساراتها وثيده وجماعات النساء على البيبان والرجال يبرزون من الظلام يشدون على يده ويؤاسونه ..

وتذكر رشيدته أصبح زوجها هرما عملاقا منحنيا هشا مصدورا يجلس طول النهار على المصطبه لا يتكلم يدخن ويمتص الحلوى وهى طول النهار تشتتمه وتسبب تذييره وتستحثه وهو هامد جامد بيتسم فى بلاده وهى طول النهار تعمل فى الدار رثة الثياب على راسها خرقة باليه وشعرها الابيض ضائق بالعصبه الوسخه تعمل فى الدار طول النهار تسوى التراب تحت الجاموسه وتحمل روئها وتلف حمارتها الهزيله وتطمع الافواه العديده تخبز خبزاً وطبيخاً رديئاً وتخرج بالبهائم لتسقيها وتعنى بابنها الكبير كريم الطويل النحيل الملىء الامعاء بالدود تنظر اليه بحنان وخوف دائره طول النهار فى ساقيه العذاب وفى المساء تاتى الى الدار الكبيرة دار الأب تجلس الى جنب عبد العزيز ..

– ازيك يا روحى .. البركه فيك يا حبيبي

ثم تتوب الى دارها لتنام على ظهر قرن عار وتلتحف حرام الصوف الخشن .. ربما تطيف أحلام الزمان الماضى ، أحلام كسيرة ، أيام طنطا والمولد والخيز وامسيات السرور .

عبد العزيز بيتسم فى مرارة ففى ذلك المساء عانقته وقالت له

– أبوك حلو يا خويا

كسير صوت عمر فرهود مهدم القامه فى جلبابه القاتم ، قفل داخلا داره وعبد العزيز يجرى دكان على خليل مطلق ، لابد أن اللببه نمره ١٥ الآن باردة معلقه فى السقف كجته المشتوق ، مات على خليل ، الموت فى الزوايا المظلمه يطل بعيون عمياء على عبد العزيز

على البعد الدار ، الباب الكبير الاشباح داخله خارجه ومربع الضوء فى شباك الغرفه غرفه الحاج كريم ، دفع الباب داخلا وجوه أخواته الذابله القارقه فى الظلال والضوء الشاحب تطل عليه من انحاء الدار ، أندفع الى الغرفه ، مزدحمه بالرجال أفسحو له مكانا. الحاج كريم سجد على السرير النحاسى الكبير ، اللحاف محكم حول جسده ، لا يبدو سوى وجهه ساكنا مغمض يتنفس بصوت مسموع القى عبد العزيز بنفسه عليه وتدفق البكاء من كل كيانه من كل عمره نشيجا وولولة كالنساء .

– آه يابا ..

مسكت يد قوية بساعده ، رفعوه تأمل حواليه وهو يشرق بدموعه حلقة كثيفه من الوجوه الصلبه الذابله العيون غارقة فى الظلال لا يصيب ضوء اللببه الشاحب سوى قمم الأنوف والوجنات والجباه .

أخوان الطريق شواهد العمر تحت عيونهم أشرقت شمسو ايامه وغربت معهم ضحك وبيتهم بكى اليوم هم حوله فى بلائه العظيم قلبه ذبيح

– ان كان عالصياط .. آهم الجماعه الحريم عيطو كثير

لائم يشير الى بكاء النساء .. من أين يأتى الصوت لا يعرف صاحبه ، عميق كأنه روح صنعت من حزنهم جميعا وتكلم نيابة عنهم

ذلك الجمل وفرهود متهدم الكيان ذليل العينين يتأمل مواقع
اقدامه ..

عالم يهوى تنساقط لبناته كبناء قديم .. التراب زحف على
المكان الذي كان نظيف أمام باب دكان على خليل .. وكنس الريح
القش والقذاره وكدها هناك حيث المصطبه ومجالس الرجال ..
ثمة الآن رجال آخرون يجلسون في أماكن أخرى ، باب الدكان
مغلق كعين جثة مغمضه .. لقد مات على خليل ..

قالو هو في الدار بقيء دما في تلك الغرفة على السطوح ،
والغرفة النظيفة والباحه أمامها والسلم الطينى الضيق والكانون من
حيث صعدت الصواني للدراويش محمله بالطعام حيث امتلات الغرفة
بالرجال والسرور حتى لتكاد تقع .. هناك جلس يتلوى ويميل يدلق
الدم على الجانبين وحوله الرجال .. قالو للحاج كريم أنه في الدار
يفيء دما، العربة تأخذه الى طنطا وتأتى به والعربه تأتى بالطبيب
من طنطا وتذهب به والرجال يسربون شاحبين حزاني الى صالة
الدوار والفانوس مدلى من السقف على خليل يقىء ، وتعلق عيننا
الحاج كريم بالفانوس ولا ينبس بنت شفه .

كان على عبد العزيز أن يعرف حينئذ ، شيء بدأ ولا شيء
يستطيع أن يوقفه لكنه لم يدرك ذهب الى الاسكندرية
الى كليته يدرس ويناقش ويضحك وينشر أحيانا اشعارا حزينه في
مجلة الحائط ويرسل الخطابات الى أبيه يطلب النقود .. لماذا لم
يفهم لماذا لم يبق هنا معهم .. كان ثمة شيء يجب أن يعمل .. صرخه
أو كلمة أو دمه لكن أن ياتيه رجل صغير الحجم طويل الذراعين
ويجلس أمامه ساكنا ثم يقول له

- قوم سافر

ثم يبدأ كل شيء ... لا ، لكن ذلك ما حدث ثم خاض الظلام

وفى قاع الكلمه كانت المأساة التى يعيش عبد العزيز تفاصيلها
الآن .. كم ضحكت رشيدته وكم ضحك معها عبد العزيز والآن كم
يبكيان معا

ليلتها كان يجرى وهذا هو ما وجد فى الدار ، لن يهرب ،
سيحمل النير على رقبته ويسير مثل بقرتهم القديمة السوداء كسير
هو مثل فرهود لكنه يسير حاملا قلبه فى صدره .

ليلتها سلم عليه ، فرهود ثم استدار ودخل الدار .. أى دار ..
فقد ماتت امراته الحاجه ، الموت قدر لا يرد يقطع من القلوب حياتها
المرأة ذات الكيان الدقيق النظيفة اليدين الضيقة العيون المبتسمة
دائما عن صف اسنان دقيق أبيض كان عبد العزيز وهو صغير يأتى الى
دارهم وهى تنظر لعمر فرهود بحنان باسم

- الصبح تتكل على الله بالصباحير يا عمر .. فى الصلاة
البدرية .. ؟

ويهز محمد فرهود رأسه فى رضى

- ان شاء الله ..

ويقف عبد العزيز على حافة ودهما يتفرج ، صغير لكنه شاعر
بهذين القلبين الحبيين .

لقد كبر ابنهما .. فشل فى دراسته فتركها
.. وهو الآن سمين أبيض له سنه ذهبية وهو احمق متسرع قاسى
تزوج بفتاة سمينه قاسيه العيون لها ارداف تمشى تدق الأرض وهو
يجتاح الدار وأبيه بالصياح ..

وعمر فرهود مسكين فى ركن الدار جالس أمام جملة البارک
يطعمه لا شيء سوى هذا الجمل ..

يشبك مقوده فى ذراعه ويسير وراءه، عملاق طيب شامخ الراس

لا يرى الا الاشباح وقطرات الضوء الصفراء تسير لتعمق ابهامه وبهيمته .

لا يزال الليل بهيما لا يدرك منه سوى حقائق شاحبة لا يستطيع الإمساك بها ، ضرب على أم راسه حتى لا يكاد يرى ..

جلس الرجال حوله نى وسط الدار ، الكل صامت وعلى الرف الطينى فى الحائط مصباح يرسل من الظلال أكثر ما يرسل من الضوء وفى الخلفية تتحرك الأم وبنات الحاج كريم فى مسارات مبهمه وهمهمات غامضة تنوش هوامش وجدانه ، الحقيقية تزف الى وعيه مؤطره باطارات الحداد والغموض ..

اتى به من المحطة محمولا على أذرع الرجال ، سرق من جيبه حق العنبر ، كل هذا الطريق من المحطة الى الدار محمولا معروضا على العيون يدا مريبه تدرس بين جلبابه الكشمير الكبير وصداره الشاهى لتفتش اشيائه ..

وينكش أحمد بدوى الأرض يعود فى يده وهو متربع على الأرض دون فرشته

- أنا كنت معاه

ذهب الى المركز ، الى بنك التسليف ليقترض مبلغا من المال لا ارض كانت قد بقت تقدم بحيارات اخوته للضمان صرخ فيه الموظف الشاب وقف ذليلا أمامه يستمع للشتمات ويقول أحمد بدوى

- قلت له يا فندى عيب ما يصحش .. دا راجل كبيرا له قيمته

وصرخ الأفتدى

- أطلق يره

وسقط الحاج كريم ..

ربما يكون هذا ما قد حدث أو ربما غيره .. لم يعد عقله يبحث عن التفاصيل .. لقد غفل عن الحقيقة حينما بدأت تتكون فعما يبحث الآن ، كان عليه أن يدرك من الاول أن عالم الحاج كريم بدأ ينهار .. حينما كان يجلس وحيدا لساعات طويلة فى شرفة الدوار والناس يمرون فى ظلام المساء يقرئون السلام فى همس ثم يواصلون السير .. حينما يجلس وحيدا .. صامتا لساعات طويلة وهو الرجل الذى صناعته الكلام والموده .. كان على عبد العزيز أن يدرك وقتها ، لكنه غفل فاذا عما يبحث الآن .. أصبح كل شيء قليل الأهمية .

انعقدت مجالس الرجال بجوار الحيطان على الكيمان .. وعلى المصاطب فى طراوة العصر أو غدوية الضحى أو طلاوة القمر .

- أبوك شطب قبل ما يقع .. رنا معاك .

احضروا له الطبيب ووصف له ادوية كثيرة وقال يأكل الفراريج الصغيرة والخضروات المسلوقة .. لكن لا شيء الآن فى الدار .. لا شيء ، كلهم يأكلون الخبز والجبن وهو يأكل الخبز مغموسا بالسكر .. لا شيء عندهم سوى هذا .

ليتها أخذته امه الى غرفة المعاش .

- عندنا كل حاجه يا خويا

قصيرة سمينه مكينه الجسد نشيطة عينهاها يا حثنتان لا تنظران لاعلى ابدأ ، تدور فى الدار لا تكل تنقل هذا وتشيل ذاك تكنس وتفسل تخبز وتعجن لا تقول لا ابدأ دائما

- طيب حاضر

نظر الى غرفة المعاش الاوعيه فارغه الا من بقايا هزيله تريد أن تخدعه لكنه يعرف .

- عندنا كل حاجه يا خويا

- طيب

وحلقات الرجال المحيطة به على المصاطب او الكيمان أو بجوار
الحيطان

- بيع القيراطين اللى فاضلين .. مالممش لزمه .. ماينزرعوش
.. كفاية فدائين الوقف دلوقتي .

والدائنون ، باعة جائلون واصحاب دكاكين وفلاحون كلمتهم
لاترد .. يعرف عبد العزيز انهم لا يكذبون ، لا يكذب احد في حق
الحاج كريم أبدا، كل لحظة يسدد دينا جديدا .. القناة تنضب بأسرع
مما يتصور وهو يعمل ذهنه لتدبير ذلك البيت الكبير .

لكن ما جدوى أن يسلم الانسان نفسه اللهم ، هذا هو النهار
يطلع ، نهار جديد ، مواجهة جديدة للكروب تمهل عبد العزيز وهو
ينزل السلم الى وسط الدار ليس متسرعا لخوض الغناء لماذا لم
يخلق على شاكلة امه .

انها لا تفكر ابدا طول عمرها هكذا حازمة جهمة تنهض من
فراشها لتجد شيئا بجوارها تعمله وتبقى طول نهارها تعمل حتى
تصمت الحياه من حولها وتسلمها للنوم .. الا تفكر .. ؟ الا
تفترسها الهموم وتسلمها لان تفتح عيونها في الظلام سحابة
الليل .. ؟

نزل عبد العزيز درجات السلم متمهلا ، الدار شيء جديد
يعرفه ويصحوا عليه كل يوم ، الأم والاخوات يدورون كالذئاب
الحمراء .. الوجوه متمه قانطه وغاضبه ومغمه بالخوف والمرارة
والاب جالس على المصطبة كتف انحل من الآخر قليلا وأكثر ميلا
ووجهه مقبر ربما من غبار الطريق السذى يقطعته كل
يوم الى المحطه بلا كلال لكنه غبار لا يعالجه الفصل الدائب .

يداه متمعانتان في حجره وعصاه بجواره ، لم يعد
يستغنى عنها وقد بقى له الشلل النصفى بعد صدمة المرض
الأول .. وذلك الدهول في عينيه ، عيناه البنيتان البارقتان بشوق
لا يبيل فيلتفت حوالبه كطائر مطارد صرخ حينما رأى عبد العزيز .
- افتحوا الباب .. افتحوا الباب .. سيبوني في حالى ..
عاوز اسافر ..

تمزق قلب عبد العزيز للمرة المليون اسرع الى ابيه ، لم يعد
البنات يحتملنه اصحن يشكين منه ومن عذابه لهن .. اثنان
فقط الام وعبد العزيز يترضيانه بلا كلال .. الام تسرع نحوه
وتقف امامه كأنما تفرد معه شال العمامه وتساله عما يريد
وترضاه وعبد العزيز يجلس الى جواره ويحدثه عن الطريق
والاخوان ومزارات الاولياء ويخرج به يمشيان على هذا الطريق
طويلا ثم يعودان .. هكذا بلا كلال ..

لكن عبد العزيز في هذا اليوم فرغ صبره توجه نحوه

- يابا ما يصحش كده

قالها صارخا بكل ما في قلبه من الم ويداه مرتفعان في شكايه
مريرة ، لكن الاب المدهول تصور ان عبد العزيز يهم بضربه ذعر
ورفع يده السليمه مدافعا عن وجهه ومال مرعوبا .. انقلب
عبد العزيز منهارا طعين القلب وهو يعوى من الالم ولو عاش
عبد العزيز بعد ذلك الف عام لما غفر لنفسه ان ترك الحاج كريم
يتوهم ما توهمه ..

خرج ، جلس على المصطبة امام باب الدار طلب من احدى
اخواته ان تعد له الحمامه السوداء الكبيره ، لا تزال صابره ،
عجوز وصابره ، وضع على ظهرها عدة الساقية وركب عليها وناولوه
حبل الجاموسة ، كان داب الحاج كريم ان يقتنى كرائم البهائم

وتلك الجاموسة فريدة في البلد ، لا يزالون يحتفظون بفدانين في أرض الوقف واليوم موعد الري .

ركب عبد العزيز الحماره السوداء وسحب الجاموسة وأمامه على الظهر الطويل عدة الساقية وسرح الى الفيظ ، يرتدى جلبابا ريفيا وطاقيه صوفية حمراء والطريق أمامه يصعد بين الحقول وشمس الطباح طرية مغرية ..

قال الاطباء لقد ضاقت الشرايين والدم يعانى لكى يتدفق في هذه المسارات الضيقة فتنضج الشعيرات الدموية عند منتهى الاورده ماءا يتجمع في بحيرة صغيره فوق المخ فيعطله ويربك دوره .. ولا بد من ان تحقن الاورده دائما بمحلول الجلوكوز ولا بد من اتباع نظام تغذيه دقيق ولا بد من عقاقير كثيرة لتعمل على توسيع الشرايين .. من أين .. لا يملكون شيئا .

اصبحت الحقائق غارية اصبح الحاج كريم شرايين واورده ومخا ترقد عليه بركه صغيره من الماء اصبح الحاج كريم مذهولا صائحا شبه مجنون ودارت الايام حتى زعر من تلويح عبد العزيز بيديه في الفضاء، لن يفغر عبد العزيز هذا لنفسه ابدا .. المعرفة والالم والعجز ، المخ والشرايين والاورده والمأساة ، اين العالم الماضى .. اين الكرامات والأولياء ودعوات الرجال والنساء سيبقى البيت مفتوحا .. ستبقى دارا للطعام والضيغان .. لاشيء ياكله الحاج كريم ، انهار العالم بلا رجعه تمزق بقسوه .. ما العمل .. لا شيء .. سواد وقهر لا يوصف ..

حمارة صديقه سمراء ، طيبة تعراف المكان ، قبالة الساقية وقفت .. نزل عبد العزيز عنها واطلق مقود الجاموسة وانزل عدة الساقية على الأرض تهلت الحماره تنهدا عميقا .. مسح عبد العزيز على رقبتها وتامل كابة وجهها « مخلوق آخر وحيد » ركن

راسه على رقبتها واغض عينيه ثم احتضن رقبتها وهى ساكنه تتنفس ببطء ، ربطها في الشجرة ركب العدة في الساقية علق الجاموسة وربط العصا على عيتها وزعق فيها فانطلقت دائرة بالساقية وصوت التروس المحتاجة الى التشحيم وانهمار الماء فى الجرى يصنعان الحياه فى قلبه ، جاموسة رائحة مكتنزه سوداء لامعة الجلد متناسقة التكوين عامرة البطن بجنين .. ستلد بعد فترة وجيزه .. ضحك قلبه ربما ياتى الخير ويشمى الحاج كريم فالاطباء يقولون شفاءوه ممكن مجرد ضغط دم وهو سليم فيما عدا هذا ، غنى عبد العزيز وصوته غارق فى ضجيج الساقية ..

الحلو لما نعس صحوه بالقانون

والورد لما دبيل رشو عليه لمون

ثم ضحك لخفة عقله وسار متتبعا مجرى الماء فى القناة مشمر الأذيل والاكمام يطهر مجرى القناة امام تيار الماء .

تلك هى أرضهم - تملكها الأميرة فاطمة هانم - لكنها أرضهم صفراء كالذهب بجذور اعواد القمح المحصود ، منشقة واسعة ذات سمرة مذهلة الثراء .. رقد على بطنه مدد ذراعاه وساقاه على آخرها يريد أن يشتمل أرضهم فى حضنه فى بطنها آلاف العروق والقنوات الدقيقة كونتها المسانات بين ذرات الفرين الاسمر البراق ، رثة هائلة تنفس وتخصب وتجدد .. ياربى .. هو ابن هذه الأرض وهؤلاء الرجال ..

جلس ضامنا ركبتيه الى صدره من بعيد رأى محمد كامل مقبلا فى سرواله وصداره متمنطقا بشمله من الصوف وجهه مدبوغ بالشمس ..

- سلامو عليكم يا سى عبد

- اهلا ازيك يا عم محمد يا كامل

عبد العزيز يتأمل الماء يبرق في الشقوق كمينون
مختفية .. سار على شاطئ القناة حتى الساقية ، الحمامة
ساكنة بجوار الشجرة والجاموسة دائرة في ضجة الساقية
مكتنزه عارفة زعق بها فتسمعت عمياء العينين ثم اندفعت تدور
لكنها قفزت الى اعلى ثم سقطت على أربع ثم وقفت ساكنة
رافعة يدها اليسرى عن الأرض ..

وقف صرير التروس وبدا الماء يتمهل في تدفقه .. ثم بدأ ينز
ضعيفا كالدموع وقف عبد العزيز مذهولا مغفورا الفم ثم جرى الى
الجاموسة فحل عصابة عينها .. وفك خناق رقبتها وأزاح النير
عن كتفها ووقفت في مكانها لا تورم سحبها من مقودها عجزت عن
الحركة تحسب كتفها عند اتصال ذراعها بجسمها تمللت من
الآلم انشقت الأرض عن فلاح شاب لم يعرفه عبد العزيز ساعتها
فقد كان أعمى لا يرى ..

- اوعى انت
وبيد خبيرة قصد موطن الداء
- الجاموسة انكسرت

سحق عبد العزيز .. سحب الشاب الجاموسة من عقودها
مشيت على ثلاث تكاد تقع ، خطوتان ثم وقفت تماما ..

- لازم عربية عشان نروحها البلد

لم ينظر عبد العزيز ناحيته ، حل وثاق الحمامة ركبها عازية
الظهر وسار بها ناحية القرية ظهرها طويل وهو في وسطه تماما
ساقاه متدليان كهندي احمر ، والحمامة الحكيمة تمشي متراخية
ربما تعرف الا جدوى من العجلة ..

لم يكن ثمة شيء في رأس عبد العزيز ولا في قلبه خفيف
الراس لا يعي ثم فجأة تدفق من كيانه الغناء

له عذوبة الصوت القديمة، العمق والرقّة، الصوت الذي أسر
عبد العزيز طول حياته وفي وجهه تلك الطيبة التي لا حدود لها .
لكن شيئا ما قد تغير شيئا مالا يستطيع عبد العزيز ان يمسك
به .. ذلك الجار في الأرض وفي الدوار رقيق مجالس الاخوان
طول العمر ..

لقد طلق فاطمة منذ مده وتزوج امرأة اخرى ، امرأة محتلثة
كبيرة الأنداء .. ملات داره بالعيشال امرأة لا تكل ، منذ الفجر
على الأشجار كالغراب لا تدل الحفر بيديها في الأرض ، شدت
محمد كامل وراءها لم تعد تراه جالسا أبدا ، طول النهار في
الحقل بسرواله وصداره متمنطقا بشمלתه الصوفية ومنحنى يضرب
يفأسه في الأرض لا يتكلم كثيرا .. واذا تكلم فبنفس الصوت القديم
لكن عيناه لم تعودا تحلمان ينظر الى الأرض في انكسار ويحمل
فأسه ويسرح الى الحقل قلقا قليلا وأحيانا ملهوجا قليلا ثم خجلا
وضاحكا في تردد هذا الوجه ليس من صنع القانوس في صالة
الدوار بل من صنع شمس الحقل الفائضة في وقدة الظهيرة لم
يسأل عن الحاج كريم وإنما كلم عبد العزيز .

- حاتروى النهاردة ياسى عبد

- انشاء الله

- ربنا يعينك يابنى

- هقف على الحد اللي بينا وبينك .. مافيش ولا نقطة ميه
هتيجى عندك .. انت خضرت بدرى ياعم محمد .. ميتتب مش
حتعدى عندك

استدار ومشى وهو يقول

- كل شيء بيد الله .. ماتتعبش نفسك .. ادينى هنا .. وربنا

المعين

كنا بنعمة وكان السعد خادمنا
صبحنا نقول يامين يتاوى الغرايب
غريب يا ولدى
آه

ثم ضحك بأعلى صوته ، وحيد هو والناس على شطآن الترع
ومن المسارب الصغيرة بين الحقول يجرون نحو الجاموسة المكسورة
لا تدرى كيف عرفوا الخبر لكنهم بالثبات ذبول ثيابهم فى أسنانهم
وسيقانهم تسابق الريح والحمارة تسير به رخية الخطوة مدلاة
الراس وهو على ظهرها يخضه سيرها الوئيد ويترنح كأنه مصنوع
من هلام ..

وقت طويل بلا نهاية حتى وصل الى مشارف القرية وأمام
باب دار أحد أعمامه جلس هذا العم وحوله الرجال ،
تجاوزتهم الحمارة حاملة عبد العزيز دون وعى ترجل وتركها
تمشى الى الدار وانشقت الأرض عن امرأة نحيلة دقيقة معروقة
حولاء مشعشة الشعر اندلعت فى وجهه ، يداها مشرعتان مفرودة
الأصابع كأنما ستخفه وصرخت فى وجهه

— ماتخافش يا خويا .. فداك .. فى دهية يا خويا .. لونك
مخظوف ليه كده يا خويا

فى هذه اللحظة افاق عبد العزيز وادرك كل شئ وسالت
دموعه على خدوده مسحها بباطن كفه الملوث بالطين .

اطل من باب العار ، دائرون كالدنابير الحمراء المسمومة ،
تمة شئ غير عادى وجوههم منفعة كل واحد على وشك الصراخ
رجع والقى بجسده على المصطبة .. هنا كان يشرب قهوة العصر
وكان يأتيه ابراهيم الجمل بالجريدة حاملا له خبر المولد ترك ابراهيم

الجمل القرية دون سلام ترك فى النفوس شيئا لكنه مشى دون
سلام .. ، اللعنة على كل الاشياء .. ابن الحاج كريم
خرجت اليه احدى اخواته
— أبوك طلع المحطة

طيب .. ثم ماذا .. اقتلونى ..

— ومرات أبوك سابت الدار ومشيت .. عند اختك .
أحد أبناء أعمامه مشى وئيدا متجها اليه وساعته فى يده
يملاها ببطء وينظر فيها ثم يضعها فى جيبه

— هيه .. يا عم عبده .. زهقت ؟ ..

وابتسم له

— انا بس .. هيه .. على رأى المداح

لو كنت يابين تدادينى .. تدادينى

الا انت يا بين بتكيل وتدينى .. وتدينى

— قوم شوف أبوك .. زمن المداحين راح

نعم راح زمان المداحين .. وراحت اشياء كثيرة ، دون سلام ،
كما راح ابراهيم الجمل ، مشى على الطريق الى المحطة ، الناس
مشغولين ، لكنهم يلقون عليه نظرات عاطفة وبمصمصون شفاهم
ويمضون ..

فى دكان على خليل يقف ابنه الصغير .. نسخة صغيرة
خضراء من على خليل يزن فى تردد ويعد النقود فى حرص وخلفه
امه تنتظر اليه فى قلق وحنان كما كانت تنظر الى على خليل ..
ابتسم عبد العزيز ..

وهنا دار عمر فرهود ، هو جالس أمام الجمل يطعمه بلا كلل
والجمل يمضغ واسع العيون مستطيل الأنف كابله صغير ..

وهذا زوج رشيدة ابن هي ربما يشغلها امر من أمور الدار
انتهت صفوف المنازل وانبسط الفضاء والطريق ماش في اعتدال
الى المحطة وهناك يمشی الحاج كريم في وقدة الشمس يتسند
على عصاه صغير الحجم مائل الكتف وذراعه المريضة جامدة في
جنبه متعثرا على الطريق الطويل الذي يمتد ورائه وامامه يمضي
لا ينحرف وراسه مشرعة الى اعلى دق قلب عبد العزيز اسرعت
خطاه حتى ادرك اباه مد يده وسنده من تحت ابطه جسده هس
متهاك ووجهه مغبر لكن ملامحه هادئة رقيقة وعيونه البنية مليئة
بشوق يقطع القلب ..

– رايح فين يابا

وتكلم الحاج كريم بصوت رقيق هادىء الثبرات كأنه موشك
على البكاء

– مسافر يا بنى ارواح الشرقية .. اشوف الناس .. بهي
لى مدة ماشفتهمش يا عبد العزيز .

حاول عبد العزيز برقة شديدة ان يغير مسار ابيه ويعيده
راجما على الطريق ، الناس فى الحقول يتركون فتوسهم وينظرون،
على الطريق وبضعة عيال يلعبون يتركون لعبهم لحظة ثم يفرقون
فى الضحك ويفرون هاريين ..

– سبنى يا عبد العزيز .. سبنى اسافر يا بنى .. حرام
عليك

– لسة بادرى عالقطر يابا

– استناه .. استناه يابنى

– طيب .. مش تغير هدومك .. هتسافر كدهه .. فى

الهدوم دى ؟ ..

– ايوه .. زى مانا كدهه .. هيجرى ايه ..

ويمود به .. تهدم الرجل تهدم الكيان كله وبقت العيون
المشتاقة عبد العزيز يسير به كأنه طفل يحتاج الى رعاية
ويستريحون قليلا على مصطبة رشيدة وتنظر الى ابيها وقد
عجزت عن كبح دموعها فتبكي وجسدها يرتجف بالدموع .

– ايه اللى جراك يابا .. يا حسرت قلبى يابا ماتفسلهاش
مية النيل ..

وينظر اليها الاب ..

– بتعطى ليه يا رشيدة .. هو انا جرى لى ايه انا عاوزاسافو
سيبوني اسافر .. حرام عليكم ..

وياخذه عبد العزيز من تحت ابطه ويسنده عائدا الى الدار
ويتجاوزان دكان على خليل وفجأة من حارة جانبية تبرز روايح
ساحبة العايق الذى عميت عيناه ، تسرع به وهو يتعثر ويتخبط
ويتحسس ماحوله بعصاه .. تصرخ روايح :

– حبيبك ايه .. الحاج كريم ايه يا عايق

وتدور يدا العايق فى الهواء بحثا عن يد الحاج كريم وياخذ
عبد العزيز يده الى يد الحاج كريم ، عيناه بعيدتان لا تنظران الى
العايق تتجاوز انه الى بعيد والعايق رث الثياب يربط راسه بخرقه
متسخة ويستر عيونه بفضلتها .. يصرخ ويجهش فى البكاء ..

– انا عميت يا حج كريم .. انا عميت يا حج كريم

وتلول روايح فى نفس الوقت

– طول عمركم حبايب .. كنتم منورين البلد

ويقبل العايق يد الحاج كريم والحاج كريم يتكلم بصوت
خافت

- متعيطش يا عايق .. عاوزين نساfer .. عاوزين نساfer
يا عايق البس هدومك وتعالى

وتسحب روايح العايق وتمضى به ويأخذ عبد العزيز الحاج
كريم ليعود الى الدار

كانوا يحلمون بموت روايح وبالريش يثبت في وجهها جزاء
ما سرقت من دجاج وها هي تسحب العايق الاعمى وتدور طائرة
اللب صارخة في الشوارع والحارات .

ترك عبد العزيز الحاج كريم يدخل الدار وانهار جالسا على
المصطبة ليس في كيانه ذرة واحدة قادرة على المقاومة ركن راسه
على الحائط وأغمض عينيه لكنه فتحها مرة اخرى على صوت
يناديه

- قوم كلم عمك

نظر الى الولد في سكون الولد يبادلُه النظرات في خوف ثم
مضى وقام هو يجر جر اقدمه نحو مجلس الرجال

على كوم التراب امام باب دار عمه جلس الرجال ، لا يتركون
الكارثة تذهلهم فهم رجال يقظون غارقون في التفكير ينكشون
التراب امامهم ويرسمون عليه الأشكال ، افسحوا له مكانا فجلس ،
الجاموسة غير بعيدة راقدة تجتر حملت من الحقل على عربة يجرها
بغلان فكت عجلتى العربية من جانب ودحرجت الجاموسة على
الأرض وها هي الآن راقدة تجتر ..

هؤلاء رجال غير رجال ابيه ، صارمون يضحكون بقوة، يجلسون
في العصارى لكن ليس حول حديث طيب ودود بل حول المذايغ
يستمعون للنشرات ويعلقون ويتكلمون بحماس مليئون بالمرارة
ومتعجلون وصارمون

على اطراف المكان ابصر عبد العزيز وجه الشركسي النجار
اصفر صفرة الموتى وذابل العيون ناحل وجهه جلد على عظم
يعانى من الكبد منذ سنين والآن مع كل نفس ربما تخرج
روحه .. ورأى أحمد بدوى ، وجهه مبتسم ابتسامة تنطوى
على القنوط والازدراوء لكنها بسمة حنونه فيها روح الايام الماضية
طاف عبد العزيز بوجوههم وبادلوه نظرات مؤاسية ..
اقبل الرجل على الجالسين راكبا ثم نزل عن حماره وسلم
وسلمو عليه

- اهلا .. ازيك يا معلم محمد

قام هادئا ونظر الى الجاموسة ثم طلب من الرجال أن يقيموها
هجمت جموعهم عليها دسو العصى الطويلة تحت بطنها ورفعوها
حتى قامت تحسس الرجل مكان الداء .. سهم قليلا ثم نفض يديه
بعضها واستدار للرجال

- مافيهاش رجا .. الفتيلة اللي رابطة لوح الكتف انقطعت
لاكى ولا حزام .. ممكن تعيش كدة .. تقوم وترقد بالرجالة تحلب
وتعشر بس ماتقفش ..

وتكلم العم بحزم

- ماعدتش تلزمننا

ورد الرجل

- عوضكم على الله

كان عبد العزيز يتفرج على مسرحية غريبة دس العم يدة في
جيبه وأخرجها مطبقة ..

- حق الدخان يا معلم

- عافنى ياسيدى .. الحاجة اللي مافيهاش رجا .. ماتخذش
من وراها حاجة ..

اتجه الى حماره

- استنى ناكل لقمة

- بالهنا لكم

ثم ركب حماره ومشى كأنه الطيف وتكلم احمد بدوى

- الجاموسة دى تندبح وتتفرق علينا وكل واحد يدفع اللى
يجى عليه نجمد حق جاموسة سليمة .. يتفرق علينا حقها وهى
سليمة ..

ورد العم بحزم

- استنى يا احمد

وكانما خجل احمد بدوى من رايه

- الحاج كريم كان بيعمل كده .. كان بيدبح بايده ويفرق ويلم
الفلوس ويشترى جموسة احسن من اللى وقعت

ورد العم متنهدا

- مفيش داعى

- نشوف الخراب ونتفرج

- ربنا كبير

والتفت الى الجزارين الجالسون ينتظرون

- صلى على النبى فى الجاموسة ياسعودى

وتمللم الرجل وبادل زملاؤه النظر

- الحاج كريم خيره علينا

- انا ماقلتلكش انصل الحاج كريم

وتجاسر الرجل اكثر ومرت سحابات بوجوه بعيد

- الجاموسة عشار .. العشر بيخسر اللحم

- حتخط ؟ .. الجاموسة لحمها ذى الذهب الابيض

واغمض عبد العزيز عينيه وسرح وافاق على يد عمه تضع
فى يده النقود

- مبروك عليك فلوسك .. وانت يا سعداوى مبروك عليك

جاموستك ..

نظر عبد العزيز الى الجاموسة لا لزال تجتر راقد لم تعد
لهم كانت امه تهمس خائفة وهى تراها عائدة من الحقل شبعى
فحلة مكتنزه حافلة الضرع

- بسم الله ماشاء الله

وكانت تهمس وهى تنظر اليها سارحة تخور ملهوفة على
السروح

- بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم النبى يحرسك

وكانت تجلس تحتها القرفصاء والشلية على ركبتهما واللبن
يشخب من الضرع حتى تمتلىء الشلية واللبن مختوم بالرغوة
الفائرة وعبد العزيز جالس فى المزود امامها يداعب راسها واذنيها
ما عادت لهم .. ولا لانسان غدا تعلق لحما فى خطاطيف الحديد

كان عبد العزيز سارحا يبتسم فى اسى يشغله احيانا وجه
الشركسى النجار كم كان ذى رواء تحبك عليه اللبدة البيضاء فى
اناقة ، الان هو نصف ميت .. لكنه ينحدر فى الشارع متسندا على
عصاه حتى يلحق بمجتمع الناس على كوم التراب لا أحد يحس
به يجلس فى منتهى المجلس نصف نائم لا يستطيع طرد ذبابات
ملحاحة شرهة تنوش وجهه .. الناس ضائقون به ربما .. او ربما
هم ضائقون بعبد العزيز ذاته ..

الشمس اصفرت للمغيب وقد آن أوان الرواية المسلسلة فى المذيع وربما صاحب المقهى قد فرش دكتيه بالحصير ورش الأرض بالماء وتصب براد الشاي على الواور وجهاز القوالح للجوز ، لابد ان الشوق فى قلوبهم الآن للقيام هناك سيتكدسون فى تلك الغرفة والمذيع هائج بالصراخ وأوراق الكوتشينة تصفق على الطبيالى المرصوة على الأرض والنار تتوهج فى قمم الجوز والحديث الذى لا ينتهى لانك لا تعرف كيف بدأ ليس حديثا ولكن سوق كلام وزباط وهيصة ..

ربما هم ضائقون به الآن ويجاملونه بالجلوس قليلا معه فى كارتته جسمها العم فى كلمات والآن هذا موعد مقهاه .. كان الناس فى الماضى يتحدثون بتودة ويحيون دونما جلبة اما هؤلاء فانهم ضاجون ضائقون .. السياسة الجمعيات التعاونية .. الاقطاع .. الظلم .. كيندى .. خرشوف يجب ان يقوم عبدالعزير ..

لكنه يتباطأ .. فان جلستهم تروقه .. وانه ليود ان يزول ذلك الحرج الذى يستشعرونه وينطلقون بمرارتهم وسخريتهم .. لكنهم متخرجون .. نهض عبد العزيز .. وتلفت حواليه وهو نصف قائم فوجد أحمد بدوى ينهض أيضا ..

بعد انتهاء البيوت يفرش الفضاء واسعا يصعد متدرجا بالحقول البنية وخطوط الأشجار الذهبية حتى يلتحم بالسماء عند الأفق الشمس لينة الظلال تمتد طويلة متعثرة فى الحصباء ، تنهد أحمد بدوى .

– ليه ياسى عبد .. الدنيا بتعزل

القامة القصيرة الوجه الطفولى ذى العيون الضيقة انزاحت الطاقية عن بياض يكتسح سواد الشعر كل شىء يسقط

من حول هذا الرجل وهو لا زال يتسم ، حتى ابنه الكبير أخذ امراته وترك القرية الى القاهرة لا يرسل خطابا يتأمل الحياة حوله مدهولا لكته يتسم ابتسامته الطفولية دهشا ..

– هو ايه اللى جرى ؟ .. الله ! شىء عجب

ولازال يرتاد مجالس هؤلاء الناس يجلس فى الذيل ، وحينما يدار الكلام ينصت دهشا ميتسما وحينما تبلغ دهشته منتهاها يتكلم ، يتكلم كأنه جالس فى الدوار فى ضوء الفانوس الكبير .. لكنهم يرفضون كلامه .. فيسكت مغلوبا .. يتسم دائما .

تسأل عبد العزيز

– الشركسى النجار .. باين عليه تعبان خالص

ويسهم احمد بدوى قليلا ثم يقول

– بعد موت الولىة .. من نهارها ماقامتش له قامة

كان يوما غربيا ضحكت القرية فى اوله حتى التوت الامعاء ، كل قادم من السوق كان يحكى كيف رأى الشحات الشركسى بقناد اخته العانس كبيرة السن امامه وكيف يلاحقها بالرفس واللصكات وكل قادم من السوق حكى عن ولولة البية وشكوها الضحك ، وعن شتائم الشحات المخبولة وقسوته الحيوانية ، وكنت تسمع الحكاية على عشرات الأوجه .. لسكنك فى النهاية تعلم ان أم الشحات رأت ان تبيع دجاجة رومية وتشتري بثمنها خبا تطحنه فقد أصبحت وليس فى الدار كسرة خبز ، لكن الدجاجة ملك زوجة الشحات أهديت اليها من اهلها فى احد المواسم يحكون ويبالغون فى الحكى عن ولولة امرأة الشحات حينما افتقدت روميتها فلم تجدها وعن ثورة الشحات وهزولته الى السوق باحثا عن الدجاجة والأخت وعودته بها على ذلك الطريق مضروبة مشتومة مهانة تحمل على رأسها دجاجة مدعور تصيح ..

ضحكت القرية على هذه الحكاية فى الصباح وفى العصر انطلق الصراخ معلنا عن موت امرأة الشركسى النجار اقبلت تدفع الشحات عن ابنتها فرفسها فى بطنها تقيأت دما وقالت لناس وهى تلفظ نفسها الا يؤذوا الشحات قاتلها .

وفى المساء اقيمت المعزى وجلس الشحات بين المعزين جهما حاجبه ساقط على عينه يطمسها فكه هائل مندفع للامام شفتاه رقيقتان مزمومتان وجه مبقع الجلد وعلى كتفه تجتمع عضلات عظمية تشبه الحدبة

- ياسى عبد انا مانيش فاهم حاجة .. كان متهيالى انى ناصح جاء الشركسى النجار الى الطريق مشتاقا للويد ولبست امراته طوق الحديد حتى يعيش الشحات ها هو جالس فى المعزى ينظر .
لم ياكل عبد العزيز شيئا طول النهار اكتشف ان بطنه خاويه لكن نفسه لا تطلب الزاد .. نودى عليه استاذن من رفيقه وكر عائدا ..

فى دار اخته كانت زوجة ابيه متربعة على المصطبة مرتدية ملابس سفرها السوداء الحريرية وطرحتها محبوبه حول وجهها وتسند ذقنها على يدها وابنتها واقفه بجوارها صامته كسيفه جلس على المصطبة دون كلام ..

- امك يا عبد العزيز شتمتنى وهزاتنى

وبكت اجهشت فى بكاء مر عرف انها تبكى اباد ظلت سنين طويلة جالسة فى ركن الدار ترقبه فى سكون عله مرة يكلمها او يعرف الطريق الى غرفتها التى تفرش باعثناء يوما بعد يوم وتنام فيها وحيدة دون رجل .

- انا مسافرة يا عبد العزيز .. لى اهل .. الدار ماعدتش مطرحى

دموعها تغسل وجهها ذابل متفضن هرم لم يعد نعمة ما يدعو لغسيله بالصابون النفاش .. ابتسم عبد العزيز ابتسامة مرة فى داخله تدخلت اخته بنبرة هامة

- تسافر يومين .. تروق شوية .. وتبقى تيجى

وعرف عبد العزيز انها لن تعود عيونها مهاجرة كالطيور الغريبة خرج هو واخته يودعائها ، وحينما ضمته الى صدرها فى حنان عرف ان هذا هو الوداع الاخير ثم لم يرها بعد ذلك ابدا ، ماتت عند اهلها ..

كان نهارا غريبا تفكر فيه عبد العزيز وهو جالس على السطوح يتأمل صفاء الليل النجوم تتلالا فى سكون ، نسمة شمالية وقرافة ، حزم الحطب تتكدس على السطح فى الدور .. قمم اشجار الصفصاف . وهامات الحمير القديمة .. الغرفة الوحيدة القديمة خزائن اللبن والمعاش مخازن الحبوب الطينية مئذنة المسجد الجامع القصيرة الفليضة القبيحة ، قبة زوجة جده فى مقبرة القرية البعيدة

كان نهارا غريبا ماتت الجاموسة ، الآن زريبتهم خالية ما عدا الحمارة السمراء الكبيرة لعلها الان فى جوف العتمة مدلاة الراس تنهد فى حزن ..

مدد رجليه واستراح فى كرسيه فرشوا للحاج كريم مرتبة نام عليها ودثروه باللحاف انفاسه رتيبة تحدث صوتا وهم حوله صامتين

ام عبد العزيز متكومة على نفسها وغارقة فى النوم اذا لم تجد ما تشغل به يديها اغرقت فى النوم لم يراها ابدا سارخة

تفكر .. أو جالسة تحدث الناس وتستمتع بالحديث لولا تخرجها لتركتمهم ونزلت الى غرفتها ونامت ..

رشيدة والبنات جالسات ساكنات لكنهن يقظسات الرؤوس كالبوم القابع على الأشجار في العتمة .. ماذا يفعل عبد العزيز ثمة شيء يجب عمله ، هل يترك دراسته ويبحث عن وظيفة ثم يحملهم جميعا الى المدينة .. أيقوى على أن ينشئ دارا في أرض جديدة ؟ .. هل يرحل وحده ويراسلهم بالنقود والراي ؟ ..

مجلس تكون فيه رشيدة والحاجة شوق لهو أبهج المجالس ابتسم عبد العزيز في مرارة وهو يرى شبحتها قادما .. الحاجة شوق

- مسا الخير ياولاد

وردوا عليها هامسين انتبهت أم عبد العزيز تماما كأنما هي متوفرة للعراك وجلست الحاجة شوق على الحصر ساكنة ، نظرت ناحية الحاج كريم مدثر باللحاف ساكن .. سلام على الأيام الطيبات والكلمات الودودة والنظرات الطافحة بالشوق والحدود الزهدية ولت الأيام ..

- آدى حال الدنيا

... التي كانت يوما .. هي الآن مغرمة بضروب العطارة وصنوف النباتات والأعشاب الغريبة والأشياء السحرية الصغيرة .. لكن لا شفاء لصداغ رأسها ولا لسوء مزاجها وكأبة نفسها تطلق سمكة ذهبية في مندبل رأسها وحجابا في طرف غداثرها وتربط ورق نبات خاص على اصداغها .. أشياء تغليها وتشرب ماءها على الريق أشياء تدلك بها نفسها شبكة من الوصفات والتمايم والمعقدة حناء للمقاصيص البيضاء المتدلية على الأصداغ ، لا تريد أن تشيب ابدا مدت يدها بشيء الى أم عبد العزيز

- خدى يا ست أم عبد العزيز .. تغليه وتدعكي به ايده اللي بتوجمه

- طيب ياختى

اخذت منها اللقافة ووضعها باهمال بجوارها باهمال وعدائية قامت لم يرد أن يستبقها ربما تكون اقل كآبة بين اشياؤها واحفادها - افوتكم بعافية

واللقافة ملقاة على الحصرة ، كانت هذه الأشياء ذات جدوى ربما في الزمن القديم .. ابتسم عبد العزيز في داخله .

ذات ليلة جاء العراقي يعود الحاج كريم في وعكة الت به . - مالك بابا الحاج

ويشير الحاج كريم الى رأسه الموجوعة ويصيح العراقي - راسك مفتوحة بابا الحاج

ثم يطلب مفتاحا خشبيا ومندبلا كبيرا وبخورا وشمعا وزيتا يتقافز ويجرى طقوسا وقراءات بلسانه المهشم تميت الجالسين من الضحك وأخيرا اطلق البخور وذلك بالزيت المسخن على الشمع وعقد المندبل وادخله حول راس الحاج كريم ثم أولج المفتاح في العصابة وبدأ يديره والعصابة تضيق على الراس حتى صرخ الرجل الما فصرخ العراقي فرحة وانتصارا لاعادة غلق الراس ومسات الحاضرون ضحكا ..

الآن لا شيء من هذا يجدى ، المطلوب ادوية غالية ونظام تغذية وزيارات طبية متوالية .. ولا شيء في الدار ، لا شيء يجدى وصفات شوق أو طب العراقي حتى حياة العراقي اصبحت دورا هزليا لا يشر احدا يطير على عجلته ذاهبا لعمله .. ويطير راجعا لا يلتفت ناحية الدوار ، الارائك عليها التراب لا احد يجلس هناك

كان نهارا قريبا يتأمل النجوم الحائرة الدب الكبير يدور حول
النجمة الالامعة الوحيدة الصاعدة نحو الشمال كميون ابنه هداة
الليل ثم الفجر ثم نهار جديد بعنائه وشاكله ..

سمع خفق شبشب على السلم ، وبدت سميرة طويلة القامة
مليئة تحمل ابنها على كتفها ويطلق بها بصر عبد العزيز ، ساهما
شاردا ، ليس في راسه فكرة واحدة ..

– مساء الخير

وتأتي الردود هامة مترددة

– مساء النور ياختي اهلا وسهلا

ثم تبصر عبد العزيز وتهتف ..

– عبد العزيز

وتسرع ناحيته ثم تلقى بنفسها على ركبتيها امامه واضعه
يديها على ركبتيه ..

– عبد العزيز وحشني اوى يا عبد العزيز .. يا سلام نفسي

اشوفك بشكل

تتكلم وتضحك صوتها تطلق رائق وسط السكون من حوله ،
باهر كالنجمة الزاهية الوحيدة في بحر الظلام ، شيء سقط في
روح عبد العزيز ثم بدا ينتشر ويسرى في كيانه دمه رائقة لم
يعرفها منذ وقت طويل بدا تشمله وتهزه وضع يديه على يديها
المستريحتان على ركبته ..

– اهلا سميرة .. اهلا

وهي تواصل اندفاعها المنفرد في صمت الوجوه من حولها
لكنها تلتفت فجأة وتكتشف وتحس . انها تصيح في جبانة ساكنة

الشواهد تسكت مكسوفة وتدور تبحث عن شبشبها حولها تلبسه
وتستدير نازلة ويتأمل عبد العزيز ظهرها وهي ماضية ويحس
بأن سروره الذي غمر روحه يستلب منه ويغرب عنه وهي تمضي
رويدا ، هتف متشبثا

– مستمجه له يا سميرة

– معلى

نهض من مكانه لم ينظر الى الجالسين متحلقين كآبى صامتين
وانما كان كل احساسه بها وبها وحدها ..

– استنى جاى ممالك اوصلك

ظلال الدور على ارض الشارع حالكة السواد وضوء التمر
اخضر زاهى على الحيطان ، حطب العرائش رطب بالندى يشدلى
اهدابا من السقوف المساء عذب وروح عبد العزيز مشوقه للانطلاق

– ازيك يا سميره ..

– حلوه ازيك انت

طويله تكاد كتفها تصل الى كتفه مشيا في هذا الشارع في
البكور ليلحا قطار الصباح الى المدرسة ، كبرت لكن قلبها لا يزال
ابتسامتها واسنانها الالامعة المصفوفة طلاقتها وصفاء روحها ازداد
حيننا لان تدوب الاثقال الجائمة على صدره .

– زى ما انت شايفه ياسميره .

ازدحم صدره بالضحك ..

– اول امبارح كنت فايت .. شفتك في الشارع عماله تجرى

.. قلت يا ترى ايه ..

وضحكك من قلبها ..

- والنبي يا خويا .. اسكت .. راسي انقلبت والواد ابني
آجى اقوله يا واد وربني كتبك .. وان ما كنتش عارف حاجه
افهمك .. يقوللى يا امه اسكتى .. حاجات زمان بتاعتكم
ما تنفعلش معانا ..

- بقى كبير يا سميرة .. سيبه لوحده

- سايباه يا خويا

- ولا بسه الطوق الحديد عشان يعيش .. بتصدقى فى
الخرافات يا سميرة ..

- يا خويا الناس بتقول كده .. بخاف عليهم يا عبد العزيز ..
والنبي عيالى حلوين اوى بس لما تقعد معاهم كده وتجارهم فى
الكلام ..

اوصلها عبد العزيز وكر راجعا فى الشارع الظلال اكثر حلكه
وضوء القمر اكثر بهاء صوت وقع اقدامه واضحا فوق قلب
الصمت يمشى خفيفا ، يتأمل وجه القمر يفرس عيونه فى صدره
كانما بهم بان يرفع عقيرته مغنيا لم يرد ان يعود الى الدار لا يريد
ان يدفن فرحته فى غرفة العذاب على السطوح .

انحرف فى زقاق جانبي طويل مظلم تماما لا يرى طريقه ولكنه
يسير ، حتى احس بان الزقاق انتهى ، مال ، عتبة الباب منخفضة
جدا عن ارض الزقاق تحذر نازلا استند على سقف الباب بيده
دخل وسط الدار ، مظلم تماما لا يرى شيئا تخبط فى الظلام ،
باب فيه شروخ تتقصد بضوء ابيض باهر .. دخل الى المقهى ، غرفة
صغيرة وقده من ضوء الكولوب والصياح والزيابط والهياج ، حزمة
من الحياة الصخابة مدفونة تحت صمت القرية لكنها قوية انفسح
له مكان بين رجلين دون ان تتردد الضجة المندفعة المذيع على آخره
وصوت المطربة المرسع يندفع فى خط مواز لهيصة الجالسين

- والنبي شفتنى صحيح .. يادى الكسوف .. دا انا
كنت حافيه وراسي عريانه ..

وضحك من كل قلبه ..

- آدينى شفتك .. كنت بتعملى ايه ..

- كنت ياخويا بجرى ورا المعزة .. جتها داهيه .. مغلبانى
.. فى رجليها ستين عفريت ..

وتفرق فى الضحك ..

- بتاكل ياخويا حاجة الناس والناس فاضحانى ..
ثم تهدا قليلا وتعوها جدية طفلية ..

- والنبي يا عبد العزيز انا فى غلب .. معيز وخرقان وبهايم
وعجول .. وانا طول النهار دايه تحت رجليهم ..

وفجاء تفرق فى الضحك ويضحك عبد العزيز معها ويفرق
دون ان يعرف لماذا ؟

- اسكت على اللي جرى اول امبارح .. دخلت الزريبة ..

لقيت البقره راقده وممدده رجليها على الآخر وعينيها مغمضة ..

قلت يا نصيبتى البقره ماتت ورحت راقعه بالصوت .. ساعت

ما صوت راحت البقره ناطه وقايمة واقفه .. يا حوستى ..

اتارى البقره كانت نايمة .. الناس اتلمت عليه .. اقولهم انه ؟

بقيت فطسانة على روحى من الضحك .. والناس عمالين يضربوا كف

على كف .. وويقولوا البت اتهبلت ولا ايه ..

ومات عبد العزيز ضحكا لم يضحك هكذا من زمان ، لو يعانقها

ويضم ضحكها الى صدره ويدخله فى قلبه ..

- قولى لى يا سميرة .. لسه فاكره حاجه من العلوم بتاعت

زمان ..

الارائك بجوار الحيطان مزدحمة بالجالسين والارض المفروشة
بالحصر والزكائب لامكان فيها لقدم .

الطباي وحولها لاعبي الكوتشينة ورشقات الشاي وكركرة
الجوز ، الجو ساخن خائق .. ومن الكلوب ووش الوابور القهوجي
واقف امام المنصة يصب الشاي ويرص النار على الجوزة ومع كل
كوبة يناولها لرجل يصحبها بشتمة بشعة عارية .

نحيل وسخ الثوب ذابل العينين لكن وجهه الشاحب دافق بالحياة
اسنانه سوداء ووابتسامته وقحه قوية ناول عبد العزيز كوبة
الشاي دون تعليق .. ساخته قوية زائدة السكر، رشف عبد
العزيز منها ، قبضت فمه ، لكن طعمها عبقرى مرارتها تذوب في
سكرها وتسرح في كيانه كالسرور ذابت وحدته في الضجة السائده
عنه يصفق اوراق الكوتشينة في الطليه ويشتم رفيقه ويهدده
يتكلمون في كل شيء وفي نفس واحد وبمرارة وقوة واستياء
وغضب ..

- ضير المحطه ياوله خلينا نسمع النشرة ، سد حنك المره
اللى بتغنى دى .

ويمد القهوجي يده الى الراديو ليدير مفتاحه ولكنه لا ينسى
ان يرد .

- النشرة .. سياسى اوى زى اللى جابك .. ملعون ابوك

- عاوزين نفهم يا بجم .. هنتنى طول عمرنا حمير

وقورا صوت المذيع ووالضجة كما هى كانما لا احد يسمع
ولكنك بعد حين تسمع تعليقات من هنا ومن هناك على ما يقول
وتعرف انهم يتابعون .

« وصل السير ... »

- جاي يعمل ايه ابن الجزمه .

- انا لو هناك كنت تفيت في وشه ورجعته ..

ووجد عبد العزيز نفسه يتكلم .. هادئا ثم منفعلًا صارخا .

المذيع يتكلم وهو ينفعل والضجة هادره والكل يتكلمون ويعلق
واحد على كلامه ويرد والآخرين مشتبهون في كلام او عراقك او
ضحك وشتائم .

انفمس فيهم في قلبه مثل ما في قلوبهم من المرارة والغضب
والآلم تندى جبينه بالعرق وهو لا يكف عن الهدير بالكلام امتدت
يد بالجوزة اليه جذب منها نفسا عميقا كثيفة ثرية صعدت الى راسه
بقوة داخ وسمل لكنه لم يتوقف عن الكلام وعاد اليها مرة ومرة
طعمها رائع كانما مائة سيجارة في نفس واحد .. تدفق الدخان
من فمه ازرقا كثيفا وتدفق الكلام حادا صارخا .

فهرس

٥	الحضرة
٤٧	الخبز
٨١	السفر
١١٣	الخدمة
١٤٩	الليلة الكبيرة
١٧٥	الوداع
١٩٩	الطريق

رقم الإيداع ٩٦/٧٥٦٨

I. S. B. N 977-01-4879-2

مكتبة الأسرة



www.liilas.com

مهرجان القاهرة للتقاسم
١٩٩٦
القراءة للجميع
florist

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب